الفــوز العظيــم

﴿ أصحاب الجنة هم الفائزون ﴾

عبد السلام حمدى اللمعى

مكتبة الإيمان ـ المنصورة

ت/ ٢٢٥٧٨٨٢

مكتبة الإيمان
المنصورة ـ أمام جامعة الأزهر
ت: ٠٥٠/٢٢٥٧٨٨٢

تقديم

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة : ٢١ : ٢٢] .

جَاءَ النداءُ مِنْ قبل لله تَعَالَى إِلَىَ عَامَّة النَّاس آمِرًا الْجَميعَ بِعبَادة الإله الوَاحد ﴿إِلَهًا وَاحِدًا﴾ [التوبة : ٣١] إِلَه النَّاس * مَلك النَّاس * رَبَ العَالَمين . المُرَبِّى الأَعْظَم ، الَّذى حُقَّت لَهُ العِبَادَةُ الخَالِصَةُ ـ كَمَا قَال تَعَالىَ : ﴿ اعْبُدُوا رَبَّكُم ﴾ ، أىَ اعبُدوا اللَّهُ الَّذى ربَّاكُم فِى بُطوُن أُمَّهَاتِكُم وَإِذْ أَنْتُم أَجِنَّةٌ في أَرْحَامِهِنَّ ، وَيَسَّرْ لَكُمْ سُبُلْ الخُرُوج منها ﴿ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَه﴾ [عبس : ٢٠] وربَّانا جميعًا فى هذه الدنيا بوضْع القَواعد العامَّة للسُّلوك الإِنْسَانىّ ، وضوابطه من قيم اخْلاَقيَّة تَحْفَظُ للإِنْسَان حَقَّهُ ، وَتَصُوُنَ كَرَامَتُهُ ، وترسمُ منهَاجَ حَيَاته ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾[المائدة:٤٨] .

وَقَد هَدَاهُمّ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إِلَى الطَّيِّبَات التى أُحلَّت لهم ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ [الحج : ٢٤]، كَمَا مَنَّ عليهمْ أنْ هَدَاهُمْ إلى الصِّراطِ القَوِيم ﴿ وَهُدُوا إِلَىٰ صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾ [الحج :٢٤] .

إِنَّ العبادَةَ واجبةٌ للَّذى يُصَوِّرُنَا فى الأَرْحَام كَيْفَ يشَاءُ ، ثم يُطَوِّرنا فى بُطون أُمَّهَاتِنَا طَوْرًا من بَعدِ طَوْر ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ﴾ [الزمر : ٦] ثم قال تعالى : ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ [التغابن : ٣] ، ثم بَيَّن الطَّرِيقَ لمن شَاءَ الهِدَاية ولمن أرَادَ الضَّلال ﴿ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف : ٢٩] ، ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠] . وَذَهَبَ كُلٌّ إلى مَقْصَده و حَيْثُ آمَنَ مَنْ آمَنَ مِنْ دُونِ إِكْراه ، وكَفَرَ من كفَر من دُون إِغْوَاء ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن : ٢] .

وقد عَدَّدَ عَلَيْنَا فَضْلَهُ لنُقِرْ بِوُجُوبِ طَاعَته ونَشْتَغِل بِعِبَادَته ، لأَنَّه سُبْحانَهُ الخالق ـ البارئ ـ المصور .

فالبارئ : هو الذى تفوقُ قدرتُه كُلّ القُدْرات ، ولا تُدَانيه قُدْرَةُ كانت فى القُدْرة

على إيجاد الأشْيَاء من العَدَم حَيْثُ يأتِى بِهَا منَ اللاوُجود المُتَقدم عَلَى الوُجُود إلى الوُجُود بالكونِيَة والتولُّد كقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُون ﴾ [النحل : ٤٠] .

﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس : ٨٢] .

الخَالِقُ : فهو صَاحِبُ القُدرَة عَلَى صيرُورَة الأشْيَاء التى أوْجَدَها فَيُصيِّرهَا إلى مَخلوقَات أخرى كقوله تَعَالى ﴿ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا من طين ﴾ وكَمَا قَالَ تَعَالى لعيسَى بنَ مَرْيَم عَلَيْه السَّلامَ ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي ﴾ [المائدة : ١١٠] ، فَعِنْدمَا خَلَقَ الله الإنسان بدأه من الطين كما قال تعالى ﴿ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ ﴾ [السجدة : ٧] وكَذلكَ فَإن نَبِىْ الله عيسَى عليه السلام لما خَلَقَ الطيرَ بإذن الله فإنَّما خَلَقَهُ من الطين أمَّا المُصَوِر : فإنّه من يُخرِج المخلوقات فى شكلها الرَّاقِى النّهائىّ ليَجْعَل منَ المَادَة صُورةً ، فالإنسان مادةٌ من طين ثُمَّ صَوَّرَهُ عَلَى الشَكْل والصُّورة الّذى هُو عَلَيْها ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُم ﴾ [التغابن : ٣] .

هذا إلى جانب الإبْدَاع الإعْجَازى الموضّح لدَلائل القُدْرَة القَاهرة الموجبَة لكُل الخَلائق كَمَا قَالَ تَعَالى : ﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ ﴾ [السجدة : ٧] وقَدْ جَعَل سُبحانَهُ وتَعَالى خَلْق الإنسان والدوَاب آيات للْمُؤمنين ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُون ﴾ [الجاثية : ٤] .

ولبَيَان الآيات العَظيمة والدَّلائل الحكيمَة ذكَرَ سُبْحانه وتَعالَى أطوار الخَليقَة فى قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ . ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ . ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ [المؤمنون : ١٢ ـ ١٤] .

ثُم قَالَ تَعَالى مُتهكمًا بأولَئكَ الكافرين به والمارقين عَلَيْه المُتطاولين عَلَى شَريعَته ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُون ﴾ [الذاريات : ٢١] وفيه وَجُوبُ البَحث فى أطوَار خَلْقَ الإنْسَان وخاصَةً أوّلَ أطْوَاره فى عَالَم الغَيْبيات والظُلُمَات كقوله تَعَالى : ﴿ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ (٢٠) فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (٢١) إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ (٢٢) فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُون ﴾ [المرسلات : ٢٠ : ٢٣] والماءُ المهينْ : هو ماءٌ ضعيفٌ حَقيرٌ أوْ هُو [جُنُبٌ حَقيرٌ] تجْعَل من قَذَف به عَلَى غَير طَهارة ويُجنّبه مُجَالسَةَ الأطْهَار من غَير أعْذَار . لذَا يَتَعيّنُ التطَهُّر منْهُ قَدْر المُسْتَطَاع منَ الإسْرَاع والدعوة إلى إمعان البَصر وإعمال البصيرة قائمة ولا تزال لبيان الحجة البالغة التى تُغْنى بالدّليل للسّائل والنّاظر عَلى حَدّ سَوَاء .

قال تعالى : ﴿ فَلْيَنظُرِ الإنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ من مَّاءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴾ [الطارق : ٥ : ٧] . وفى الماء الدّافق قَالَ المفسرُون(١) .

ـ أى من المَنىّ ـ والدَّفْقُ صَبُّ المَاء . دَفَعْتُ المَاءَ ـ أدْفُقُه دَفْقًا . أى صَبَبْتُه ـ فهوَ ماءٌ دافقٌ : أى مَدّ فَوْقٌ .

قال الفراش ، والأخفش : مَاءٌ دافقٌ أىْ مَصْبُوبٌ فى الرّحم .

قال الزجاج : من ماء ذى إندفَاق .

قال آخرون : بأنّهُ ماءٌ مُنْدَفِع بِسُرْعةٍ إلى دَاخِلِ رَحِمِ المَرْأةِ .

وهو عندى مغاير لتلك الأقاويل مخالف لها :

حيث إن : دَافق ـ على وزن فاعل من الفعل الماضى دَفَقَ ، ومضارعه يَدْفُقُ وَمَصْدَرُهُ الدفْق ، والتَّدَفُّقْ .

ونَقُولُ دَافقٌ من دَافِع فالدّفْقُ والدَّفْعُ وَاحدٌ والمعْنَى عَلَى أنَّهُ مَاءٌ [حَاملٌ] للشىء مُوصلٌ لَهُ . [نَاقلٌ لهُ] .

فالماءُ يَحْمِلُ السُّكَّرَ أوّ المُلْحَ او الَّلوْنَ ويَحْمِلُ الطعَم والرائحة ـ لذلك فهو مَاءٌ حَامِل (٢) اما هَهُنا فالمُرادُ انّه يحملُ الخَلايَا الأوْلَى لمشروع الإنسان التى أسماها البعضُ [الحَيَامن] وقال آخرون : [الحيوانات المَنويّة] من حَيْثُ مكَان تَكْوينها فى الخصْيَتيْنِ إلىَ دَاخِلِ رَحِمِ المرأة من خِلالِ عَمَليّةٍ بَالِغَةِ الدقّةِ والتّعقيد والتَّشابُك والتّدَاخُلِ نَعْرِض لَهَا بإيجَازٍ فيمَا يَلى .

أولا : غدة البروستاتا [Prosate gland]

وهى تُشْبة مخرُوطا يَرتَكز عَلَى قمَّته ويَبْلُغ حَجْمُهَا [٤×٤ سم] وتقع عند قَاعدة المثَانة وتتكَوّن من ثَلاثَة فُصُوصٍ تَحتَوِى عَلَى غُدَد أنْبُوبية رَقِيقَة مُتشَّعبَة تقَعُ جَميعُهَا فى قَنَاة مَجْرى البُولِ الخَلْفِيّة وتعودُ أهَمِّيّتهَا إلى أنّها تُفْرِز سَائلا أبْيَض رَقِيقًا يُسَاعد [الحيَوانَات المَنويّة] (sperms.) عَلَى زيَادَة الحَركَة كَمَا يُوفّر لَهَا أسْبَاب حِفْظِهَا لمدة طَوِيلة . لأنّ هَذَا المَاءُ لَهُ خَصائصُه الكيمَاويَّة والبيُولوُجيَّة الَّتى تُعْتَبر بيئة مُنَاسبة تَمَامًا لحَيَاة تِلْكَ الخَلاَيَا مُنْذُ نَشْأتهَا حتّى صبهَا فِى قَرارهَا المكين .

---

(١) ص ٧٣٤١ جـ ١٠ تفسير القرطبى : ط . دار الغد العربى .

(٢) كما يحمل الماء الفيروسات المعدية القاتلة والسركاريا (دودة البلهارسيا) .

ثانيا : الخصية (testicle) ، (.Testis) .

هى الغُدَّةُ التَّنَاسُلِيَّة الرَّئيسة للرَّجُلِ وتَتَكَوَّن الحَيَوَانَاتُ المَنَوِيَّةُ عَنْ طريق تَطَوُّر بَعْضِ الخَلاَيَا الخَاصَّة بهَا . والخصيَة بَيْضَاوِيةُ الشكلِ ، ويَخرجُ بِالقُرْبِ مِنْ القُطْبِ العُلْوى لَهَا قَنَواتٌ دَقِيقَةٌ تَتَقَابَل وَتَمْتَدُّ مكوّنَةً رأسَ البَرْبَخ .

ويتكون البربخ [Epididmyis] من قناة طويلة مُلتفَّة حَوْل نَفْسهَا يَبْلُغ طولهُا حوالى ستة [٦] أمتار وتنْتهِى بالقُرب من القُطب السُّفلى للخصْية فى القَنَاة نَاقلة المَنىّ وهذه بدُورها تدخُل تجويفَ البَطن فى الحوُض حَيْثُ تُقابل قَناة الحويْصَلَة المَنويَّة مُكوِّنَتَين القَنَاة القَاذفةَ المُشتَركَة .

ويحتَوى كِيس الصَّفنِ (Schatum) عَلى الخصْيتينِ والبَرْبَخَينِ . وتَختَلف مكَان الخصيَتَينِ في الحَيَوانَات المُختَلفة (حَيْثُ تُوجَد) فى [البَطْنِ فى الدُّولفين والأفيال وفى الفَخْذ وَبداخلِ البَطْنِ فى القُنْفُذ وَالوطْواطْ] .

ويُمكنَ القَولَ بأَنَّ عَدَمَ خُروج الخصيتَين إلى خَارج البطنِ يُفقدهُما إحْدَى وظائفُهما وهى إنتاجُ الحيَوانَات المَنويَّة ، ولَكنِ لاَ يُفْقدهُما وَظيفَتَهُمَا الثَّانيَة وَهى تكْوينِ الهرْمُونَات (Androgen) ، ووُجُود الخصيَتَينِ خَارجَ البْطَنِ لَهُ أَهَمَّيتُهُ . وذَلكَ لتكُونَا فى مكَان به دَرَجَةُ حَرَارَةِ أقلّ من دَرَجة حَرَارة الجْسم حتَّى تَستَطيعَ أن تُؤدىْ عَملَها بكَفَاءة (دَرَجَة حَرَارةُ الجَو الخَارجى فِى المُتوَسط ٢٥ْم بيْنَمَا دَرَجَة حَرَارةْ الجسْم ٣٧م) ووُجُود الخصيْتَين فى كِيسِ الصَّفنِ - يَجعَلُهُمَا مَعُرَضيَّنْ لدَرَجَة حَرَارَة أَقلَّ لَوْ كَانَا دَاخل البْطن .

كيس الصفن (Scratum)

عبَارَة عَن الكيس الخَارجى للخصيَة ويُوجَد بجدَاره عَضَلات مَلْسَاءَ لاَ إرَادِيَة تَعْمَل عَلَى إبْعَاد الخصيَة عَن الجسْم أثنَاءَ الصَّيْف لتُحافظْ عَلَى دَرَجَة حَرَارَة الخصيَة بحَيْث تكُون أقلُّ مِن دَرَجة حَرَارة الجسْم بمقدَار ٤ دَرَجَات تَقْرِيبا كىْ تُحَافظا عَلَى حَيَويَّة السّائل المَنوى ، أمّا فى الشّتَاء فينكمش هَذا الكِيسُ إلى أعلى ليُقرّبَ الخصيْتَين منَ الجسمِ كَىَ لاَ تَفقد حرَارتها بسهُولة .

ممَّا سبَق يَتَّضحْ لجلاء أنَّ المُرادَ بقوله تَعَالى ﴿ مَّاءٍ دَافِقٍ ﴾ أىْ دَافعٌ حَاملٌ للْخليَّة التى تَتكوَّنُ فِى الخصيْتَين (الحيَوانِ المَنوى) حيث مكان النشأة والتطور .

وَلَقَدَ ثُبتَ تَحْتُ الميكروسكوب المَعْمَلى انْ الحَيوان المَنوىَّ يَسيرُ بسُرْعَة ٤ ملليمتر فى الدَّقيقَة الوَاحدَة فَكَيْفَ لَهُ أن يَسيرَ منْ حَيْثُ مَكَان تَطُّوره وَمَولده ونَشأته إلَى رحَم المرْأة إذَا كَانَ عَلَيْه أَنْ يَمُّر بالَبْربَخ الذَّى طُولُه ٦ أمتار .

واعلَم بأن استئصَالَ البروُستَاتَا من الذكُور يَقْضى تَمَاما على إفراز السَّائل الأبْيض الرقيق الَّذى يُسَاعد الْحَيوَانات المَنويّة عَلَى سُرْعَة حَرَكَتهَا وحفْظهَا لمُدَّة طَويلة لأنَّها سَرِيعةُ التأثُر بالحَرَارة ارْتفَاعًا أو انْخفَاضًا ، وَمِن ثَمَّ القَضَاءُ بالْكُليّة عَلى الانْتصَاب والإنْجَاب .

وإذا مَا تَّم استئصال الخصيتين قَدْ يحدُث الانْتصاب مع وجود الإفرازات ولا يمكن إطلاقا . الإنجاب أو التناسل . وذلك لأنهما معمل تطوير وإنتاج الحيوانات المنوية التى تنتقل عبر السائل الذى تُفْرِزُهُ البُروستَاتَا (الماءُ الدَّافق) أو (الماء المهين) إلى حيث يكون نطفة فى قرار مكين . كما قال تعالى : ﴿ **فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ القَادِرُون** ﴾ ، والمعْنَى لَو تَدفَّقَ الماءُ من دون حَمْله للحَيوان المَنوى مَا كانَتْ الحياةُ البَشرية أو الحيوانية .

الغدة النخامية (Pituitary gland)

هىَ عبَارَة عَن جزْء صَغَير يَقَعُ تَحْتَ المُخ وينْقَسمْ إلى ثَلاثَة فُصَيْصَات [الفَصُّ الأمَامىّ ـ الأوسْط ـ الْخَلْفى] وتُفرز هَذه الغُدَّة العَديدَ من الهرمُونَات الْمُنَظِّمة لعَمل بَاقى الغُدَد الصَمَّاء بالجْسْم وتُسمَّى الْغُدَة الأمّ ويُفْرز الفصُّ الخَلْفى الهرمونات الخَاصّة بالتَّنَاسُل (gonado tropins) والتى بدورها تَنظم عمل الخصية فى الذكور وتدفعها لإفراز هرمون [testos terane] (هرمون الذكورة) وأيضًا تنظم عمل المبيض فى الإناث لإفراز هرمونات الأنوثة ـ المعروفة علميا باسم

Estrogen & phogestehone (١)

وهذا عندى هو المراد من قَوْله تعالى : ﴿ **يخرج من بين الصُّلب والتَّرائب** ﴾ والصُّلب والترائب كُنىَ بهمَا عن كل البَدَن من الأعصاب والعظَام والمخ .

وعلَيه فإن المشرُوع الأوَّل لخَلق الإنسان بالغ الدقَّة والتركيب والتَطْوير والإخراج ـ ممَّا يَستَوْجب النَّظَرَ بإمْعَان إلَى قُدْرَة اللَّه تَعَالى وتَدبُّر آلائه ونعَمه ﴿**ويزْدَادَ الَّذينَ آمنُوا**

(١) راجع المادة العلمية أ. د محمد عبد الغنى وهبة ـ رئيس قسم الباثولوچى بمعهد بحوث التناسليات بالهرم ـ القاهرة ـ مصر .

إيمَانًا وَلا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلا﴾ [المدثر : ٣١] .

وقد عدَّدَ الحقُّ سُبحانُه وتَعَالى بَعْضا من إبداعات خَلقه وإطلاَقَات قُدْرته ومحاسن صناعته لِيُبَرهِن بالأدلّة الدامغة أنه فى خلق الإنسان ـ والدواب لآيات لقوم يُؤمِنُون .

كل ذلك يستوجب النظر فى النفس الإنسانية لتحجيمها وكبح جماح غرورها حتى لا تتطاول على خلق الله فتُفسدُ فى الأرض أو أن تتطاول على الذات الإلَهية . فتكفر بالله عن عمد أو بغيره وتنكرُ فَضْلَ الله تعالى ﴿ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُم ﴾ [البقرة :٢١] ، ﴿وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُم﴾ [البقرة: ٢٢].

وقال تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ (٦) وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٧) تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ (٨) وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ (٩) وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ (١٠) رِزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ ﴾ [ق : ٦ : ١١] ، وأرسَى قَانُون الحَياة فى خدْمَة البَشَرِيَة حتَى تستَقيمَ حَياة البَّشَر عَلَى الأرض . نظير قوله تعالى : ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ (٧١) وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ (٧٢) وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلا يَشْكُرُون ﴾ [يس : ٧١ : ٧٣] . وبَيَّن الحقُّ تبارك وتَعَالَى مَا خَلَق من سَموات ومَا يَنْزِلُ منْها والأرض وَمَا ينبتُ عَلَيْها وَذَكَر البحَارَ وَمَا يَجْرِى بِهَا من الفُلْك ـ وأنَّه سُبْحَانَهُ سَخَّرَ الأنهَارَ والليْلَ والنَّهار ـ وأعْطَى الإنْسَان سَلَفًا كلّ مَا سَأَلَ وَهَيأ لَهُ سُبُل الحُصُول عَلَى أمَانيّه من نعَم اللهَّ التى لاَ تُحصى ولَكِن الإنسَانَ مع كل هذا ـ كفَرَ بالله وَظَلَم نَفْسَه .

قَالَ تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ (٣٢) وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (٣٣) وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ [إبراهيم : ٣٢ : ٣٤] .

اعلَم أن القادرَ عَلَى إحدَاث وَإِيجَاد وَإبْدَاع أى [تَحْصيل] ما تقدم ذكره لهو أحق بالعبادة بغير كُفرٍ أَوْ شرك أوْ إشراك به ولا اتخاذ أوثان آلهة يُعْبَدُون من دُون الله :

﴿أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلا يُنقِذُونِ . إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴾ [يس ٢٣ ، ٢٤] .

وَقَال تَعَالَى : ﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلاً (١) وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴿١٢٥﴾ اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ﴾ [الصافات : ١٢٥ : ١٢٦] .

كما أَمَرَنَا الغفورُ الودُودُ أن نُخْلصَ العبَادةَ لَهُ وحدَهُ : ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴾ [البينة : ٥] .

وقال تعالى : ﴿ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الزمر : ١١ ، ١٢] .

ومن رَحْمَته تَعَالى أن نَبَّه إلى ضَرُورة الانتهاء من نواهيه تَحْذيرًا من لقَاءِه ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾ [آل عمران : ٢٨] .

واعلَم بأن ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ [المؤمنون : ٢١] .

عَوْدٌ عَلَى ذى بدْء ، فَقَوْلُهُ تَعَالَىَ : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُم لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة : ٢١] .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ ﴾ [الحج : ١] .

وفى الآيتين الكريمتين أَمْرٌ وَاجبٌ للنَّاس بالْعبَادَة والتَّقْوَى .

ولكن كثيرًا منَ النَّاسِ قد استَحبُّوا الضَلاَلَة عَلَى الهُدَى والْكُفْرَ عَلَى الإيمَان إنَّهُ الأمْر العامُ بالنَّاس .

وأما الالتفات يكون للخاصَّة منْهُم [المؤمنُون] كقَوْله تَعَالَى : ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ [ص: ٢٤]، ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾[سبأ:١٣] .

إنهم شريطة الله فى أرضه من كل خَلْقه وَهُمَّ الْمُؤْمنُون به الشّاكرون لنعْمَائه والصّابروُن عَلَى بَلْوائه ـ الراضُون بقَضَائه . إنَّهُم الْمُؤمنُون العَابدُون المخلصون فى طاعته . الراجون رحمته الخائفون عذابه العاملون بكتابه والمتمسكون بسنة نبيه محمد ﷺ ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٤]،

(١) بعلا : هو علم لصنم كان يصنع من ذهب .

﴿ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب : ٣٥] .

* * * * *

وإننى فى هذا المقام أذكّرُ نفسى والمؤمنين بأن لا نغتر فى ديننا بغير الحق ولا يجب أن ننسى الماء المهين فلا يجب [أن ينسى الطين أنه من طين] ، كما أُنَبهُ على أننى سوف أتناول فى هذا الموضوع إن شاء الله تعالى أمر القليل [المؤمنين] وهم الخاصة من العامة .

وأَبْحَثُ فِي حَيَاتِهِم ، سُلُوكِهِم ، وَمَنْهَجِهِم - تَوصيفِهِم - تِجَارَتِهم - صلاَتِهم - إنفاقهمْ - تَوَسُّلاَتِهم . وكيفَ تَحْمِلُ المَلائكَةُ هُمُومَهَمْ وَسَوفْ أَجْتَهِدُ [فى] تبْيَانِ مَا انْتَهَوْا عَنْهُ وتَوْضيحِ مَا أُمِروا بِهِ زِيادَةً فِي بَيَانِ أصْحَابِ الجَنَّةِ حَتى يُدْخِلُهم اللَّهُ تَعَالى بِفَضْلِهِ وَبِرَحْمَتِهِ دَارَ المُقَامَةِ يُحْبَرُونَ فِيهَا . فَضْلاً مِنَ اللَّهِ ونِعْمَةً .

وذلك هو الفوز العظيم .

وما توفيقى إلا بالله

الكاتب

الباب الأول

أولاً : كتاب الهدى

أ ـ قال تعالى : ﴿الٓمٓ ① ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ② الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ③ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ④ أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة : ١ : ٥] .

جاء فى قوله تعالى ﴿ الٓمٓ ﴾ كلام كثير . قال بعضٌ إ نها : أسماء سور القرآن الكريم وقال آخرون : إنها أسماء الله تعالى فيما قال تعالى : ﴿ آلر ، حَمَ ، ن ﴾ مجموعها هو اسم الرحمن (١) .

قيل : إن كلَّ حَرْفٍ مِنْهَا دَالٌّ عَلَى اسْمٍ مِنَ أَسْمَاءِ اللَّه وصفَة مِنْ صفَاته قال ابن عبَّاس ﷺ في ﴿ آلم ﴾ : الألف إشارة إلى المعنى إلى أَنَّهُ تَعَالَى [أَحَدٌ ، أوَّلٌ ، آخَرٌ، أَزَلِىٌّ ، أَبَدِىٌّ] ـ و ـ اللاَّمُ إِشَارَةُ إِلَى أَنَّهُ لَطِيفٌ ـ و ـ الِميمُ إِشَارَةٌ إلى أنّه مَلِكٌ مَجِيدٌ ، مَنَّانٌ .

وعلى هذا المعنى قال ابن عباس ﷺ : إن الحاصل من [آلم] أى أنا الله أعلم، ﴿ آلر ﴾ أنا الله أرى .

وقوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ ﴾ .

اعلم أن [هذا] حرف إشارة أصلها [ذا] كقوله : ﴿ مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا﴾ [البقـرة : ٢٤٥] ، و [ها] تَنْبِيهٌ . فإن دُنُوّ الشيء مَدْعَاةٌ للإشارة إليه فقيل [هذا] . أىْ تَنَبَّهْ أَيُّها المُخَاطَبُ لما أَشَرْتُ إليه فإنه حاضرٌ إليك بحيث تراهُ ـ وقد تدخل [الكاف] على [ذا] للمخـاطبة كقولنا [ذاك خيراً] . وتـدخل [اللام] لتأكيد المعنى: [ذلكم خير لكم] ، ﴿ وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ ﴾ [الأنبياء : ٥٠] ومنه ﴿ ذَلِكَ الْكِتَاب ﴾ على معنى [إن هذا الكتاب] مخاطبة مع القوم .

قال صاحب الكشاف (٢) [جار الله الزمخشرى] : [آلم] مبتدأ ، و [ذلك]

(١) ص ٣٦٠ ، ج ١ مفاتيح الغيب ط دار الغد العربي .

(٢) المصدر ذاته ص ٣٣٧ .

مبتدأ ثانيا ، والكتاب خَبَرُهُ والجملةُ [ذلك الكتَبُ] خبرُ المبتدأ الأول ، ومعناه أن ذلك الكتاب هو الكتاب الكامل كأن ما عَدَاهُ من الكُتُب فى مُقابَلته ناقصٌ ، قوله تعالى : ﴿ لا رَيْبَ فِيهِ ﴾ الرَّيْبُ : هو الشَّكُّ والمُرادُ منْهُ : نَفى كَوْن الكتَاب مَظَنّة للرّيب [الشَّك] بوَجْه من الوجوه ، ولا شبهة فى صحّته إذ لا يَجُوز لمُرْتَاب أو لعاقل أن يرتاب فيه لأن أصحاب الفصاحة والبلاغة [العرب] عَجَزُوا عن معارضة أقْصَرَ سُورِ القرآن الكريم قرأ أبو الشعثاء : [لا ريبٌ] بالرَّفْع لوجوب ارتفاع الريب بالكُلّيّة .

والمشهورُ فى القراءات الوقوف على [فيه] لأن فيهَا يكون الكتابُ نفسَهُ [هُدَىً] كما جاء فى آيات القرآن الكريم أنه (هُدىً ورحمة) ، (نور وهدى) .

قوله تعالى : ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ .

اعلم أن الهُدَى والدَلاَلَة والإرْشادُ والبَيَانُ والفُرْقَانَ وَاحدٌ .

فالهُدى : عبَارة عَنِ الدَّلاَلَة المُجَرَّدَة دُونَ الإرْتبَاط بوُجُود الاهْتدَاء - أَىَّ أنَّها السَّبَبُ دُون النَتيجَة . نَظيرَ ذَلكَ قَوْلَهُ تَعَالى : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ ﴾ [فصلت : ١٧] ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [سبأ : ٢٤] وفيه الهُدَى مَع عَدَم الاهْتدَاء - تلْكَ هىَ الدَّلاَلةُ (الهُدَى) للمُتَّقِينَ.

والوقَايَةُ : هىَ [فَرْط الصيَانَة] والتَقْوى والخَشْيَة والوقاية واحد . كقوله تعالى ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [الشعراء : ١٠٦] يعنى ألا تخشون الله .

وتتعدد الأغراض الأصلية لكلمة التقوى وتتنوع كما ورد فى القرآن الكريم:

الأول : بمعنى [الإيمان] كقوله تعالى: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ﴾ [الفتح : ٢٦] .

الثانى: بمعنى [التوبة]﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا﴾أى [تابوا] [الأعراف:٩٦] .

الثالث : بمعنى : [الطاعة] ﴿ أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ [النحل : ٢].

الرابع : بمعنى :[ترك المعصية] ﴿وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ [أى] فلا تعصوه [البقرة : ١٨٩] .

الخامس : بمعنى [الإخلاص] ﴿ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [أى] من إخلاص القلوب [الحج : ٣٢] .

والدلالة [الهدى] يصح أن تكون للمتقين المهديين وأيضا يَصِحُّ أن تكون

للكافرين ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد : ١٠] .

﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُر﴾ [الكهف : ٢٩] .

قوله تعالى : ﴿ الذِّينَ يُؤْمِنُون بِالْغَيْبِ ويُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ ومِمَّا رَزَقْنَهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ المُتَّقِى ، يكُونُ فَاعلاً للحَسَنَاتِ ، وتَارِكًا للسَّيِّئَاتِ . وهو بذلك يُعْطِى تَفْسِيرًا دقيقا لِلْمُتَّقِين الَّذين [يُؤْمِنُونَ بالغَيْبِ] أى يَعْتَرِفُونَ به ويَثِقُونَ بأنَّهُ حَقٌّ .

قوله تعالى : ﴿ ويُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ ﴾ [البقرة : ٣] .

على معنى كونهم ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ [المعارج : ٢٣] .

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [المعارج : ٣٤] .

والصلاة فى اللغة : الدعاء ـ كقول الشاعر

وقابلها الريح فى دنِّها   وصلى على دنِّها وارتسَمْ

وهى فى الشرع: مخ العبادة ورأس سَنَامِهَا لقوله ﷺ :« الصلاةُ عمادُ الدين .... الحديث » .

والمراد يؤدونها بأركانها كامِلَةً غَيْرَ مَنْقُوصَةٍ فى أوْقَاتِهَا المعْلُومَةِ

* * * * *

قوله تعالى : ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُون ﴾

الرزق فى كلام العرب هو [الحظ] ـ والحظ هو نصيب الرجل الخاص له دون غيره ، وأصل الإنفاق إخراج المال من اليد سواء أكان الرزق أكلا أو مُلكا لقوله تعالى: ﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِه ﴾ [الطلاق : ٧] .

ولإثبات وجوب الإنفاق من الملك قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [التوبة : ٣٤] .

* * * * *

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ .

هو إيمان شامل وعام وواجب يتناول كل من آمن بمحمد ﷺ مِنَ الذين آمنوا بما أنزل على موسى وعيسى (عليهما السلام) أولم يسبق لهم ذلك .

وإن كانت دلالة اللفظ عام فإنه يحتمل التخصيص نَظِيرُ قَوْلُهُ تَعَالى : ﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا

مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُم﴾ [يس :٦] .

وذلك على معنى : أنهم الذين آمنوا بك من أهل الوثنية العربية ومن أهل الكتاب كل قد آمن بالله وملائكته وكُتُبه ورُسُله وبالآخرة هُم يُوقنُون .

ـ اليقين : هو العلم بالشيء بعد أن كان صاحبه شَاكًّا فيه .

والآخرة : هى صفَةُ الدَّار الآخرَة وسُمّيَتْ بذلكَ لأنَّها مُتأخرةٌ عَن الدُّنيا وكُلُّهُ مَديحٌ منَ اللَّه تَعَالى لكَوْنهم مُتيقنين بالآخرَة لمَا فيهَا منَ البَعْث والنشور والسؤال والحساب . وإدخَال المُؤمنينَ الجَنَّة ودَعِّ الكافرين إلى جهنم دَعًّا ، ويدل على أنهم الكاملون فى الفلاح ومن أسباب فلاحهم اتقاؤهم المعاصى وَوَعَدُ الله لَهُمْ بالْفَلاحِ والْفَوْزِ مَا قَالَ تَعَالَى فيهمْ :﴿ أولئك عَلَى هُدًى من ربّهم وأُولَئكَ هُمُ الْمُفْلحُون ﴾ .

ب : قوله تعالى :

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ طسٓ تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ① هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ② الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ [النمل : ١ : ٣] .

طس : مثل السور التى تبدأ بالحروف . يُرَدُّ بفضل علمها إلى قائلها سبحانه وتعالى أما قوله ﴿ تِلْكَ﴾ : إشارة إلى آيات السورة ، والكتاب المبين : هو اللوح المحفوظ نَظِيرُ مَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ ㉑ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾ [البروج : ٢١ : ٢٢] ، وإنما نُكِّرَ الْكِتَابُ لِيَصِيرَ مُبْهَمًا بالتَّنْكِيرِ فَيَكُونُ أَفْخَمُ وأَعْظَمُ لَهُ .

قَوْله تَعَالَى : ﴿ هُدًىً وَبُشْرىً لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ فالبُشْرَى الحَمِيدَةَ المُفْرِحَة السارَّة لا تكُون إلا للمؤمنين المهتدين كقوله تعالى : ﴿ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ [يس : ١١]، وهى بشارة على الضد من قوله تعالى : ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [التوبة : ٣٤] .

﴿ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَوة ﴾الأَقْرَبْ أَنَّهَا الصَّلَوات المَكْتُوبَةُ لأَنَّهَا جَاءَتْ مُعَرَّفَةٌ [بِأَلْ] ـ وإِقَامَةُ الصَّلَواَة هُو إِتْيَانُها وتَأْدِيتُها بِشُرُوطِهَا وأَرْكَانِهَا كَمَا هُو الحَالُ فِي الزَّكَاةِ الوَاجِبَةِ أَىْ أَنَّ إِقَامَتَها تَعْنِى وَضْعَهَا فِى حَقِهَا .

﴿ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُون ﴾ يَعُودَ المَقْصُودُ مِنْ تِكْرَارِ [هم] إلى تأكِيدِ وَتَقْرِيرِ المَعْنَى فِى أَنَّ الَّذِينَ يُوقِنُون بالآخِرَة حَقَّ الإِيمَان هُمْ هَؤلَاءِ الجَامِعُون بَيْنَ الإِيمَانِ والعَمَلِ الصَّالِحِ لأنَّ خَوَفَ العَاقِبَة يَحْمِلهم عَلَى تَحَّمل المشَاقّ .

جـ ـ قَوْلُهُ تَعَالَى :

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الٓمٓ ① تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ② هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ③ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ④ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [لقمان : ١ : ٥] .

كما قيل هناك : فإن معنى ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ ـ [هذا] والمُرادُ بتلك [هذه] ونضيف أن تلْكَ قد تكون إشارة إلى الغائب على معنى أن ما سبق نزوله قبل هذه وما سينزل بعد من آيات الكتاب الحكيم ـ فكانت [تلك] إشارة إلى كل آيت القرآن الكريم . ما نزل

قبل وما سينزل بعد .

الكتاب الحكيم : وصفه بالحكمة بمعنى [ذى الحكمة] كقوله تعالى : ﴿ **فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ** ﴾ [الحاقة:٢١] . أى : ذات رضا .

قوله تعالى : ﴿ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴾ .

كان القول هناك ﴿ **هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ** ﴾ وههنا قال : ﴿ **هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ** ﴾ .

ففى الأولى : إشارة إلى أنه يهتدى به من يَتَّقِى الشِّرْك والعِنادَ والتَّصَلُّبَ وينظر فيه من غير عِنَاد .

وفى الثانية: لما زاد ههنا [رحمة] أردف بها المحسنين .

فالمحسن : هو الآتى بالإيمان . والمتَّقى : هو التَّاركُ للْكُفر

كقوله تعالى : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ** ﴾ [النحل : ١٢٨] .

ومن جَانَبَ الكُفْر وتَرَكَهُ وَجَبَتْ لَهُ الجنَّة .

ومن أَتَى الإيمانَ عَلى حَقِيقَته كان محسنا ووجَبَتَ له الزيادةُ من فضلِ اللهِ ورحمته كقوله تَعَالى ﴿ **لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ** ﴾ [يونس : ٢٦] .

ولأنه تعالى لما ذكر أن ءايت القرآن الحكيم رَحْمةً أرَادَ منَها بِقَوْلِه : [للمُحْسنين] وقد سبق القول فى إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة . واليقين بالآخرة . أولئك هم المهتدون بُهَدى الله لهم ، السائرُون على دَربِ الحقيقةِ فى طريق نوره ﴿ **يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ** ﴾ [النور : ٣٥] ، وأُولئك هُمُ المُفْلحون .

ـ تلك هى آيات القرآن وكتاب مبين ـ حكيم . هُدىً لِلْمتَّقين ، ورَحْمَةً للمُحْسنينَ . وقد نَعَتَهُمُ اللَّهُ سبحانَهُ وتَعَالَى بِقَوْلِه : ﴿ **إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ (١٥) تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ** ﴾ [السجدة : ١٥ : ١٦] .

وفيه الإشارة إلى أن الإيمان بالآيات كلها كالحاصل المستديم وإنما ينساه البعض فإذا ذكروا به خروا سجدًا [ساجدين لله] ـ على معنى انقياد أعضائهم وتسبيحهم بحَمْده وتنطق ألسنَتُهم بتَنْزِيهِه سُبْحَانَه عن الشرْكِ ـ وَهُمْ لا يَسْتكبرُون ـ وقُلوبُهُم خَاشعَة لله من دونِ تكبر أو استكبار وقد التزم هؤلاء الساجدون سلوكا عمليا ومنهجًا واقعيا يُحَدد

أسْلوبَ إيمانهم وجل اهتماماتهم وعظيم أعمالهم كما قال تعالى : ﴿ **تَتَجافَى جُنُوبُهُم عَنِ المَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُم خَوْفًا وَطَمَعًا وَممَّا رَزَقْنَهُم يُنفقُون** ﴾ وهو ما شَرَحتْهُ الآيات ﴿**كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ⑰ وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ**﴾ [الذاريات: ١٧ : ٨] .

أما قوله تعالى : ﴿ يدعون ربهم ﴾ أى يصلُّون على وجوب أن الصلوات أو الصلاة أسلوب الدعاء حَيْثُ [الدعاء والصلاة] من باب واحد على المعنى ـ فالطلب والرغب إلى الله تعالى قد يكون فى الصلاة كما يصح أن يؤتى بِهِمَا خارِج الصلوات أو [الصلاة] .

قوله تعالى : ﴿ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾

فيه تأكيد على أن العبادة تكون [خَوْفًا] من الله كَمن يَخْدمُ المَلكَ الجبّار مخافَةَ سَطْوته وَجَبرُوته ، وتكوُنُ [طَمَعًا] فى خير الله كَمَن يخدِم الجوَّاد طَمَعًا فى كَرَمه وبِره ، ثم إنهم فى سبيل خَوْفهمِ وطَمَعِهِم يُنفِقوُن مِنَ رِزْقِ الله كَقَولَه تَعَالى : ﴿**ومِمَّا رَزَقْنَهُم يُنفقُونَ** ﴾ .

إذْ إنَّ منْهاج كتَاب الهُدى والرَّحمة يكونُ فى إتْيانِ أوامرِه واجتنَابِ نَوَاهِيه ومِن ثمّ فإنّه مَنْهج المُؤْمنينَ المتَّقين وصُولاً إلَى دَارِ المتقين .

وذَلكَ هُو الفَوْزُ العَظِيمُ .

ثانيا : الأوامــر

قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴾ [الأنفال : ٢٠] .

وقال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال : ٢٤] .

وقال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ ﴾ [محمد : ٣٣] .

بين الحق تبارك وتعالى قَواعدَ الأدَب للخاصة من خلْقه الذينَ ءامَنُوا بالله وبما أُنزِلَ عَلى رسُوله ﷺ وقد وَضَّح لَهُم السلُوك القوِيم ابتداءً بطَاعَة الله ورسُوله ـ وعدم الأعْراضِ عَن أوامرِه تعالى وانتهاء إلى الاجتناب عن النواهى والمحرمات . من أجل أن لاَ يفتقد الله عبدَهُ عندمَا دَعَا وأن لا يجدَهُ حَيْثُما نَهَى .

فمع الطاعة تكوُن الاستجَابة .

قال أبو عُبَيْدة والزجّاج : استجيبُوا ، معناه أجيبُوا (١) .

والمعلوم : أن كل مَا أَمر اللهُ به فهُو مُرَغَبٌ فيه مندوبٌ إِليْه . وأنه حُكْمٌ عامٌ فى جميع الأوَامرِ يَسْتَوْجِب الإعْمَالَ عَلَى الإطْلاَقِ دُون التقيُّد بشرطِ خاصٍ أو التفات إلى تبعيضِ الأمُورِ .

ولأنَّ طاعة الله تَحمّل على طَاعة الرّسُول ، وحُبَّ اللّه مُسَبَّبُ بحُبّ الرَّسُولِ ومُعَلّقٌ عليه كقوله تعَالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ [آل عمران: ٣١] لذلكَ قَالَ تعالى : وأطيعُوا اللّهَ وأَطيعُوا الرَّسُولَ وهو ما يعنى عطف المسبب على السبب كقولنا ـ اجلس لتستريح ، ذاكر لتنجح ومعناه واضح جَلِيّ.

كأنه تعالى قال : يا أيها الذين آمنوا علمتم الحق فافعلوا الخير وداوموا على ما أنتم عليه من الإيمان واسألوا التثبيت عليه ولا تبطلوا أعمالكم بترك طاعة الرسول وسنته الشريفة واحَذروُا أن تَقَعُوا فى المُضلاَت والمُتَشَابهاتِ اجْتَنَابًا للشرْكِ خَشْيَةَ الخُسْرانِ نَظِيرُ قوله الكَرِيم : ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر : ٦٥] .

(١) فتح البارى ـ للبخارى ص ٤٧١ ج ٧ .

وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحديد : ٢٨] .

ـ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾ [النساء : ١٣٦] .

ـ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾ [النساء : ٥٩] .

فى الاولى نجد المُخَاطَبِينَ هُمُ الذِّينَ ءَامَنُوا مِن أَهّلِ الْكِتَبِ بعيسى عليه السلام وقد أتاهم الله أجرهم على ذلك ـ وهذا أَمْرُ للَّهِ تَعَالى لَهُم أن يَتَّقُوهُ [جَلَّ وعَلاَ] وأّن يؤمنوا بمحمد ﷺ وفى ذلك كِفْلٌ : أىْ [نَصِيبٌ] والكفل [1] الثانى جَزَاءَ إِيمَانهم بِعِيسَى عليه السلام ـ وذلك نظير قوله تعالى :﴿ أُوْلَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ [القصص: ٥٤] .

ومع الكفلين العظيمين اللذين وُعِدُوا بهما . قد وَعَدَ الكَرِيمُ الوهَّابُ بِإِنْجازِ وَعدِ غاية فى الجَمَالِ والطَّلَب بأنه سبحانه سيجعل يوم القيمة لهؤلاَء المؤمنين نورا يمشون فيه نظير قوله: ﴿ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [الحديد : ١٢] . وفوق كل ما تقدم وعد الحنَّانُ المنَّانُ بأنه سَيَغْفِر لَهُم ما أَسْلَفُوا مِنَ الآثام والمَعَاصِى .

وفى الثانية :

جَاءَ الخطَابُ للَّذِينَ ءامَنُوا بالدَّلاَئل التَّفْصيليّة [باللَّه ، وَمَلاَئكته ، وَكُتُبه ، ورُسُله] أن يُؤْمنُوا بأنَ كُنْهَ عَظَمة اللَّه لا تَنْتهى إِلَيْهَا عُقُولُهُم . فَالحَاصِل أن العَقْل البَشَرى لاَ يَنْتَهِى إلى أَحْوال المَلاَئكة والكُتُب والرُّسلِ على سبيل التَّفْصِيلِ ، لِذَلِكَ فَيحْسُن أَن يَسْتَمِرَّ هَؤلاَءِ عَلَى إِيمَانِهِم ثُمّ يَزْدَادُوا إِيماناً مَعَ إِيمَانهم .

وفى الثالثة :

نَجِدُ أَنّ أَمْرَ اللَّه تَعَالى قَد اشْتَمَل عَلَى تنفيذ أوامره كَمَا أَمَرَ بِتَنْفِيذِ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولَ ﷺ .

---

(١) اختلف أهل اللغة والمفسرون فى تعريف الكفل : إن شئت ص٤١٥ ج ١٥ مفاتيح الغيب .

وفى الطاعة :

قال المعتزلة : الطّاعةُ موافقةُ الإرَادة .

وقال أهل السنة : الطاعة موافقة الأمر لا موافقة الإرادة .

وعليه فإن طاعة أولى الأمر واجبة على شرط أن يكونوا فى طاعة الله ورسوله . فإن كانُوا فى غَيرِ طَاعَةِ اللَّهِ ـ جَازَ الإعْراضُ عَنْهم والتمرد عليهم لقوله ﷺ: [لا طَاعَةَ لمخلُوقٍ فى مَعْصيةِ الخَالقِ] ـ وإذا لم يكن فإن فى طاعتهم معصية .

لهذا : قال على بن أبى طالب رضي الله عنه وأرضاه: حَقٌّ على الإمام أن يحكم بما أنزل الله ويؤدى الأمانة . فإذا فعل ذلك فحق الرعية أن يسمعوا ويطيعوا وتدل الآية الكريمة إلى حتمية اللجوء إلى الأحكام المنصوص عليها فى الكِتَاب والسُّنّةِ حَالَ الاخْتلافِ فِي شَيء . علْمًا بأن التشريع الإسلاَمِى قَد أقر القياس والإجماع والاجتهاد مصادر من مصادر التشريع . لما بَيْنَ أيدينا من حديث الرسول ﷺ والذى وقع فيه طبقا لما روى الإمام أحمد عن معاذ بن جبل : حيث قال . لما بعثه الرسول ﷺ إلى اليمن [قال: كيف تَقْضِى إذا عُرِضَ لَكَ القضَاءُ؟. قَالَ: أقْضِى بِكتَاب اللَّهِ. قال: فإن لم تَجِدْ فى كِتَابِ اللَّهِ قال: فَبِسنّةِ رسُولِ اللَّهِ قَال: فإن لَم تجد فى سنة رسول الله ولا فى كتاب الله . قال : فأجتهد رأيى ولا آلو (أُقصّر) . قال: فضرب رسول الله على صدره وقال ، الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله لما يرضى الله ورسوله .

فَطَاعَةُ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ومَنْ صَلحَ مِن وُلاَةِ الأمورِ أَمْرٌ مَحْمُولٌ عَلَى الوُجُوبِ وَمَنْ أَبَا فقد أذنب وَعَصا وخرج عن الإيمان كما نبه الله تعالى بقوله الكريم ﴿ **وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً** ﴾ [النساء: ١١٥] .

وهو عندى سياق محمول على التهديد والتقرير معا

* * * * *

وقال تعالى :

ـ ﴿ **وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ** ﴾ [آل عمران : ١٣٢] .

ـ ﴿ **وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ** ﴾ [الأنفال : ٤٦] .

ـ ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [المائدة : ٩٢] .

ففى الآية الأولى :

قال محمد بن يسار: مُعاتبَةٌ للذينَ عَصَوْا الرسُولَ ﷺ حينَ أمَرَهُم بِمَا أمَرَهم بِهِ يَومَ أُحُد .

وَقَالت المعْتَزِلَةُ : هَذِه الآيةُ دالةٌ عَلَى أن حُصُولَ الرحْمة موقوف على طاعة الله وطاعة الرسول ﷺ فَمن اتَّقى الْمَعَاصِى وَجَبَتْ لَهُ الرَّحْمَةُ ، ومَن فَارق التَّقْوىَ وَجَبَتْ لَهُ النَّارُ .

وفى الثانية :

يُعَلِمّ الحقُّ سبحانه وتعالى عبادة المؤمنينَ نوْعَينِ من الأدَبِ عند التِقَاءِ الفِئتَيْنِ المتحاربتين [المؤمنة والكافرة] .

الأول : الثبات : وهو توطين النفس على اللقاء وعدم محادثتها بالتولى عند اللقاء أو يوم الزحف .

الثانى : الذّكْرُ : أن يذكروا الَّله ذِكْرًا كَثِيرًا .

ثم قال تعالى: لعلكم تفلحون ـ لأن مقاتلة الكافر إذا كانت لأجل طاعة الله تعالى كان ذلك جاريا مجرى بذل الروح [الاستشهاد] فى طَلَبِ مَرضاة الَّله تَعَالى ، فإنَّ غَلَبَ العَبْدُ المؤمِنُ الكافرَ أو الَخصْمَ فَازَ بالثَّوابِ والغَنِيمَةِ وإنْ صَارَ مَغْلُوبًا فَازَ بالشَّهادَة والدرَجَات العَالِية .

ثم قَالَ تَعَالَى : ﴿ وأطيعُوا اللهَ وَرسُولَهُ ﴾ أىْ : في سَائِرِ مَا يأمُر بِهِ اللهُ ورسوله لأنّ الجِهَاد لاَ يَنفَعْ إلا مَعَ التَمَسُّك بِسَائِر الطَاعات ، ويُؤكدُ سُبْحَانه وتَعَالى عَلَى الاعْتِصَام ، بِحبْلِ الَّلهِ واجْتماع القَوْلِ والثَّبات عَلَيْهِ ﴿ وَلاَ تَنَازعُوا فَتَفْشَلوُا وتَذْهَبَ رِيحُكُم ﴾ لأن النزاع يوجب حُصُول الفَشَلِ والضَّعْفِ وَذَهابَ الأمْرِ ـ وهو كَذَلكَ يُذْهِبْ الريح، والريح الدولة [شبهت الدولة وقت نفاذها وتَمْشِيةِ أمْرِهَا بالرّيح وهُبُوبِهَا] يُقَال هَبَّت رياحُ فُلان إِذَا دَانَتْ لَهُ الدَّوْلةُ ونَفَذَ أمْرُهُ .

ولتعلم بأن كَمَالَ أمْرِ الجِهَادِ مبنٌى عَلَى الصَّبرِ ﴿ اصْبِروا وصَابِروا وَرَابِطُوا ﴾ أى: أنّ الله تَعَالى مَعَ الصَّابرِين ، ولا شُبْهَةَ أن المُرادَ بِهَذِه المَعِيَّةِ النَّصْرَةَ والمَعُونَة .

قال تعالى :

﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾ [المائدة : ٩١ : ٩٢] .

لِذَلِكَ نَتوقَّف عِندَ بَيان وَجْه العداوة والبغضاء فى الخمرِ والميسرِ .

أما الخمر : فاحتساء الخمور يستلزم الجماعة بغرض الاستئناس بالرفقاء والفرح بمحادثتهم ومكالمتهم ، فالشيطان يسول لهم أن الاجتماع عَلَى شُرْب الخُمورِ يُوجب التأكيد عَلَى الألفْة والمحبَّة إلاَّ أنَّ كُل ذلك ينقلب إلى الضدَ حتمًا لأن الخمر تُذْهبُ العقلَ وإذا زال العقل تَمَلَّكَ المخمُورُ شُعُورَ الغَضَب وغَلَبْتُه هواجسُ الشهوة فإذا كان ذلك ووقع استيلائهما على الجلسة تحصُل المنازعَة ويقعُ الخلافُ بينَ أولئك الأصْحابِ ، وتلْكَ المُنَازعَة قد تُؤدى إلى القَتْلِ والضرْب والمُشَافهَة بالفُحْشِ .. حاصل ذلك يورث أشد العداوة والبغضاء فى غَيْبَةِ العَقْلِ ، تَحْتَ تَأثير الخُمُور التى لَمْ تُغيِّبْ مُدافعَتَهُ فَحَسْبُ بل أزَالَتْهُ .

وعن الميسر : فإن مَن صَارَ مَغْلُوبًا فى القِمَارِ مَرَةً دَعَاهُ ذَلك إلَى اللجَّاجِ فِيهِ أُخرْ ، عن رجاء أنه ربّما صَارَ غَالبا فيه ، وقد يتفق أن لا يحصُل له ذلك إلى أن لا يبقى له شىء من ماله مما قد يُرْغمُه أن يُغَامر عَلَى لحيَته أوْ أهْلِه او وَلَدهُ. والطبيعى أن يصبح فقيرًا مسكينا ، وتتطور به الأمُورُ حتَّى يَصير من أعدى أعداء مَنْ غَلَبُه وأخَذَ مَالَه.

والملاحَظ أن شدَّة العَدَاوة والبغْضَاءَ تُفْضِى دَائمًا إلَى أَوْضَاع مَذْمُومَة من الهرَج والمرجَ والفتَنِ . . . وكله يتنافى مع الصالح العام ومُضاد لتوجُّهاته وشُرْب الخمُور يُورثُ الطَرَبَ والمُتْعَةَ الجنْسيَّةَ ، والنَّفْسُ الإنْسَانيَّه إن استغرقت فى اللذَّات الجُسمَانيّة والشَّهَوات البَهِيمية . غَفَلَت عَن ذكْر اللَّه ، والميْسرُ يمنعُ أيضا ذكْرَ الله ويصدُّ عَن الصَّلَواة فالغَالب فِي القِمَار تأخُذُه النَّشْوَةُ بالفَوْز والغَلَبة فيستغرق فى تلْكَ اللذَّة . ولا يخطُر فى باله شىء سوى الإستمرار فى المُقَامَرة ، وهَذه أيْضًا تَصدُّ عَنَ ذكْرِ الَّله وَعَنِ الصلَواة ، **﴿ فَهَل أنتُم مُنتهُون ﴾** وإن حَمَلْنَا ذلكَ المعْنَى فى ظاهره عَلَى الاستفهام إلا أنه [نَهْىٌ] فى الحقيقَة .

قَال عُمر بن الخطاب : اللهُم بين لنا فى الخَمْرِ بَيَانًا شَافيًا .

فنزلت الآية : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى﴾ [النساء : ٤٣] .
قال عمرُ بنَ الخَطَّاب : انْتَهَيْنَا يَاربّ .
قَوْلُهُ تَعَالى : ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا﴾ [المائدة : ٩٢] .
فَظَاهر الأمر : التزمُوا الطاعةَ فِيَما سَبَقَ القولُ فيه باجتناب الخمرِ والميسر واحذَرُوا عن مخالفتهما فى هذه التكاليف .
﴿ فإنَّ توليتُم فاعلَمُوا أنَّمَا عَلَى رَسُولنَا البَلاغُ المُبِينُ ﴾ .
وفيه تهديد ووعيد لكل من خَالَف هَذه التكْليفَات وأعرض عنها . فمن يتولى فَعَلَيْهِ قَامت الحُجةُ البَالغة ، وَمَا عَلى الرَّسُول ﷺ إلا التبليغ والإعْذَار والإنْذَار ، وما يجب علينا هو السمع والطاعة ﴿وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [البقرة : ٢٨٥] .

* * * * *

وقال تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيراً ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلا﴾ [الأحزاب : ٤١ ، ٤٢] .
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً﴾ [الأحزاب : ٧٠] .
﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ [محمد : ٧] .

أما الأول :

فتنبيه على أن المؤمن قَدْ ينسى ذكر الله ـ لذَا كَان الأمْرُ بالمدَاومة على الذّكْرِ ودَوَام كثْرَته واستكْثَاره عنْد طَرَفى النّهار وهُو إذ ذاكَ ذكرٌ ينبَغى أن يكُون عَلى وَجْه التَنْزيه والتَعْظيم وهو المُرَادُ بالتسْبِيحِ : ، وقِيل : المرادُ منهُ الصلاة حيث لكل صلاة تسبيحة .
قوله تعالى﴿ بُكْرَةً وَأَصِيلا ﴾ كُنِى به عن المداومة والانشغال بذكر الله والاستمرار فى طاعته .

والثانية :

فِيَها الإرشادُ إلى ما ينْبَغى أن يصدُر عن المؤمنين من أقوال الحق وأفْعَال الخَيْرِ فكل من أتى الخيرَ ، وتَرَكَ الشَّر فَقَدْ اتّقَى الله ، وَقَالُ أهلُ اللّغَة : إن التّقْوى من الوِقَايَة .

والثابت أن من نطق بصدق دون كذب فقد قال قَوْلاً سَدِيدًا ، وكان جزاء الله لهم بالوعد الصادق أن يرفع الله العمل الصالح ويُبْقيه ويُبْقى فاعله فى الجنَّة ، كما أنَّهُ سُبْحَانَه وتعالى يُجَازى عَلَى القول [الشَدِيدِ ـ الصَادِقِ] بمغْفرَةِ الذُنُوب ﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٧١] .

أما الثالثة :

فالتقرير والإقرار لازمين لازبين على أن الله تعالى ليس فى حاجة إلى دعم أو نصر أو عون أو مؤازرة فإنه سُبْحَانَهُ ﴿يُجِيرُ وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ [المؤمنون : ٨٨] ، ﴿يُطْعِمُ وَلا يُطْعَمُ﴾ [الأنعام : ١٤] .

إنما أنت يُمكِنُك أن تَنصُرَ اللهَ ـ بِنَصْرِ دينِه وتمكين طريقه بإقامة حدود الله تعالى وإعمال سنة نبيه محمد ﷺ .

ولأن الَّله يطلبُ قَمْعَ الكُفْرِ ، وإهْلاكَ الشِرْك ، وإفناء المشركين كَمَا قَالَ تَعَالى: ﴿فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ﴾ [التوبة : ١٢] ، ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً ﴾ [التوبة : ٣٦] .

وإذا خرج المؤمن مُقْدمًا على القِتَال يَبْتَغِى ـ نَصْرَ الَّله ـ على نحو ما تقدم فإن الله يَنْصُرُه بتقويَته وتَثْبِيتَ أَقْدَامِه . وكله معطوفٌ عَلَى قَوْلِه تعالى ﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُم﴾ [محمد : ٤].

وقد قرأ بعضٌ فقَاتَلوُا : وقالوا بأنه أكثرُ فائِدَةٍ وأعمُّ تَنَاوُلاً ، لأنَّهُ يَدْخُلُ فِيهِ من سَعَى فى القَتْلِ سواءٌ قُتِلَ أوْ لَمْ يُقْتَل .

أولئك جزاءهُم من الَّله الهِدَايَةَ والصَّلاَح ﴿ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴾ ـ أى ـ سيهديهم طريقَ الجنَّة مِن غير وَقْفَة من قُبُورِهمْ إلَى مَوْضِع حُبُورِهم ـ كما أنَّ لَهُم الأَمْنَة من فِتْنَة المحيا والمَمَات ومنْ عَذَاب القَبْرِ وكَذَلكَ من نَفْخَة الفَزَعِ ﴿لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الأَكْبَرُ﴾ [الأنبياء :١٠٣] ، ﴿وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ﴾ [النمل : ٨٩] .

ولهم الوعد كذلك بأن يكونوا أصحابَ بالٍ أصلَحُه الَّلُه تَعَالَى لا يُؤرقُهُم شىءٌ وَلاَ يُصيبُهُم جزَعٌ وَلا خَوفٌ وَلَهُم أصْلَحَ الشَّأنَ والحَالَ فِى الدنيا والآخرة .

ويُدخلهُم الجنَّة عرفَهَا لَهُم ـ أى عرف كل مِنهُم مَنْزِلَتَهُ ومَأوَاهُ فِيهَا لأنَّ اللهَ تَعَالى عِنْدَ الحشْرِ يَهدِيهمْ طَرِيقَ الجنَّة ويُلبسهم فِى الطَّرِيق إلَيْهَا خُلَعَ الكَرَامَة وقِيلَ : عرفها لهم : على معنى [طيَّبها] أى : عَطَّرَهَا .

ثالثًا ـ النواهى

أمَا وقد سَبَق القَولُ فى بَعْضٍ من أوامِرِ اللّه للمؤْمنينَ . المتّقين . العَارفين العَالمين . . لَزمَ العَرْض لِبعض من نواَهيِه سُبْحانَه وتعالى بُغيةَ استقامَة حَيَاة العبَادِ . ﴿وليميزَ اللّهُ الخَبيثَ منَ الطيِّبِ ﴾

* * * * *

قال تعالى :

﴿ وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف : ٥٦] .

﴿ ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعِنَبًا وَقَضْبًا (٢٨) وَزَيْتُونًا وَنَخْلاً (٢٩) وَحَدَائِقَ غُلْبًا (٣٠) وَفَاكِهَةً وَأَبًّا (٣١) مَتَاعًا لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ ﴾ [عبس : ٢٦ : ٣٢] .

أما وقد هيأ الحكيمُ الخَبيرُ الأرضَ وأصْلَحَها لاستِقَامَة الحياة البَشَرية عَلَيْهَا بِمَا يَخْدِمُ الإنْسَانَ بالطَّريق المباشر أو بالطريق غير المباشر كقوله تعالى : ﴿ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ﴾ [طه : ٥٤].

وفِيهِ نَجِدُ الأنْعَامَ فى خِدْمَةِ الإِنْسانِ حتى الضوارى والجوارح والسباع والوحوش كُلُّها تعمل فى خدْمة البشريّة عَن طَرِيقٍ ما يُعرف بقَانُونِ [التَوازُن البيولوُجى] فَسُبْحان ﴿ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ (٣) وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى﴾ [الأعلى : ٢ : ٥].

إن فَضْلَ اللّه تعالى زَادَ لينْسَحبَ عَلى ما هُو أبعَدُ من ذَلك . إذْ إنَّ الفضل بيد الله نظير قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران : ٧٣] وهو قول للخصوص . أما ضروريات الحياة التى تكفل الحياة لعامة الناس فإن الله يمدها للصالح والطالح على السواء ﴿كُلاًّ نُّمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً ﴾ [الإسراء : ٢٠] .

وحيث إن الله تَعَالى قد أصلح الأرض سَلَفًا وأعدّها وَهيّأهَا لاستقْبَال البشرِ عَلَيْهَا وبثّ فيها من كل دَابّة . فإنّه سُبحانُه وَتَعَالى أمر بالحِفَاظ على حُسنِ صَنِيع الله لِعبَاده مِن خلال أمْرِه بِعَدم الفَسَاد عَلَيْهَا حتَّى لا يكون الخلل فى النّظامِ البيئى بما يؤدى إلى ظُهُورِ الآفات والأمراضِ بِمَا يُهدد الجنسَ البشَرِى وُجُوده أو سَعَادته وسلامته ﴿وَلا تَبْغِ

الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ﴾[القصص : ٧٧] .

فقال تعالى : ﴿ وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [الأعراف : ٥٦] .

ذلك على معنى : لا تُفْسِدوا شَيْئًا فى الأَرْضِ ، فيدخُلُ فِيهِ المَنْعُ بالقَتْلِ ، وبِقَطْعِ الأَعْضَاء وإفسَاد الأمْوَال . والاستِيلاء عَلَيْهَا بالنَّصْب ووجُوه الحِيَل ، وإفْساد الأَدْيان بالفكْرِ والبِدَعِ المضلَّة ، وإفساد الأنساب بسبب الإقْدامِ عَلَى الزنَا واللُّواط ، ومِنْهُ أيْضًا النَّهْيُ عَنِ إفْسَادِ العُقُول بسَبَب شُرْب المُسْكِرات ، وهَذَا يَمْنَعُ الإفساد ويَقْضى بمُحَارَبَة المُفْسدين والفسَاد بجميع أَصْنافه وأنواعه وأشكاله وأدَوَاته . وفى ذلك قَالَ تعالى : ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [المائدة : ٣٣] .

وقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [الأنفال : ٢٧] .

وقال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلا الْهَدْيَ وَلا الْقَلائِدَ وَلا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ. . . الآية ﴾ [المائدة : من : ٢] .

﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ ﴾ [الأنعام : ١٢٠] .

﴿ وَلا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [النساء : ٣٢] .

﴿ لا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا﴾ [النساء : ١٩] .

﴿لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ﴾ [النساء : ٤٣] .

﴿ وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [الأنعام:١٥٢].

﴿وَلا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا﴾ [البقرة:٢٢٤].

﴿وَلا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾ [البقرة : ٢٢١] .

﴿وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً﴾ [الإسراء : ٣٢] .

وقد وَرَدَ ضِمْنَ آيَاتِ القُرآنِ الكَريم فى غَيْرِ مَوْضِعٍ وفى غَيْرُ واحدة مَا فِيهِ النَّهى أو الانْتِهَاءُ عن الفَسادِ فى الأَرْضِ والكَفِ عَنِ الفَسَادِ عَلَيْهَا حَتَّى تَظَلَّ عامرَةً آهلَة

مُؤَهَّلَةً كَمَا سَخَّرها البَارئ العَظِيم الملكُ الكَرِيمُ . لخدْمة الإنسَان واستقَّامة حيَاته عَلَيْها . ولن يكُون ذَلكَ إلاَّ مِن خلاَل أن نَأتِي مَا أَمَر اللَّهُ بِهِ أن يُؤْتَى واجْتِنَابِ ما نهى الله عنه فَنَنْتَهِي قال تعالى :

﴿ إن تَجْتَنبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيمًا ﴾ [النساء: ٣١] .

وقال تعالى : ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الحجرات : ١١] .

﴿وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت : ٤٦] .

﴿ وَلا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [الأنعام: ١٠٨] .

﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ [النحل : ١٢٥] .

رابعا : إسلام الوجه

قال تعالى :

﴿ومَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء : ١٢٥] .

﴿ومَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت : ٣٣] .

الثَّابِتُ فِي الآيَتَين أَنَّ الدين الإِسْلاَمِيُّ مَبْنِيٌّ عَلَى أَمْرَينِ أَصْلَيْن هُمَا .

الإعتقاد ، والعمل

فقَوْله تَعَالى : **﴿ أَسْلَمَ وَجْهَهُ ﴾** تُشِيرُ إِلَى الاعتقاد . لأن الإسلام هو الانْقياد والخُضْوع ، وإِنَّ أحْسنَ وأَكرَمَ اعْضَاءَ الإِنْسَانِ وجْهَهُ ، فَمَن عَرفَ اللَّه بقَلْبه وأَقَرَّ بربوبيته ، كَمَا أَقر بعبودية نفسه للَّه فَقَد اسْلَمَ وجْهَهُ للَّه تعالى . قوله تعالى: **﴿ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾** : هى لَفْظَةٌ مختصرةٌ احتوت عَلَى جَمِيع المَقَاصِدِ والأَغْراضِ ويَدْخُلْ فيهَا فعل الحَسَنات وَتَرْكَ السيْئات واجْتِنَاب الموبقات .

أَمَّا قولُه : **﴿ أَسْلَمَ وجْهَهُ للَّهُ ﴾** يُفِيدُ حَصرًا عَلَى معنى انَّهُ أَسْلَم نَفْسه للَّه وَحْدَه ومَا اسْلَمَ لغَير اللَّه . بما يُؤدى إلى إثْبات أن كَمَال الإيمَان وذِرْوَتُه لا يحْصُل إلاَّ عَنَد تَفْويضِ جميع الأمُور إلى الخَالق الذى بيَده الحَوْلُ والقُوَّةُ والفعْلُ والمشيئةَ فَمن أسْلَم وَجَهُهُ للَّه وَهُو مُحْسن فَقَدَ اتَّبَع ملَّةَ إِبْرَاهيم الحَنيف . القانت ـ أول المسلمين وقد جَانَبَ السَّفَاهَةَ والفُسُوقَ كَمَا قَالَ تَعَالى : **﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾** [البقرة : ١٣٠] .

ولَمَّا كَانَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْه السَّلاَمِ قدَ بَلَغَ فِي عُلُوِّ الدَّرَجةِ فى الدين أن اتَّخذهُ اللَّهُ خَليلاً مِمَّا يجعل مِنَ الجدارة أن يتْبع الخَلْق إبراهيم وطَرِيقَتُه ، إذ إن إبراهيم عليه السلام أولى بالإتباع والتقليد كونه إماما للناس كما قال تعالى **﴿ وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾** [البقره : ١٢٤].

* * * * *

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ ﴾ [فصلت : ٣٣] .

فيه إشَارَةٌ بتقديم الدَّعْوة إلَى اللَّه .

وفيه دليل على أن أحسن الأقوال قول جَمَع بينَ الثَّلاث خصَال : الدعوةُ إلى الله وتكون بإقامة الدّلائل اليَقِينيّة والبَرَاهين القَطْعِيّة .

ـ العملُ الصالح ، وإمَّا أن يكون [المعرفة] وهى عمل القلوب ؛ أو [الطاعات] وهى عمل الجوارح .

ـ وقَالَ إنّنى من المسلمين : بحيثُ يكُون الإقرارُ باللِّسَان إلى جَانب الخصَال الثَّلاث السابقة إذ إن من يُوصَف بتلْكَ الصفَاتِ ـ لا ريْبَ أنَّهُ يَصيرُ أشْرَفَ النَّاسِ وأفضَلُهم عَلَى الإطْلاق .

* * * * *

وقال تعالى : ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ (١١) وَأُمِرْتُ لأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الزمر : ١١ ، ١٢] .

وفيه التنبيه عَلَى أنّه رَسُول من عند الله ـ قَد وَجَبت طاعته لأَنَّ أوّل مَن أَسْلَم لشرائع اللَّه ومَنْهَجه لا يُمكن أن يكُون إلاّ رسُولاً مُبلّغًا لعلْمه وَمَا يتلقَّى من الشرائع والتكَاليف بالجُمْلة والتفصيل .

ويعُودُ وَجْهُ الجَمَال فى تكرار لَفظ أُمرت إلى تأكيد عَمَل القَلْب ثُمَّ تأكيد عَمل الجَوارح . هَذا بالتَّسليم عَلَى أن رُكْنا العبَادة كَمَا تَقَّدم هُما :

عَملُ القُلوب : وَهُو المعْرِفَة أوْ العَمل الصَّالح .

والطَّاعَات : وهى عملُ الجَوارح ويُقْصد به الإسْلامُ .

أمَّا الأمرُ بعبَادة اللَّه فيعنى أنَّهُ مأمُور من قبلَ اللَّه بالإتيان بالعبَادَة برُكْنَيْهَا السَّابقَين وبما اشتَملَت عَلَيْه الآيَةُ من جُمْلة التكَاليف وإسْلام الوجْه لله .

وعلى ذلك فإن اتّبَاعَ الرَّسُول ﷺ يأتى على رأس العبادة وذروتها لقوله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ﴾ [الحشر : ٧] .

* * * *

قَالَ تَعَالى : ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقره : ١١٢] .

فيه تقريرٌ آخَرَ يُؤكدُ عَلى أن المعْنَى هُو إسْلامُ النَّفسِ لِطَاعة الله ، ولأنَّ الوجْهَ أشرَفَ الأعضاء فقد خَصَّهُ اللهُ تَعَالى بالذكرِ ، فإذا تواضَعَ الأشْرفُ وأسْلَمُ كَانَ غَيْرُهُ أوْلى وإن صَار تَابعًا قَهْرًا بإسلام الأولى ـ لذا خَصَّ الله الوجْهَ بالذكرِ .

وهَذا التواضع لا بد وأن يكُونَ للَّهِ بِفعلٍ حَسَنٍ حَمِيدٍ لاَ بِفْعلٍ قبيحٍ ذَميمٍ ، وهَذا ما يجب تسميته [الإخلاص] .

والأعمال ثلاثة أصْنَاف :

أعمال الطَّاعة ـ أعمال المعَاصي ـ أعمال الإبَاحية

ومن لَزَم إسْلام وجْهَهُ وهو مُحْسِن فلا رَيْبَ أنّه صَارَ مقربًا لله متنعما بالنظر إلى وَجْهِه الكَرِيمِ كَما قال تعالى : ﴿ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيهِم وَلاَهُم يَحْزَنُونَ﴾

يُضارِع ما سبَقَ قوله تعالى : ﴿ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يونس : ١٠٥] .

* * * * *

قَوْلُهُ تَعَالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴾ [الروم :٤٣] .

وفيه : مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ للَّه مُنْصَاعًا مُنْقَادًا لجُمْلة التكاليف الشرعيّة عاملا بالطاعات [عمل الجوارح] مُنْشَغلاً بالَمعْرِفَة [عَملَ القُلُوب] مع اجْتنَاب كَبَائر الإثْمِ وَالفَوَاحش وقد سَلِمَ الناسُ من لسَانه ويَدَه . ونالَ الشَّرَفَ والعزَّة بذُلّ سُجُوده لله فإنَّهُ يُحْشر أبيضَ الوَجْه كَمَا قال تعالى : ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [آل عمران : ١٠٧] .

وبياضُ الوجه مجازٌ عن الفرح والسرُور والاستبشار والتهُّللِ ـ والحِكْمَة فى ذلك أن أهل الَموْقف إذا رأوا بياض الوُجُوه عَرفُوا أنَّهُم مِنَ أهلِ الثَّوَابِ والفَوْزِ فَيَحصُل لذى الوجْه الأبيضِ الفَرحَ والسُرورَ لعلْم أهْلِ الموْقف ذَلك وهو يُريد أن يَعْلَم الجميعُ بأمْرِه ﴿ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴾ [يس : ٢٦، ٢٧].

وكل من ابْيضَّ وَجْهُهُ فقد أُوتىَ كتابه بيمينه ، فَيَصبحُ للجميع مُهّللاً مُكبرًا فرحًا مُسْتبشرًا أن اقرءُوا كتَابيَه أيُّها القومُ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ

عَالِيَةٍ﴾ [الحاقة : ١٩ : ٢٢] .

وَقَد نَعَتَ اللهُ هَؤلاَءِ المُسْلمين في غَيرِ مَوْضعٍ كقَوله تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ (٣٨) ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ ﴾ [عبس : ٣٨ ، ٣٩] مُسفرةٌ : مُضيئةٌ مُتهَلّلةٌ قالَ ابنُ عبّاس[1] ﷺ : مِنْ قِيَامِ اللَّيْلِ لِمَا كَانَ مِن كَثْرَةِ صَلاَتِهِ بِاللَّيْلِ حَسُنَ وجْهُه بالنَّهَارِ .

وعَن الضّحاك : من آثار الوُضُوءِ.

وقِيلَ : مِن طُولِ مَا اغْبَرت فِي سَبِيلِ اللَّهِ .

قال الكلبى : يَعْنِي بالفَرَاغِ مِن الحسَابِ مُسْتَبْشِرةٌ فرحةٌ بِمَا نَالَتْ مِن كَرَامَةِ الله ورضَاه . وقال الرَّازى ـ صاحب . مفاتيح الغيب ـ : بسبب الخلاص من علائق الدنيا والاتصال بعالم القدس ومنازل الرضوان والرحمة .

(ضاحكة) ـ أى ـ الوجوه

اعلم أن قول الله تعالى : ﴿مُسْفِرَةٌ ﴾ إشارَةُ إِلَى الخَلاَصِ عَن هذا العَالَمِ ونَبعَاته.

نَظيرُه قَوْلُه تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ (٨) لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ (٩) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (١٠) لا تَسْمَعُ فِيهَا لاغِيَةً ﴾ [الغاشية : ٨ : ١١] .

الوجُوهُ النَّاعمة : المُرادُ : ذَات البَهْجَة والحُسْن .

كما قَالَ تَعَالَى : ﴿ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾ [المطففين : ٢٤] أَىْ أنّها وجوهٌ مُنعّمةٌ بنَعيمِ اللّه وفَضْلِه .

لِسَعْيِهَا رَاضيةٌ : أى مُطمئنّةٌ إلى حُسْنِ الْجزاء والثواب لقاء حسن صنيعها فى الدنيا حال رُؤْيَتهم ذلك الثّوَابُ العَظِيمْ بما يُرْضيهمْ حَتَّى لاَ يُريدُون أكثَرَ ممَّا أتَاهُم اللَّهُ من فَضْله كَقَوله تَعَالى : ﴿ فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران : ١٤٨] .

وفيه دلالةٌ مُبَاشرةٌ عَلَى أن هُنَاكَ دَارٌ للمثُوبين تُسَمَّى دارُ الثّواب ـ وقد نَعتَهَا اللَّهُ بِسَبْعِ صِفَاتٍ هى : **دار الثواب**

١ ـ ﴿ جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴾ : فالجنات درجات بعضُها فوقَ بَعْضٍ . قال عطاء [2] فى

---

(١) مفاتيح الغيب : ج ١٦ ص ٢٣١ .

(٢) مفاتيح الغيب : ج ١٦ ص ٣٧٦

ذلك: الدرجة مثل ما بين السماء والأرض .

٢ ـ ﴿ لا تَسْمَعُ فِيهَا لاغِيَةً ﴾ : واللَّغْوُ هُو مَا لَيْسَ للمرئ مِنه مِن ضَرَورَة ولاَ حَاجَة . ومِن هُنا فإن اللَّه تَعَالى نَفى عَنْهُم اللَّغْوَ فَلا يَنطق بِه أحدٌ ومن ثمّ فَلاَ يَسْمَع بِه آخر فأهلُ الجنّة لا يتكلَّمُون إلا بالحكمة والثناء على الله لما رزقهم من النَّعيم المقُيم ـ فلا حَاجَةَ لَهم إذًا بالكَذبِ والبُهْتانِ والسّبِ والفُسوقِ ـ إذ إن تلكَ الدّارُ دارُ شَرفٍ وتكْرِيم وثوَابِ عَظِيمٍ وعَلَيْه فإنَّها مُبراةٌ عن اللَّغوِ كَسَائرِ الجنَّات التى سنتحدث عنها تباعا إن شاء الله تعالى .

٣ ـ ﴿ فيهَا عَينْ جَارِيةٌ ﴾ : هو ما يُفسرهُ القرآن ويُبيّنُهُ فيما يلى :

قال تعالى : ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ [محمد : ١٥] .

وقال تعالى : ﴿ يُسْقَوْنَ فيها من رَحيق مَخْتُوم ﴾ .

وفيهما جاءَ حصْرًا شَرَابُ أهلِ الجنَّة مِن الماء واللّبن والخَمرِ اللذَيذة والعَسلِ المصفَى ـ أما هَذه العينُ الجاريَة ـ فإنها قد وُصِفت فى آخرى حين قولِه تَعَالى :﴿ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴾ [الإنسان : ٦] .

لم يَثبُت عند جمهورِ المفسرين بماذا تجْرى هَذه العينُ بماءَ أو غيره وعندى أرَى فى قولِه تَعالى : ﴿ فيهَا عَينْ جَارِيةٌ ﴾ أنها تَجْرِى أو هِىَ تتفجر بمَا يشتهيه أهل الجنَّة من شرابٍ لم يردْ ذكْرُه فى القُرآن . فإنَّ هَذه العين تتفَّجر تَحْتَ أقْدَام أهل الجنة بما يتمنوا هم من الشراب ـ حيث إن محتوى هذه العَينَ جاء مبهما ـ ليتحقق وعد الله تعالى لأهل الجنة من قوله تعالى : ﴿ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيد﴾ [ق : ٣٥] وهو سياق قُصد بِه التَّرغيبُ والإغرَاءُ تَرْجَمَةً لقولهُ تَعَالَى ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾[المائدة:٤٨] .

٤ ـ ﴿ فيها سرر مرفوعة ﴾ : أىْ عَاليَة فى الهَواء كَى يَتمكّن المؤمن حالَ جُلُوسه عليَّهَا من رؤية جميعِ مَا أَعطاَهُ اللهُ فِى الجَنَّة مِن النَّعيم المُتجددِ والمُلك الدَّائم ـ والسررُ والأرَائك واحد ﴿ عَلَى الأَرَائك يَنْظُرونَ ﴾ .

٥ ـ ﴿ وأكواب موضوعة ﴾ : الاكْوابُ والكيزَانُ وَاحدٌ جَمْع كُوبٍ [كُوز] ، ومَوْضُوعَة: عَلَى مَعْنَى مُعَدَّة أو جَاهزة كلَّما أرادَ أن يَشْرَب مِنهَا وَحدَهَا مُعَدَّةٌ لمِرُاده.

٦ - ﴿ **ونمارق مصفوفة** ﴾ : عندَ أهلِ اللُّغَةِ : النَّمارق : هيَ الوَسَائد . وهي في قول المفسرين كَذَلكَ وهي مُعدَّةٌ لأجلِ راحتِه . فإن شَاءَ جَلَس عَلَى هَذه واستَنَدَ عَلى الأُخرَى فإنَّها مصفُوفَة بَعْضُهَا إِلَىَ بَعضٍ بِمَا يَخدمُ رَاحتُه وهنَاءهُ وسَعَادتهُ .

٧ - ﴿ **وزرابي مبثوثة** ﴾ : وهي البُسُطُ أو البسَاط ، كالسجَّاد مَثَلاً ، ومفردُها عندَ أهلِ اللُّغةِ بكسر الزاى فتقول [زِرِيبة ، زِربى] وأنها مبسُوطةٌ فِي المجالِسِ والحمد لله الذى خلقنى مُسْلِمًا .

(اللهم توفنى مُسْلِمًا وألحقنى بالصالحين)

الباب الثانى

أولاً : المؤمنون بين العمل والجزاء :

أ ـ العمل : سبق أن بيَّنَّا أنَّ الإسْلاَمَ مَبْنِى عَلَى أمْرَينِ أسَاسيِّين هنا :

الاعتقاد و العمل

أما الإعتقاد : فإنه اليَقين بِشَهَادَة أن لا إلَه إلاَّ اللَّه وأن مُحمَّدا رَسُولُ اللَّه وإقَامَ الصَّلاة ، وإيتَاءَ الزكاة ، وصَوْمَ رَمضَان ، وحَجُّ بيت اللَّه الحَرَام لِمنَ اسْتَطَاعَ إليْه سبيلا .

أما العَمَلُ : فَهُو ترجَمَةُ الاعْتِقَادِ إلَى أنْماطٍ وأفعال سُلوكيَّةٍ بِما يَنْفَعُ النَّفس والنَّاس . . . الدنيا والدِّين .

وَنَذكُرُ هُنَا أنَّ الإيمَان أيضًا قد بُنِى عَلَى خَمْسٍ :

أن تُؤْمِنُوا باللَّه، ومَلائكته ، ورُسُله ، واليَوم الآخر

مِن هُنَا نقولُ : إن الاعتقاد فكرٌ والفكرُ يترجمهُ اللسَانُ ، واللسَانُ يتجمَّلُ ويكذب ـ أى أن الكلام يحتمل الصدق أو الكذبَ ـ وهَذَا أُسْميه نفَاقٌ

أما العمل : فإنَّه وجْهُ الإيمَان . وقد يكونُ العملُ خالصًا لوجْه اللَّه الكَريم أو يكُون رِاء النَّاس كَقْولِه تَعَالى : ﴿ **وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ** ﴾ [النساء : ٣٨] .

وذلك عندى خبال (١)

واقرأ إن شئت : ﴿ **قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ [الحجرات : ١٤] .

أقول فى الإيمان

رُوى عَن أميرِ المُؤمنِينَ عُمر بن الخطاب أنه قَالَ طَلَعَ عَلَيْنَا رَسُولَ اللَّه ﷺ وقال: الآن نزلت على عَشر آيات مَن قراهُنَّ وعَمَل بِهِنَّ دَخَلَ الجَنَّةَ . ثُمَّ تَلا قَوْلَ اللَّه سُبْحانُه وتَعَالَى : بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ **قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ**

(١) الخبال : الاضطراب فى الرأى والقول بفعل وتنفيذ آخر وفى ذلك مشارفة الهلاك والبوار .

مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلاَّ عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴾ [المؤمنون : ١ : ١٠] .

قال اللُّغَوِيُّون فى [قَدْ] : إنها تدخل على الفعل فتفيد تحقيق الماضى وتقْلِيلَ المضارع ، وقَالوُ : إنَّ [مَا] نَقِيضُها فَهِى تَنْفِى حدوثَ الفعْلِ فمثلا :

نام	قد ينام	قد نام	ما نام
أكل	قد يأكل	قد أكل	ما أكل

وعَلَيْه : افْلَحَ : دَخَلَ الفَلاحُ ويُقَال : افْلَحَهُ اى : صَيَّرَه إِلَى الفَلاَحِ .

وقَرأ طلحةَ بنْ مَصرف أُفْلِحَ عَلَى البنَاء للمَفْعُول ، وعَنْهُ [أُفْلِحَ] على لُغَة اكْلُونى البَراغيثُ أوْ عَلى الإبْهامِ والتَّفْسير ، ومنْه قَدْ أُفلِح المؤْمنُون .

و ـ قد أَفلَحَ المؤمنُون هى القِراءَة المشْهُورَة عندَ الجُمهُورِ .

١ ـ تقدَّمَ القولُ فى الإيمَان ضِمْنَ باب كِتاب الهُدى .

٢ ـ أمَّا قولهُ تعَالى : ﴿ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴾ ! المرادُ خُشُوع القلب بالرَّهبَةِ والخوفُ ، وخُشُوع الجوارِحِ بالثَّبات وعَدَمِ الإلْتفَات ـ أى ـ التثبُّت باليَقين من أن المصَلِّىَ يجب أن يَقف بين يَدَى الله تَعالى وقد كَفَاهُ عزًا أن يَكُونَ لَهُ عَبْدًا وكفاهُ فَخْرًا أن يكُون لَهُ ربًا وأن يستحضِر عَظَمة الله وليَثِق بأنَّه وإن لمْ يَرَ الله فإن الله يرى .

٣ ـ ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴾ : وفيه تعديد بمدْحِ المؤمنين الذى يعرِضُون عن اللَّغو بصُوَره المختلفَة ، ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ [الفرقان : ٧٢] .

٤ ـ ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴾ : اعلم أن فعل الزكَاة ينسَحب عَلَى كُلِ فعْل محمُود مُرضى ويقَع عَلَيْه ويطُولُه ـ حيثُ وَقَع النَّهىُ عن تَزْكِيةِ النَّفس عَلى الآخَرين ﴿فَلا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى ﴾ [النجم : ٣٢] مَن تَرفَّعَ عن الدَّنَايَا وتسَامَى بنَفْسه عن الخَطايا فإنَّما قد صَارَ صَالحًا فَالحًا نظير قوله تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴾ [الشمس : ٩] ، و﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى﴾ [الأعلى : ١٤] ـ ومن التزكيَة و الطَّهَارَة إعطَاءَ المَال للوكَالة أو الوَلاَية لإنفاقها فى وجُوه الخَير ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة : ١٠٣] بحيثُ لاَ يُخَوِل ذَلك للحاكم سُلْطة القهْرِ فى جَمْع

الزَّكاة إذ إنَّهُ ليسَ هُناك مقدار ثابت للزكاة ولا تعْريف خَاص لَها . إنَّ هِيَ إلاَّ الفلاح ـ و ـ نقيضُهُ الخيبَة ـ والكرم ومقابله: البُخْلُ ﴿وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ﴾ [محمد: ٣٨] ، ولَيْسَ ثمَة تَشْريع فِى قرآن أو سنّة لمعَاقَبة البُخَلاء أو رَدْعهم إنّما حثهم من خلاَل التَّرغيب والتَّرْهيب من جُملة ما ورَدَ فى القرآن الكريم والسُّنَّة النبويّة المُطهّرة .

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلاَّ عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴾ .

ذكر صاحب الكشاف فيه ثلاثة وجوه [1] .

أحدُها : أنَّهُ فِى موْضع الحَال : أى وَالينَ عَلَى أزْواجهم أو قوَّامين عَلَيهن ـ من قَوْلكَ كَانَ فُلان عَلى فُلاَنه ـ ونَظيره : كَانَ زياد على البَصْرَة ـ أىْ ـ وَاليًا عَلَيْهَا ـ ومِنْهُ قَولُهَم : فُلاَنَة تحت فُلان . ومن ثَمّ سُمّيتَ المرأة فراشًا .

المَعْنَى : أنَّهم لفُروجهم حَافِظُونَ فى كافة الأحْوال إلا فى حال تزويجهم أو تسريحهم .

ثانيها : أنَّهُ متعلقُ بمحذُوف يدلُ عَلَيه غيرُ مَلُومين ـ كأنّه قيل : يُلامُون إلاَّ على أزْواجهم أىْ يُلامُون عَلَى كُلِّ مُبَاشَرَة إلاَّ على ما أُطْلِقَ لَهم فإنّه غيرُ مُلومِين عَلَيْهِ ـ وَهُو قولُ الزجَّاج .

ثالثها : أن تجعَلْه صلةً لحَافظين .

ومن تطلَّع للتطاول عَلَى المَحارِم تَجَاوُزًا على مَا وَرَدَ فِيه تَخْصيص فى الآية الكَريمَة ـ فَهُو يَبْغِى ما وراءَ ذَلك فَهُو كَاملٌ فى العَدَاوة متناه فيهَا ـ وقَدْ نَهَى اللَّه سبحانه وتَعَالَى عن تلكُم الأساليبِ حين قَوْلُه تَعَالى : ﴿ وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ﴾ [الفرقان : ٦٨] فالنَّهْى عَن الزنا قَائمٌ وَوَاجبٌ ﴿وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَى﴾ [الإسراء : ٣٢] هو تَصْريحٌ بحفظ الفرْج بعيدًا عن مُمَارسة البَغَاء لسَلامَة الجنْسِ البَشَرِى والتاكيد على أهَمية الصحة العامة من الأوْبئة الفتَّاكة التى تُهدّدُ الجِنْسَ البَشَرِىَّ بالْمَوتِ البَارِدِ مِثْل [الإيدز ـ والإيبولا ـ وسرطان الرحم].

---

(١) نقلا عن مفاتيح الغيب ج ١١ ص ٣٤٧ .

أ ـ الإيــدز (Aidz)

هو مرضٌ فيرُوسى خَطير يسّبِبُ نقصَ المَنَاعة المكتَسبَة ، وهو مَرضٌ مركّبٌ يَتَميَّز بانهيار المَنَاعَة فى الجَسمِ ضد أى عَدْوَى ، فَمَرْضَى الإيدز مُعَرَّضُون لوَاحد أو أكثر من العدوى بميكروبات [بكتريا ، فيروسات ، فطريات ، طفيليات] وهى عَدْوَى لا تمثل تَهْدِيدًا لأى شخصٍ لو كَانَ جهَازُهُ المَناعِى يَعْمَل طَبِيعيًّا ، وكَذلكَ حدوُث أى نوع من السَّرطَان ليْسَت معتَادة الحدُوث للشَّخصِ العَادِى .

كيف ينتقل الإيدز ؟

يَنْتقل مِن خلاَل العَلاَقَة الجنْسِية أو الحُقَنِ التى تُستخدم بالمُشَارَكة أو نَقل الدَّم أو أحد مشتَّقَاته ، ولَيْسَ هُنَاكَ دَليلٌ عَلَى انتقَال الإيدْز مِن خِلالِ الهواءِ أو الماءِ أو الأكل أو ملامسة جسم المريض .

لماذا اللواط فى المستقيم [فتحة الشرج] مرتبطًا بانتقال الإيدز ؟

جدار المستقيم مغطى بطبقة من الخلايا رقيقة من السهل تمزيقها أثناء العملية الجنسية وخروج الدم منها ـ وعند اللواط فإن مَنِّى المريض يحتوى على فيروس الإيدز فإذا اختلط بالدم الخارج من جدار المستقيم حدثت العدوى بينما فى العلاقة الجنسية السوية فإن المهبل مغطى بطبقة سَميكَة تحميه من التَّمَزُّق .

ب ـ الإيبـولا Epola

هو مرض فيروسى خَطير أرْجَعَ الباحِثُون أسبَابُه إلى بعض من المسببات ، وأكثرهم قالوا : بأنه ناتج عن العلاقة الجنسية بين الشواذ من الرجال ـ ومن ثم فإنه سريع الانتشار عند النساء حيث ينتشر الزنا واللواط .

يُسبب الإيبولا أنزفة من مختلف فتحات الجسم [الأنف ، الفم ، الأذن ، الشرج ـ قناة مجرى البول] بما يؤدى حتما إلى الموت .

جـ ـ سرطان الرحم Cancer of utehuls

وَهُو مرض غير قاتل يُسبب نزيفًا حَادًا من الرَّحم كَنَتيجَة مُبَاشرة لظهوُر أورَامٍ بدَاخله ممَّا يَقْتَضى حَتْمًا استئصال الرَّحم خَشْيَة تطُّور الأورَامِ السرَّطَانيَّة أو انتشارها ـ ممَّا يَقْضى تَمامًا على أُنوثَة المَرأة وهَذَا بدوْره يهدّدُ استقرَارَ الحياة الاجْتَماعيَّة والأُسَريَّة ـ وَقَدْ يُؤدِى إلَى مُمَارسَة البَغَاءِ والفُجُور تَحت تأثير الرَّغْبَة المَجنُونة والظرُوف

الاقْتصَادية السَّائدة .

فالعَلاقَات الجنْسيَّة السويّة تُحدث تطبيعًا بَيْنَ الرَّجلِ وامْرَأته أو زوْجَاته إن كُنَّ أكْثَرَ من سيِّدة ـ فلا خوْفٌ ولا خَطَر من تعدد الزَّوجَات في إطَار ما حدَّدَت الشَّريعَة الغَرَّاء ، أمَّا حال تعدُّد الرِجَال عَلَى المرأة الواحدَة فإن ذلك لا يُؤدى فَقَط إلَى الإيبْولاَ أوْ الإيْدز إنَّما يُصيب المرأةَ الزانيةَ بسرَطان الرّحم بِسَبب اخْتلاَف الْكيمْيَاء عندَ الرجال التى تُحدث خَللاً بالكيمَياء الدَّاخليَّة لرَحم المرأة فيقع المحظُور .

وصدَقَ اللّه العَظيم القَائل : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلاَّ . . . الآية ﴾ وعَلَيْه فَمن تَرَكَ المعَاصِى وَجَانَبَها نَال السلاَمَةَ فِى الدُّنيا وحَازَ الفوزَ فى الآخرَة ﴿ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴾ : سبَقَ بَيانه فِى القَول السابق ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴾ .

قرأ نَافع وابن كَثِير [لأمَانَاتهم] ، وكلُّ شىء مؤتَمن عَلَيْه يسمَّى أمَانَة وكل ما عُوهدَ عَلَيْه فهُو عَهْدٌ وفيه أن الأمَانَةَ تَتَناولُ الماديَّات والعبَادَات فالصوم وإسْبَاغ الوُضُوء وغُسْل الجَنَابَة وكَيْفيَّة إتْيَان الصَّلاَة كُلُّها مَخفيَّة مُسْتَترة لاَ يَرَاهَا إلاَّ اللّه .

وَفيه أيْضًا العَهْد : وَهو عَقْدُ النَّفْسِ عَلَى فعْل الشَّىء الذَّى يَقْربُ إِلَى اللّه من قَوْل أو عَمَل ويدخُل فيه الْعُقُودُ والأيْمَانُ [القَسَمُ] والنُذُور .

وقَدْ قَالَ ﷺ : أعْظَمُ النَّاسِ خيانَةً مَن لَمْ يُتّم صَلاَته .

وعن ابن مَسْعُود رَضِى اللّهُ عَنْه [أولُ مَا تُفْقدُون مَن دينكم الأمَانة وآخر مَا تفقدُون الصلاَةَ] رَاعُونَ : مُفرد راعٍ وهو القَائم عَلَى الشَّى لِسَلامته والمتُولِّى لشئُون إدَارَته ـ كَقَوْلنَا : رَاعى الرعَيَّة ـ رَاعى الغَنَم .

فَمنْ رَاعَ الأمَانَةَ والعهَد وَقَامَ بِهمَا فَقَدْ حَصُلَ لهُ الفلاَحُ والنجاحُ إن شَاءَ اللهُ تَعالَى ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ :

اعْلَم أن المُحافَظةَ عَلَى الصّلاَةَ تعهد لشُرُوطها واسْتيفَاءَها من حُلول وَقْت وطَهَارة ووضُوء وَإتْمَامهَا بالوفَاء بأرْكَانها وَذَلكَ دأبُه فِى كُلِ أوقَات الصَّلاة .

﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴾ :

حَصْرًا على مَعْنى أن مَن وَافقَ العَشْرةَ خصَال كَانَ منَ الوَارثِنَ : ﴿ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [المؤمنون: ١١] .

لماذا الفردوس ؟

قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً ﴿١٠٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً ﴾ [الكهف : ١٠٧ ، ١٠٨] .

الفردوسُ :

عَن قَتَادة : أن الفردوْسَ وسَطُ الجنّة وأفضَلُهَا (١) .

وعن كَعْبِ : ليْسَ فِي الجنَّاتِ أعْلى مِنَ جنّة الفِرْدَوْسِ وفِيهَا الآمِرونَ بالمعْروف والنَّاهُونَ عَنِ المنكر .

وعن مجاهد : الفردوسُ هى البستانُ بالرُّومِيّة .

وقيل : هى البسْتَان بُلغَة الحَبَشَة .

ورَوَى أبو موسى الأشْعرى عَنِ النَّبى ﷺ أنه قال : (سَلُوا اللَّه الفردوسَ فإنَّها أعْلَى الجنَانِ وإن أهلَ الفردوْس يسمَعُون أطيطَ العَرْش) .

وعنه صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلّمَ أنَّهُ قال :(الجنَّةُ مائَة دَرَجة ما بَيْنَ كلِ درجتَيْنِ مسيرةَ مائةَ عَام والفردْوسُ أعْلاَهَا دَرَجة ومنْهَا الأنْهارُ الأربعة والفردوس من فوقها فإذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس فإن فوقها عرش الرحمن ومنها يتفجر أنهار الجنة) (٢) .

هى إذًا الجنّةُ التى لا يَبغُون عَنْها حوَلا ، والحولُ والتّحوُّل واحدٌ على مَعْنى أنّه لاَ مَزِيدَ عَلى سَعَادة الجنَّة وخيْرَاتها حتّى يَبْغى التحولَّ إلى أشْيَاء أُخرَى إلا الطَّمَع فِي الزِّيادَة التّي وَعَدُهم اللّهُ بهَا ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس : ٢٦] ، ﴿ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ ﴾ [التوبة : ٢١] .

وقد ذَكّر اللهُ المؤْمنينَ وعَدّدَ اعمَالَهُم بِجُمْلة التَّكَاليف الشرْعيّة ، وكَذَلك فقدْ نَعَتَ سُلوكَهم وبيّن صِفَاتَهم فى غيرْ موضعِ ومن ذَلكَ قوْلُه تعَالى :

١ـ ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحج : ٣٤ :٣٥] .

٢ ـ ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢] .

٣ ـ ﴿وَهَٰذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ لَهُمْ دَارُ السَّلامِ

(١) مفاتيح جـ ١١ ص ٣٥١ . (٢) مفاتيح الغيب جـ ١٠ ص ٣٨٨ .

عندَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُون﴾ [الأنعام : ١٢٦ ، ١٢٧] .

٤ ـ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً﴾ [النساء : ١٥٢] .

٥ ـ ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِين﴾ [آل عمران : ٥٧] .

٦ ـ ﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴾ [النساء : ٦٩] .

٧ ـ ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ نَقِيراً﴾ [النساء : ١٢٤] .

٨ ـ ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيمًا ﴾ [النساء : ٣١] .

٩ ـ ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [النور : ٥١] .

١٠ ـ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ (٥٧) وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (٥٨) وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُونَ (٥٩) وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ (٦٠) أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴾ [المؤمنون: ٥٧ ، ٦١] .

١١ ـ ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُور﴾ [الحج : ٤١] .

١٢ ـ ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ [الملك : ١٢] .

﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيم﴾[الأنفال : ٤].

ب : من صور الجزاء

وَرَدَ في كَثيرٍ بَعْضُ صُوَرِ الْجَزَاءِ الموعُودِ بِهِ لِتَرغيبِ الْمُؤْمنينَ وحَثِّهِمْ عَلَى الالْتِزَامِ وترغيبهم فى الفوز بما وعدهم الله العزيز الحميد :ـ

قال تعالى :

١ـ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً (٣٠) ﴾ [الكهف : ٣٠] .

٢ ـ ﴿ أُوْلَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف : ٣١] .

٣ ـ ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً (١٠٧) خَالِدِينَ فِيهَا لا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً ﴾ [الكهف : ١٠٧/١٠٨] .

٤ ـ ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ (٨) خَالِدِينَ فِيهَا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [لقمان : ٨ ، ٩] .

٥ ـ ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ (٧) جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ [البينة : ٧ ، ٨] .

٦ ـ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥] .

٧ ـ ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٢٣) وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَىٰ صِرَاطِ الْحَمِيدِ ﴾ [الحج : ٢٣ ، ٢٤] .

٨ ـ ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [الحج : ١٤] .

٩ - ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٤٢) وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف : ٤٢ ، ٤٣] .

١٠ - ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ﴾ [النساء من : ١٧٣] .

١١ - ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [النساء : ١٧٥] .

١٢ - ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾[المائدة: ٩] .

ثانيا : المقابلة والتمييز

اعلَم أنّ قيمةَ الأشيَاء لاَ تظهر إلاَّ بأضدّادهَا وأنَّ أصْلَ الأفعَال في كَمَالِهَا فالأعْمالَ عظيمة والدلائل كثيرة ، والميزان يوضع للمجازاة عنها .

ولما بيّن اللّه للمؤمنين مَنْهَجَ حَيَاتهم وسُلوكياتهم وعدّد عَلَيْهم صِفَاتهم وشَمَائلَهُم وفَضَائِلَهُم ، فَهَدى اللّهُ النجدينِ ليخْتَارَ الناسُ ماهُم عَلَيْه مِن الفِكْرِ والعَمَلِ ليكونُوا كما قَالَ تَعالى : ﴿ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [الشورى : ٧] .

فَمَا هي قِيمةُ الليّلِ مَالم نعلم النَّهارِ ، وما قيمةُ الراحةِ مالم نعانيِ من التَّعَب ، وَمَا هو طَعْمُ الغنَى لِمن لَّم يَذُق للفقْر طَعْمًا .

قَالَ تَعَالى : ﴿ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ [آل عمران : ١٨٩] .

الآية الكريمة نَزلَتَ فى قصّة أحُد وَمَا كَان فيَها مِنَ مُخَالفَة المُسْلمينَ لأوَامِرِ الرَّسُول ﷺ (١) إلا أنَّ العبْرةَ بعُمُومِ اللَّفْظ لاَ بخصُوصِ السَّبَبِ .

فالمرادُ : مَا كَانَ اللّهْ ليذركَمُ يَا معْشرَ المؤْمنينَ عَلَى مَا أنتُم عَلَيْه مِن اختِلاَطِ المؤْمنين بالمُنَافقين حتَّى يَميزَ الخَبيثَ مِنَ الطَيب ـ أى ـ المُنافقَ من المؤْمن .

والمراد أن تَتَكشَّف تلك الحقائقَ التَّى تُظهِرُهَا نتائج الاختبَارات ـ ليزدَادَ الذَّين ءَامَنُوا إيمَانَا ويمكّنَ لَهُم فىِ الأرْضِ من إقامِ الصلوات وإيتَاء الزكّاة ، وإعْمال حدود اللّه فقَولُهُ تَعَالى : ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ ﴾ [البقرة : ٢٢٠] يؤكّدُ ويُقَرِرُ لَنَا حقيقةَ علمْ اللّه الأزلَى الأبَدى بأَهلَ الفسَاد وأهْلَ الإصْلاَح .

ونَظَائرَه كثيرةٌ فى القرآن الكَريم منْها قَوْلهُ تعالى :

ـ ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴾ [آل عمران : ١٤٢] .

ـ ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴾ [العنكبوت : ٣] .

ـ ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾[محمد : ٣١] .

(١) راجع كتب التفسير فى هذا المصدر .

وفيه : أنَّه سُبْحَانه يَعْلَمُ الحَوادثَ قَبْلَ وُقُوعِها كَقوْلِه : ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ [الروم : ٢٧] .

وكُلُّها دَلائل عَقْلية تُقرِّرُ أن المعْنَى يكْمُن في إظْهَارِ الإخلاَصِ من النفَاقِ والإِيمانِ من الكُفْرِ . كما أنَّ فيه تَنْبيهٌ عَلى أن اللَّهَ تَعَالَى جَعَلَ التمييزَ الذّى قَالَ بِهِ لأجْلِ علة غائبة كما جاء فى قوله تعالى :

﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران : ١٤١] .

وفى اللغة : المحْصُ : التنقية .

المحقُ : النقصان

والمعنى: على أنه تعالى يطهرهم من ذُنُوبهم ويزيلها عنهم أو يغفرها لهم وفى النقصان وجوه .

قال المفضل : هو أن يُذهِبَ الشيءَ كُلّه حتّى لا يُرَى مِنْه شَىءٌ ، ومنهُ قول الله تَعَالى ﴿ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا﴾ [البقرة : ٢٧٦] أى : يستأصلهُ .

قال الزجَّاجُ : مَعْنَى الآية أنّ اللهَ تَعَالى جَعَلَ الأيّامَ مُداولةً بَيْن المسْلمينَ والكافرينَ فإن حَصَلَت الغَلَبَة للكَافرين عَلَى المؤْمنينَ كَانَ المُرادُ تَمْحيصَ ذُنُوبِ المؤْمنين ، وإن كَانت الغَلَبَةُ للمؤْمنين عَلَى الكَافرين كَانَ المرادُ مَحْوَ آثارِ الكافرين ومَحْوِهِم[1]. فَقابَلَ تَمْحيصَ المؤْمنِينَ بمَحق الكَافِرين وهذِهِ مُقابلةٌ لطيفةٌ في المعْنَى . وهى عندَ البلاغيين من المحسَّناتِ البدِيعيّة .

* * * * *

وقَالَ تَعالَى : ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لاَّ يَسْتَوُونَ﴾ [السجدة : ١٨] .

وفيه خطابُ للعَاقل بأن يَتبيّنَ حالَ المجرمَ وحالَ المؤْمنَ وأن يكتشفَ . هَلْ يستويان ؟!

ثُمَّ بين تَعَالى عَدَم الاسْتواء . ومآل أمر غير المستوين تَفْصيلا فى قَوْله تَعَالى : ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ [السجدة : ٢٠] .

وجاءَ البيانُ إرْدَافًا لوعْدِ المؤمنِينَ وبُشرَاهُم بِأن لَهُم ﴿ جَنَّةُ الْمَأْوَى ﴾ عِندَ قوله

---

(١) مفاتيح الغيب جـ٤ ص٤٧ .

تَعَالى : ﴿أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلاً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجد : ١٩] .

قَوْلُه تَعَالَى : ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾ [القلم : ٣٥] .

فيه تقْرِيرٌ عَلى أن التَسْوِيةَ بَيْنَ المؤْمن المطيع ، والفاسق العَاصى . غير جائزة فلا يصح أن يكُون المسْلِمُ مُجْرِمًا . أوْ أن يكُونَ المجرمُ مُسْلما ، فإنه مُتَنَاف كاجْتماعِ الأَضْدَاد (١) . فامتَنَعَ أن يكُون الإسلامُ والإجْرامُ فى شخصٍ واحد فَإنّ أَثَر إِسْلاَمِ المُسْلِم يَتَقابَل مَعَ أثر إجرام المُجرِم - ولا يستويان مثلاً - وعليه فَيصحُ أن يكُون فيه استنكارُ اللّه تعالى للتسْوِيةِ بَيْنَ المسْلمين والمُجرِمين فِي الثَّوابِ لسابِقِ عَدَمِ تَسَاويهم فى الالتزامِ والطاعَة .

قوله تعالى : ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر : ٩]

فيه تنبيهٌ عَظِيمٌ وإشارَة هائلة عَلَى فَضِيلَة الْعِلْم . وضدْها رَزِيلَة الجهلِ إذ إن من عَلِم بالله ورسُوله وكتَابه آمَنَ باللّه وكتُبه ورسُله واليومِ الآخرِ ثم عَمِل صَلحًا وقَال: إننى مِنَ المسْلمين ، ومن جَحَد وأنكَر واستغرق فى حَيَاته وشَهَواته الدُنْيَويَّةُ وقَالَ مثلَ مَا قَالُوا : ﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [المؤمنون : ٣٧] .

قال صَاحِبُ الكشَّاف .

أرَادَ بالذّين يعْلَمُون [القَانتينَ] ، وبالّذينَ لاَ يْعلمُون : الذّين لا يأتون بهذَا العَمل كأنّهُ جَعَلَ القَانتينَ هُمُ العُلَماء ، وهو تَنْبيهٌ عَلَى أن من لم يعمل فهو غيرُ عَالِم ثم قال: وَفيه ازدَراءٌ عَظِيمٌ بالذينَ يَقْتَنون العلُوم ثُمْ لا يَقْنتُون ، ويُفْتَنُونَ فيَها ثم يُفْتَنُون بالدُّنيا فَهُم عندَ اللّه جهلة (٢) .

* * * * *

وقال تعالى : ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ﴾ [النساء : ٧٦] .

إنما قيمةٌ الجهادِ فى مَرْماه وفى مَبْلغ القَصد منْه فالمؤمنون يُقَاتِلُون لِغرضِ نُصرَةِ دين اللّه وإعلاءِ كَلمته ، والكافرون يُقَاتلوُن فِي سَبِيل الهَوَى الذى اضلّ اعَمَالَهُم

---

(١) كأن تقول : اجتمع الليل والنهار .

(٢) مفاتيح الغيب جـ١٣ ص٣٩٨ .

واحبطَ غايَاتهم إذ إنّ ما سوَى إلَيْه يُسمَّى (طَاغُوتًا) ، ولقد أخبَر القرآنُ الكريمُ بنبأ الصِّنْفَين نبأ عَظيمًا وشَبَّههُما تشبيهًا بَليغًا وفرَّقَ بَيْنَ الفريقين تفريقا جَليًّا يُجَلِّي الأمور ويحسم المُلابَسَةَ ويكشفُ الماهية وذلك عند قَوْله تَعَالَى .

﴿ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالأَعْمَىٰ وَالأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً أَفَلا تَذَكَّرُون ﴾ [هود : ٢٤] .

وهو مثالٌ حيٌّ يَتَطابَق مَعَ حال الفَرِيقَين اللذَّيْن نَتحدَّثُ فيهمَا حديث الأضداد والمقابل فثمة فريقٌ : يسمَعُ ويُبْصرُ وهو الذى وصفَهُ اللَّهُ بأنَّه عَلَى بيّنة مِن ربِّه . وفَرِيقٌ : لا يَسْتَطِيعونَ السَّمْعَ والإبْصَار . وهُم الكَافرُون .

وفى التشبيه البليغ من المحسنَّات البديعيّة مَا يُوضحُ المعْنَى ويبلغ المرادُ بيُسرٍ وَسُهُولَة

فالجاهلُ المضلُّ : يكُون أعمى العين ـ أَصَمَّ القَلْب ـ هائمٌ حائرٌ في الضَّلالات والظُلُمات كما أن الجسدَ الذى به عضوُ السمع وعضوَ الإبصار ، جعَلَهُمَا الله يَنْسَحبا عَلى الرُّوح أيضا بالسَّمْع والإبْصَار كقَوْله تَعَالَى: ﴿ فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج : ٤٦] .

ويفصل فيما نحن بصَدده ما حكَى القُرآنُ الكَريم فى موضع آخَرَ حيثُ قَالَ تعالى: ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (١٤) مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴾ [محمد : ١٤ ، ١٥] .

ولقد وَرَدَ في غَيْر مَوْضع كثيرٌ من تلكَ المقَابَلة والأضَّاديَّة التى تبيُّن مَا للمؤمنين من فَوز بأعْلَى الدَّرجات وما استحقَّ الكافرُون من فشلٍ وإخفَاقَات.

وهذا ما قررّهُ الحكيمُ الخبيرُ حين قوله تعَالى

﴿ لا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [الحشر: ٢٠].

وانتهاء فإن مآل الإنسَان مردودٌ إلى أحد أمْرَين إمَّا شاكرًا ـ وإمَّا كَفورًا لقوله تعالى : ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ .

ولِكُلٍ بُشراَهُ بِمَا استَحقّ

قال تعالى : ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [فاطر : ٧] .

قال تعالى :﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة : ٣٤] .

فبشُرى المؤمنينَ بالوعْدِ الطّيبِ والمآل الجميل ومَغفرةِ الذنُوب والأجْرِ الكَريم [وَفيه مَطْلَبُ النّفسْ وهَوَى القَلْبِ] ورضًا العقْلِ . . أما بُشْرَى الكافِرين فَعَلَى سَبيلِ التهكُّمِ والاسْتهجانِ والتقريرِ على سوءِ المُنقَلبِ وحَتميةِ المصيرِ مما لا تميل النفسُ إلى حُصُوله ويأبَى العقلُ أن يقع فِيه ـ وهُو مَا يَقْتَضِي العملَ الجادَ والسعْيَ الدؤوبَ والعبادةَ الخالصةَ الشفَّافَة للفوزِ بِمَا وَعَدَ اللهُ عبادَهُ بالغيْبِ بما فيه من الاسْتحسَان المنشُود ، والفضْلِ الدائمِ كَقْولِهِ تَعَالَى : ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللَّهِ فَضْلاً كَبِيراً﴾ [الأحزاب: ٤٧] .

ثالثا : الترغيب

سبق القول فى الفريقين اللذين لا يستويان مثلا كما قال تعالى :

﴿ **فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ** ﴾ [الشورى : ٧] .

ونَقف الآنَ مَع فريق الجنَّة لنَسْتَعْلِمَ عَن صراطهم المُستقيم الّذى مَنَّ الله تَعَالَى عَليهمْ به انتَهاءً إلى الجنَّة التى أعدَّهَا لَهُم . كى نحث أنْفُسَنا جَميعًا عَلَى التوْحيد الخالص وإخلاص العقيدة والإيمان الصادق بالله وحده لا شريك له ﴿ **وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ** ﴾ .

حيث بين سُبْحانه وتَعَالَى فى مَواضعِ عدّةٍ مَا أعَدّهُ لَهُم وَمَا وعدَهُم به ﴿ **نُزُلاً مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ** ﴾ [فصلت : ٣٢] ، ﴿ **فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ** ﴾ [الزمر : ٧٤] .

والعاملون : هُم المؤمنُون ، المتقُون ، الأبرَارَ ـ الذينَ اجْتَنبُوا الطَّاغوتَ أن يَعْبُدُوها ـ كما بيَّن تَعَالى ـ نُورَهُم الذى يَسْعَى ، وما وعَدهُم من دارِ السّلام وما فيها مِن جَنَّاتِ الخُلد وجَنَّات عدْن ـ وكَذَلكَ بَيَّن عَزّ وَجلَّ ما للجنانِ من مقامٍ كَريم فيِ دَرَجَاتٍ بعضُها فوقَ بعْضٍ . بغرض حثِ المؤْمنين عَلَى الاسْتمْرارِ فى مَاهُمْ عَلَيْه من الإيمانِ والتقْوى والصبرِ والمُثَابرةِ جِهادًا فى سبيلهِ وسبَاقًا فى الخيرات للفوزِ بما وَعدَ اللّهُ .

﴿ **وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا** ﴾ [النساء : ١٢٢] .

﴿ **وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ** ﴾ [الروم : ٦] .

قال تعالى :

﴿ **يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ** ﴾ [الحديد : ١٢] .

قرَأ سَهل بن شعَيْب وبِإيمَانِهِم بكسْرِ الهمْزة .

اليومَ هو يوْمُ المحاسبةُ وَجَاء منصُوبًا تعظيمًا لَهُ وتفخيمًا لأنَّه ظرفُ الزمانِ المدَّخر بِعلمِ الَّذى لا يُدانيه علمٌ .

يومَ تَرى المؤمنين والمُؤمنَاتِ [قَصْرًا عليهم] يسْعَى نورُهم بينَ أيدِيهِمْ وبأيْمَانهم

لأنَّ السُّعَداءَ ـ الفائزُونَ . يتلقَّون صَحائفَهُم من هَاتَين الجهَتَيْنِ ـ والأشقياءُ التعساءُ يتلقَّون صَحائفَهُم من شِمَالِهم ومن وراء ظُهُورِهم .

فبُشْرى لأهْل اليمين﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ۝ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴾ [الإنشقاق : ٧ ، ٩] .

فنورُ الله لَهُم جزاءَ لأعْمالَهم وإيمانهم ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾ [النور: ٣٥]، ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴾ [النور : ٤٠] ، وقال تعالى : ﴿ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[الحديد:٢٨] .

* * * * *

وقال تعالى : ﴿ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ [الحديد:١٢].

كما تقدم . فالبشرى : هى الخبر الأول بقدوم الخير الذى يوجب السرور بما تتوق لسماعه الأذن وتتمنى النفس حدوثه ؛ وهى من ميل النفس وموجبات الفطرة .

هنيئًا لهؤلاء الذين لهم البشرى بأن لا تنالهم أهوال القيامة ﴿وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ ﴾ [النمل:٨٩]، وعند القيامة يُقَال لهم: ﴿ ادْخُلُوهَا بِسَلامٍ آمِنِينَ ﴾[الحجر:٤٦] .

فما بعد دار الجنة من سعادة، وما من فوز أعظم لأهلها مما قال فيه العلى العظيم:

﴿ ذلك هو الفوز العظيم ﴾ .

قال تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ۝ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ [القمر : ٥٤ ، ٥٥] ، ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الذاريات : ١٥] .

سَبَقَ القَوْلُ فِي التَّقْوَى .

فأمَّا الجَنَّةُ : هِى مَوضِعُ السُرور ، وهى الأشْجارُ السَّاترةُ لِقَوْلِه تَعَالى : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلالٍ وَعُيُونٍ ﴾ [المرسلات : ٤١] .

والنَهَر (١) والأنهَار وَاحِد ، والمجاَورةُ اللَّفْظِيّة تُحسِن إطْلاقَ الكَلاَمِ وتطمئن النفس لما وعد الحنان المنان .

وجَاءَت الفَائدةُ من جمع النَهْر فى [نَهَر] حتى لا يقع عند أحَد بأنَّ الجنَّاتِ كُلُّها على اخْتلافِ درجَاتِهَا وتسمِياتِهَا يَجْرى بِهَا نَهْرٌ واحدٌ إنما الجنَّة الواحدةُ فيهَا أكثر من

(١) نَهَر : جمع ـ مفرد : نَهْر .

نَهْرٍ واحدٍ بينَما فيها عينٌ واحدةٌ وفى كل جنة من الجنان عين فيها [مفردة] وتُجمع العيون مع الجنات كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ﴾ [الطور : ١٧] .

مثل ما قال تعالى فى : ﴿ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴾ [الغاشية : ١٠] ، ﴿ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾ [الغاشية : ١٢] .

وقال تعالى : عند تَثْنِيَةِ الجنَّة بتثنية العين ﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴾ [الرحمن: ٥٠].

بَيَانًا لما سَبَق فى قَوْلِهِ تَعَالى : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾ [الرحمن : ٤٦] .

نظير قَوْلِهِ تَعَالى : ﴿ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ . . . . . . فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾ [الرحمن : ٦٢ ، ٦٦] .

فلفظةُ الجنَّةِ إذَا جَاءَتْ مفرَدَةً أُفْرِدَتْ مَعَها العَيْنُ ﴿ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴾ [الغاشية: ١٢] .

وإذا كان تثنيتها تَمَّ تثنية العين معها ﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾ [الرحمن : ٦٦] .

وإذا جُمعت الجنةُ ـ جُمعَت مَعَهَا العيون ﴿ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الذاريات :١٥] .

والمقْعَدُ : الموضعُ : وهُو المكَانُ المهيَّأ لمُكْث العُضْوِ الذَّى عليْه القُعودُ ويدلُّ عَلَيه، الصدْقُ ، ضدّ الكَذب ، فَهُوَ وَعْدُ اللَّه للمتّقين بأن تلْكَ المقَاعَد لها حقيقةٌ وعينٌ وأثرٌ عنْدَ مَليك مُقْتدِرٍ ، لأن الهناءَةَ فى مَقْرَبَة الملُوك واللَّذَّة فى مُصَاحَبَتهم ـ فَكَيفَ القُرب مِنَ اللَّه ؟ .

المُقْتَدر : الذَّى لاَ يُقَرِّبُ أَحَدًا إلاَّ بِفَضْله وَمَنِّه .

وعلى رأس آيات الترغيب فى وعده الحق قوله تعالى :

ـ ﴿ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ (٣١) هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ (٣٢) مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ (٣٣) ادْخُلُوهَا بِسَلامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ (٣٤) لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ [ق : ٣١ ، ٣٥] .

ـ ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٥) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦) كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧) وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨) وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾ [الذاريات : ١٥: ١٩] .

ـ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً (٣٠) أُوْلَئِكَ لَهُمْ

جنَّاتُ عدْنٍ تجْري من تحْتهمُ الأنْهارُ يُحلَّوْنَ فيهَا منْ أساورَ من ذهبٍ ويلْبسُونَ ثيابًا خُضْرًا من سُندُسٍ وإستبْرقٍ مُتَّكئينَ فيهَا علَى الأرائك نعْمَ الثَّوابُ وحسُنتْ مُرْتفقًا ﴾ [الكهف: ٣٠، ٣١] .

ـ ﴿ إنَّ للْمُتَّقين مفَازًا ﴿٣١﴾ حدَائق وأعْنابًا ﴿٣٢﴾ وكواعب أتْرابًا ﴿٣٣﴾ وكأْسًا دهَاقًا ﴿٣٤﴾ لا يسْمعُون فيهَا لغْوًا ولا كذَّابًا ﴿٣٥﴾ جزاءً من ربِّك عطاءً حسابًا ﴾ [النبأ : ٣١ : ٣٦] .

ـ ﴿ إنَّ اللَّه كان عليمًا حكيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخلُ من يشاءُ في رحْمته ﴾ [الإنسان من: ٣٠، ٣١].

الباب الثالث

بيان الجنان

أولا : جنة الخلد

قال تعالى : ﴿ قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولاً ﴾ [الفرقان : ١٥ : ١٦] .

وقال تعالى : ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ ⑰ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُوا الأَلْبَابِ ⑱ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي النَّارِ ⑲ لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ﴾ [الزمر : ١٧ : ٢٠] .

وكَمَا تَقَدَّمَ فَإِنّ الطَّاغُوتَ : هُو مَا اتَّخَذَهُ النَّاسُ الجُهَلاءُ آلهةٌ يَعبدُونَهَا من دُون الله كَالشَّيْطَان ـ والأوثَان ـ والأروَاح . والظَوَاهِر الطَّبيعيةُ ـ إلَى غَيرِ ذَلكَ فالَّذينَ اجْتَنبُوا الطَّاغُوتَ : أىْ أعَرضُوا عَن عُبُودِيّة كُلّ ما سوَى الله .

وأَنَابوا إلَى رَبهم : رَجَعُوا إلَى اللّه بالكُلّيّة .

لهم البشرى : سَبَقَ القَوْلُ فيها وهى هُنَا نهَايَةُ الكَمَال والسَّعَادَة .

فَبَشِرْ عِبَاد .... الآية . الَّذينَ يَتبعُون أَحْسَنَ ما سَمِعُوا من أقوال التَوْحِيد والإيمَان والأمر بالمَعْرُوف والنّهى عن المُنكَر ... إلخ وهو تَلْبيةُ نَداءِ الحَق والإقْبَال بالكُلّيَّة عَلَى طَاعَته ، والإعْرَاضُ عَمَّن سوَى اللّه تَعَالَى .

أُولَئكَ الذَّينَ هَدَاهُم اللّهُ : فَلا هُدَى بغَيْرِ اللّه الّذى بدُونه امتَنَعْت الهدَايَة .

﴿ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ ﴾ [آل عمران : ٧٣] ، ﴿ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي ﴾ [الأعراف : ١٧٨] .

والهداية لا تكُون إلا لعاقل وَلاَ تَجبُ إلاَّ للبيب حَيْثُ لَوْلَمْ يكُن الإنْسَانُ عَاقلاً كَاملَ الفَهمْ نَاضِجَ الحس ، لاَمتَنَعْت حُصُول هَذه المعارفُ والمفاهيم الحقيقية فى قلبه ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي النَّارِ﴾ [الزمر : ١٩] .

قَالَ الكسَائى (١) : الآيةُ جُملَتَان والتَقْدِيرُ أفمن حَقَّ عليْه كلمةُ العَذَاب ، أفأنت تَحْميه؟، أفَأنْتَ تُنقذُ مَن فى النَّار ؟ .

ولا تَحقُّ كلمةُ العَذَاب إلاَّ عَلَى مَن امتَنَع منْهُ فعلَ الإيمان والطَّاعة أمَّا الَّذينَ اتَّقَوْا ربَّهُم فَلَهُم غُرفٌ منَ فَوْقيها غُوَفٌ مَبْنية . فإنَّها إذًا مَنَازلُ مَنَازلُ مَبْنيَّةٌ قوية شَديدةٌ صَلْبةٌ قَد استَجمَعَت كُلّ الفَضَائل والخيرات ، وهى عَاليةٌ مُرتَفعةٌ ـ ثُمّ قَال تَعَالى بالمعْلوُم المتكرر ﴿ تَجرى من تَحتْها الأَنْهر ﴾ ﴿ وعد الله ﴾ وهوَ مَصدَرٌ مُؤكَدٌ لكوْن الوَعْد جَاءَ من الله : ﴿ لا يُخلفُ اللَّهُ وَعْدَه ﴾ [الروم : ٦] واختَتَمَ القَولَ بالتَّأكيد عَلَى انَّ اللَّهُ [جَلَّ وَعَلا] قَولُهُ الحقُّ ،ووَعْده الحق،ووَعْدُ اللّه فى تحقيق الشَّىء كَأَنَّهُ قَدْ كَان .

وإن قيَل : العَذابُ خيرٌ أَمْ الجنَّة . فالإجَابَة مَعْلومةٌ ولاَ سبيلَ إلى المُفَاضلَة. إنَّما السُؤَالُ عَلى سبيل التهكُّم والتوبيخ .

قَالَ تَعَالى :﴿ أَذَلكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الخُلْد التى وُعدَ المتَّقون ..﴾ الآية .

قال أبو مسلم : جَنَّةُ الخُلْد هىَ الَّتى لاَ يَنَقطع نَعيمُهَا والخُلْدُ والخلُود سواءٌ كالشُكْر والشُكُور ﴿ لا نُريدُ منكُمْ جزَاءً ولا شُكُوراً ﴾ [الإنسان : ٩] ويَصحّ أنّ تكُونَ الجنَّةُ التَّى ستكُونُ لهَذه الفئة جزَاءً ومَصيرًا هى جنَّةُ الخُلدْ لانَّ اللَّه تَعَالى كَتَب فى اللّوْح قَبْلَ ان يَخلُقَهُم بأزمنة طويلة ان الجنَّة جزَاء ومَصيراً وقَدْ بَشَّرهُم بهَا .

قوله تعالى : ﴿ لَهُمْ فيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالدينَ ﴾ : نَظير قولُه تَعَالَى : ﴿ وَلَكُمْ فيهَا مَا تَشْتَهِي أنفسُكُمْ وَلَكُمْ فيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴾ [فصلت: ٣١] وَقولُهُ تَعَالَى : ﴿ لَهُمْ فيهَا مَا يَشاءُونَ خَالدين ﴾ [الفُرقان : ١٦] والمعْنَى : أن حُصُولَ المرادَات بأسْرهَا لا يكُوُن إلاَّ فى الجنَّة قَوْلُه تَعَالَى : ﴿ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْداً مَّسْئُولا ﴾ .

فيه أنَّ الجنَّةَ قَد حَصَلَتْ بحكُم الوَعْد لا حكُمْ الاستحْقَاق وهو الفعْلُ الوَاجب الَّذى قَضَى الَّله فيه مَا هُو قَاض .

---

(١) مفاتيح الغيب : جـ١٣ ص٤١٥ .

ثانيا : جنات عدن (دار المقامة)

قال تعالى : ﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾ [فاطر : ٤٣ ، ٣٥].

وقال تعالى : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [التوبة: ٧٢] .

وفيه : المرؤ على دين خَليله لقوله ﷺ : « إنما مَثَلُ الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير فحامل المسك إما أن يحذيك وإما أن تبتاع منه وإما أن تجد منه ريحا طيبة ونافخ الكير إمَّا أن يحرق ثيابك وإما أن تجد منه ريحا خبيثة » رواه أبو موسى عن النبى ﷺ .

وقال تَعَالى للتأكيد عَلَى ذَات المعْنى : ﴿ لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلاَّ أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾ [آل عمران : ٢٨] .

وفيه التأكيد على أن يتخذ المؤمنون بعضهم أولياء بعض والانتهاء عن غير ذلك - ونَبَّه تعالى فى تحذير بليغ من فعل ذلك واتخذ الكافرين أولياء من دون الله . بأن يَحْذَرَ لقَاءَ اللَّه ﴿ ويحذّرُكُم اللهُ نَفْسَهُ ﴾ ولما كَان ذَلكَ جَاءَ أمْرُ اللَّه تَعَالَى للمؤُمنين بالكف عَن ولاية الكَافرين [1] حيثُ قَال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ [النساء : ١٣٩] .

إن المؤمنين والمؤمنات هم [حَصْرًا] المؤتمرون بأوامر الله ، المنتهون عن نواهيه وقد كان بعضهم أولياء بعض فقد اعتصموا بحبل الله وتحابوا فى الله واجتمعوا على نصرة دين الله من خلال العمل منه الله الذى رسم لهم ﴿ يَأمُرونَ بالمَعْروف ؛ وينْهَوَنَ عَن المُنكر ، ويَقيمُون الصَّلوة ، ويُؤتُونَ الزكَوة ، ويَطيعون الله ورسولَه ﴾ .

وهى موافقة حاصلة بسبب المشاركة فى الاستدلال والتوفيق والهداية فجاءت كلمة الله لهم ﴿ أولئك سَيَرحُمْهم اللَّهُ ﴾ .

---

(١) سنورد تفصيلا لذلك إن شاء الله عند باب . . . .

والعلة فى حرف السين إنما للتوكيد والمبالغة كقوله تعالى ﴿ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ﴾ [مريم : ٩٦] .

﴿ إنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حكِيمٌ ﴾ : لتأكيد المُبَالَغَة في التَّرْغيب والتَّرْهيب .

فالعزيز : مَن لا يَمْنع من مُراده في عِبَاده من رَحمة أو عُقُوبَة .

والحكيمُ : هُو المدَبرُ أمْرَ عبَاده عَلَى مَا يقْتَضِيه العدْلُ والصوابُ .

وَسَاقَ اللهُ تَعالَى الوعدَ والبشْرَى ببيان أدوات رَحْمته لِهَذَا الصنفُ منَ المؤمنين حيثُ قَال تَعَالَى : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ .

والحاصل : أن وَعْدَ اللَّه جَاءَ فى الأولَى إجْمالاً [سَيَرحَمُهم اللَّه] ، وجَاءَ فى الثانَية تَفْصيلاً بأنَّ لَهُمْ جنت تجرى من تحتهَا الأَنْهُر .

فتلكَ مَسَاكنهُم فى جنَّات عَدْن . هى مساكن طيِّبة . . والآيةُ مُغَايرةٌ للمعطوف عليه. وفائدة وصفها بأنَّها جنَّات عَدْن . . تجرى من تحتها الأنهارُ . أنهاتجرى مجرى الدار التى يسكنُها الإنسانُ . . وأمَّا الجنَاتُ الآخرَة فَهى جَارِيةٌ مَجْرَى البَسَاتِينِ التَّى قَدْ يَذْهَبَ الإنَسان إلَيْهَا لأجل التَنزُّه والترفيه وملاقاة الأحبْاب .

وَجَاءَ فى جَنّات عَدْن كَلامٌ كثيرٌ

قَالَ الحَسَن : سَألتُ عمْرانَ ابنَ الحَصين وأباَ هُرَيْرةَ عَن قَوْله تَعَالَى ﴿ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً ﴾ فَقَالاَ : عَلَى الخبير سَقَطتْ ، سألنَاَ الرَّسُولَ ﷺ عن ذَلكَ فَقَال ﷺ هى قَصرٌ فى الجنَّة منَ اللؤلؤِ فيه سبعُون دَارا من ياقُوتة حَمراءَ فى كلّ دارٍ سبعُون بَيْتًا من زُمرُدة خضراء فى كل بيتٍ سبعون سريراً على كل سرير سبعون فراشا على كل فراش زوجةٌ من الحور العين ، فى كل بيت سبعون مائدةً وعلى كل مائدة سَبْعُونَ لوْناً من الطَّعَامِ وفى كُلِّ بَيْتِ سَبعُون وَصيفَةً يُعْطَى المؤمنُ منَ القُوَّة فى غَدَاة واحدة ما يَأتى عَلَى ذَلَك أجْمَعَ .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما أنها دار الله التَّى لم تَرَهَا عَيْنٌ ولَمْ تَخطُرْ على قَلْب بَشَرٍ .

وعن أبى هريرة رَضَى اللهُ عَنْه . قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّه . حَدّثنى عَنِ الجَنَّة ما بنَاؤُها فَقَالَ : لبنَةٌ من ذَهَبٍ ولَبنةٌ من فضةٍ ومَلاطُهَا المسكُ الأذفَرُ وتُرابُها الزعفَرَان وحَصْباؤهُا الدرُّ والياقُوتُ ، فيها النَّعيمُ بلا بؤس ، والخلودُ بلا موتٍ ، لا تُبلَى ثيَابُه ولا يَفْنَى شبَابُه (يَقْصدُ مَن دَخلَهَا) .

قال ابن مَسعُود : جَنَّة عَدْن بَطْنَان الجَنَّة .

قال الأزْهَرِىُّ : بَطْنَها وسطُها ، وبطنانُ الأودية المواضعُ التَّى يستنقع فيَها ماءُ السَّيْلِ : [واحدَة ـ بَطْنٍ] .

قال عطاء عن ابن عباس : هى قَصَبَةٌ وسَقْفُها عَرْشُ الرَحْمَنِ ، وهىَ المدينةُ التَّى فيها الرسل والأنبياء والشهداء وأئمة الهدى وسائر الجَنَّات حولها ـ وفيها عينُ التَّنْسيم ، وفَيَهَا قُصُور الدرّ واليَاقُوت والذَهبِ ، فَتَهبُّ ريحٌ طيبةٌ من تَحْتِ العَرْشِ فتدْخُلُ عَلَيهم كُثْبان المسْك الأذْفَرِ .

قال عبدُ اللـهِ بن عُمـر : إن فِى الجَنَّة قصـرًا يُقَـال لَهُ [عَدْن] حَـوْلَهُ البـرُوجُ وله خمسة آلاف بابٍ على كُلِّ بَابٍ خمسةُ آلافٍ حزة لا يدخلُه إلا نَبىٌّ أو صَدّيقٌ أوْ شهيدٌ (١) .

قوله تعالى : ورضوانٌ من اللَّه أكبرُ : فيه أنّ رضوانْ الله أكْبرْ وأعْظمُ أثَراً من كلّ مَا سَلَف ذكْرهُ . وهو فَضلُ اللَّهِ يَتَفَضَّلُ بِهِ عَلَى الذّين دَخلُوا جَنَّاتِ عَدْنِ بمَا كانوا به بَعْضُهْم أولياءُ بعْضٍ

وهذا جَزَاءُ أولياء اللَّه ـ المتُحَابينَ فى اللّهِ . فَنِعم أجْرُ العَامِلِين

وما سَبَقَ فيه نعْتُ لجنَّات عَدْن بالجُملة والتفصيل

فَما هُو نَعْتُ أهَلُ تلك الجنَّة ـ الفائزُون بها ـ الوارثُون لها

نقول

العدْن : فى اللُّغَة الإقَامَة

ولأن البَسَاتِيين الحَّى تَجْرِى مِن تَحتْهَا الأنْهُر هى أفْضَل المسَاكِن فِى الدُنْيَا أو تلْكَ التّى تُطلُّ عَلَى الأنهار والبحار . . . وفيها تَقْريرُ المُنْعِم سُبْحَانه وتَعالَى بالفوز بالإقامة فى البساتين التى تجرى من تحتها الأنْهر .

واللّبَاسُ : فى الدُّنْيَا صِنْفَين

١ ـ صنفٌ جنَّات :(لِبَاسُ التَحلّى) ٢ ـ صنف : (لباس التستر) .

أما فى جنَّات : عَدْن : ﴿ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ من فِضَّةٍ ﴾ [الإنسان : ٢١] .

أما لِبَاسُ التَستُّرِ : هُو فِى قوله تعالى : ﴿ وَيَلْبَسُون ثِيَاباً خُضْراً من سندسٍ ﴾

---

(١) انظر صـ ٩٦ ج ٨ مفاتيح الغيب .

وهو الديباجُ الصَّفُيق] أى : الغَلِيظ

﴿ مُتكئينَ فيها عَلى الأرائك ﴾ : جمعْ اريكَةٍ : وَهِى سَرِيرٌ فى حَجَلَةٍ يَتَحرَّك ويتأرْجَح - ﴿ نِعْمَ الثوابُ وحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴾

أمَّا حَمَلةُ الكتَابِ وَهم أشْرافُ الأُمّة وسَادَةُ الأمَمِ - فإنَّهُم مُميَّزُونَ فى الآخرة كَمَا كَانوا فِى الدُّنيا - ففى الحياة الدنْيَا قال ﷺ : [أشرَافُ أُمَّتِى حَمَلةُ القُرآن وأصحَابُ اللَّيْلِ] .

وفى جنَّات عَدْن جزَاءُهُم عَظيمٌ . لمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكتَابَ الَّذينَ اصْطَفَيْنَا منْ عبَادنَا فَمنْهُمْ ظَالمٌ لِّنَفْسه وَمنْهُم مُّقْتَصدٌ وَمنْهُمْ سَابقٌ بالْخَيْرَات بإذْن اللَّه ذَلكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبيرُ (٣٢) جنَّاتُ عَدْن يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فيهَا منْ أَسَاورَ من ذَهَب وَلُؤْلُؤًا وَلبَاسُهُمْ فيهَا حَرير ﴾ [فاطر : ٣٢ ، ٣٣] .

وفِيهِ تجد لِبَاسَ التَّحلى لِحَمَلةِ القُرآنِ فِي جنّاتِ عدْنٍ خِلافًا لما عَلَيْه اهْلُ تلْكَ الجنَّة :

فلباس التَحلّي : أسَاور مِنْ ذَهَب ولؤلؤاً
ولِبَاسُ التَسَتُّر : ولباسُهُم فِيهـا حَرِير
وقَالُوا الحمدُ لِلَّه .

ثالثا : جنَّاتُ النَعيم

قال تعالى : ﴿ إنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴾ [الإنفطار : ١٣] .

وقال تعالى : ﴿ إلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (٤٠) أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ (٤١) فَوَاكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ (٤٢) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٤٣) عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ (٤٤) يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ (٤٥) بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ (٤٦) لا فِيهَا غَوْلٌ وَلا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ (٤٧) وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ (٤٨) كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴾ [الصافات : ٤٠ : ٤٩] .

وقال تعالى : ﴿ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ (١٠) أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (١١) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾ [الواقعة ١٠ : ١٢] .

فَجنَّاتُ عَدْنٍ هيَ دَارٌ أُعدَّت ، للأَبْرَارِ - وعِبَادُ اللَّه المخْلَصينَ - والمتّقين والمقرَّبين وأصحب اليَمن] وورد فى بيان [عَدْنٍ] أوصافٌ كثيرةٌ منها قوله تعالى فى نَعيم الأبْرار : ﴿ إنَّ الأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا (٥) عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا (٦) يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا (٧) وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا (٨) إنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُورًا (٩) إنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا (١٠) فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا (١١) وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا (١٢) مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ لا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلا زَمْهَرِيرًا (١٣) وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً (١٤) وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَ (١٥) قَوَارِيرَ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا (١٦) وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلاً (١٧) عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلاً (١٨) وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا (١٩) وَإذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا (٢٠) عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا (٢١) إنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴾ [الإنسان : ٥ : ٢٢] .

فى نعيم المخلصين : سبق ذكره واقرأ قول الله تعالى من سورة الصافات الآيات [٤٠ : ٤٩] .

أما نعيم المقربين : فهو ما يبينه قوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (١١) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (١٢) ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ (١٣) وَقَلِيلٌ مِّنَ الآخِرِينَ (١٤) عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ (١٥) مُّتَّكِئِينَ عَلَيْهَا

مُتَقَابلِينَ (١٦) يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ (١٧) بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ (١٨) لا يُصَدَّعُونَ عَنهَا وَلاَ يُنزِفُونَ (١٩) وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ (٢٠) وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ (٢١) وَحُورٌ عِينٌ (٢٢) كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ (٢٣) جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الواقعة : ١١ : ٢٤] .

أصحاب اليمين ـ ونعيمهم ـ قوله تعالى : أصحاب اليمين فيه وجوه : (١)

أحدُهَا : أصحابُ اليَمينِ الذَّينَ يَأخُذُونَ بِأيمَانِهِم كتُبَهُم .

ثانيها : أصْحابُ القُوَّة .

ثالثها : أصحاب النُّور والسدر (٢) : النِّعمَة .

﴿ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ (٢٧) فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ (٢٨) وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ (٢٩) وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ (٣٠) وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ (٣١) وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ (٣٢) لا مَقْطُوعَةٍ وَلا مَمْنُوعَةٍ (٣٣) وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ (٣٤) إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً (٣٥) فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا (٣٦) عُرُبًا أَتْرَابًا (٣٧) لأَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ [الواقعة : ٢٧ : ٣٨] .

وهكذا تبين الآيات الكريمة أن جَنَّات النعيم هى دار أُعدّت :

ـ للمتقين : ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾ [القلم : ٣٤] . سَبَقَ القَوْلُ فى التَّقْوى والمتقينَ وكَذَلكَ أُعدَّت للْمخلَصين : وفيهَا قرَاءةٌ بالفَتْحِ : أى : أنَّ اللَّهَ تَعَالى أخلَصَهُم بلُطفه واصطفاهُم بِفَضْله ، وقراءَةُ بالكَسْرِ (المخْلصينَ) أى : أنَّهُم أخْلَصُوا الطَّاعَةَ للّه تَعَالى اعْترافاً بفَضْله وإقْراراً بربوُبيَّته

كما أُعدَّتْ للسَابقين : كما قال تعالى : ﴿ أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ : سبق قوله .

كما أعدت للأبْرارِ عَلَى النَّحْوِ والسِّيَاق الوراد فى سورة الإنسان وفيه نَجدُ :

جَنَّاتِ النعيم : هى التى لَيْسَ فيهَا إلاَّ النَّعِيمِ الخالص والنَّعيم المتجدد فى دَارٍ لا مَوْتَ فيها . فالحياةُ فيها مُتَّصِلَةٌ مُتجددةٌ لا يَشُوبُ نَعِيمُها شَائبةٌ تَنغصُهُ كمَا كَانَ فى نَعِيمِ الدُّنيا ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ [العنكبوت : ٦٤].

والأبرارُ مِن العبَادِ : هُمُ الذّينَ صَدَقُوا وبَّروا فى إيمانهم .

فما جزاءهم ؟

قَالَ تَعَالى : ﴿ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴾ : أىْ مِنَ إناء فِيه الشرَابُ .

---

(١) صـ ٢٧٦ ١٥ مفاتيح الغيب .

(٢) السدر : من أشجار البوادى لا بمر ولا حلو ولا طيب .

قال ابن عبَّاسٍ ومُقَاتِلُ : يريد الخَمر (١) .

وعندى لاَ بَأسَ في القوْلِ إذْ إنّ من اتَّقَى ربَّهُ وجَانَبَ الخَمْرَ المُسْكِرَ في الدُّنيا - كَانَ جَزَاءُه السَّقَايةَ منْ خَمرْ الآخرةَ اللّذيذة التى لا تَأسرُ اللُّبَّ ولا تغيّب العَقْلَ ولاَ ضَيْرَ فيهَا لقَوْله تَعَالى : ﴿ وأَنْهارٌ من خمر لَذّة للشّاربينَ ﴾ .

والكَافُورُ : عندنَا في علمْ اللَّه إذْ لاَ دالةَ عَلَيْه إلاَّ مَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فيه : ﴿ **عيْنًا يَشْرَبُ بهَا عبَادُ اللَّه يُفجّرُونَها تفجيراً** ﴾ : أى : يُفجّرونَهَا حَيْثُ شَاؤُوا مَتَّى أرَادُوا تَفْجيراً سَهلاَ غَير مُمَتنع . فَهى تَتَفَجَّرُ تَحْتَ أقدَامهم أوْ بأمْرهم بمَا أُريدَ منْها ان تَأتى به وَفاء لمَا اشْتهاهُ مَنّ فَجَّرَهَا ورضاءً لَهُ .

يوُفُونَ بالنَّذْر ؛ قَالَ الكَلْبى (٢) : المراد من النَّذْر العَهْدُ والعَقْدُ ونَظيرهُ قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿ **وأوْفُوا بعَهْدى أوفِ بَعْهدكم** ﴾ [البقرة : ٤٠] .

فَسَمّى فَرَائضَه عهْداً ، وقَالَ ﴿ **أَوْفُوا بالْعُقُود** ﴾ [المائدة : ١] .

سمَّاها عقُوداً لأنَّهُم عَقَدوهَا عَلَى انفسُهم باعتقَادهمْ الإيمان ، وهذا يَعنى ضمنًا وُجُوبَ الوَفَاء بالنذر لانهم يَخَافُونَ اهْوَالَ القيَامة وأحْوالَهَا ، وهى من افْعال اللَّه الذى يَرجُون رَحْمتَهُ وَيخَافُونَ عَذَابَهَ في يَوم كَان شَرُّهُ مُسْتَطيراً أى : منتشرا .

﴿ **وَيُطعمُونَ الطَّعَامَ** ﴾ : شَفَقَةً عَلَى خَلْق اللّه ، ويُكْنى بالطَّعَام عَن الإحسان عَلَى سَبيل المجَاز ، فالإحسانُ إلى المُحتَاجينَ منْ المَسَاكين والأيتام والأسْرى أمر واجبٌ وإن لم يكنْ بإطْعَام الطَّعَام بَعْنيه ، والإحْسَانُ هَذَا إنَّمَا يكُونُ بقَصْد رضا اللّه والاحتزاز من خَوفْ اللّه .

فالوَاجبُ أن يكونَ إطْعامُ الطعَام - أىْ - [الإحسان] خَالصاً لوَجْه اللّه الكريم جَل وعلا خَالصا من الشرْك حَتىً بانتفاء الجزاء أو الشكْر ، ومن ذلك عَدَم صحة استعْمَال مَنْ أحْسَنْتَ إلَيْه فى إنهْاء أعمال مُعيَّنَة أوْ تكْليفه بمهامِ مَخصُوصَة .

- وإلاَّ خَرَجَ من كَونه إحْسَاناً ، وَصَارَجَزَاءً لقَاءَ عَمَلٍ .

﴿ **فوَقَاهمُ اللّهُ شرَّ ذلكَ اليْوْم ولَقَّاهُمْ نضْرَةً وَسُرُوراً** ﴾ .

وذَلكَ لأنّهُم (الأبْرار) أتَوْا بالطَّاعَات فى مُجْمَلهَا لأجْلِ طَلَب رضَا اللّه ، والخَوْف من هَوْل يَوْم القيَامَة ، فَوَقَاهُم اللّهُ شَدَّائدَ هَذَ اليوم ولَقَّاهُم نَضرة الوَجْه :

(١) صـ ٥٧ ج ١٦ مفاتيح الغيب .

(٢) مفاتيح الغيب ١٦ صـ ٥٩ .

في قَوْله تَعَالَى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئذٍ نَّاضِرَةٌ ﴾ [القيامة : ٢٢] .

﴿ وَجزَاهُم بمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيراً ﴾ : أَىْ عَلَى إيثَارِهم . الذَّى قَدْ يُؤَدِّى بِهِمْ إلى الجُوعِ والعُرِى - فَجزَاهم [جَنَّةً] أى بُسْتَانًا فيه السُّرورُ والمأكَلَ الهَنِىُ - وحَرِيرًا فيه مَلْبَسٌ بَهِىٌّ .

والجَنَّةُ : المسْكَنُ الوضعُ الَّذى يُجْلس فيه وَوُصفَ بِصِفَات مِنْهَا :

١ - ﴿ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ ﴾ : سَبَقَ بَيَانُه .

٢ - ﴿ لا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلا زَمْهَرِيرًا ﴾ : أَىْ أَنَّ الجَنَّة (ضياءٌ) فلا يحتَاجُ فِيهَا إلى شَمْسٍ وَلاَ قَمَرٍ .

والزمْهَرِيرُ : هُو القَمَرُ في لُغَة طَىء كَقَول [ثَعْلَب] عِنْدَما أنشَدَ :

ولَيلَة ظَلامُهَا قَد اعتَكَرْ   قَطَعْتُهَا والزَّمْهَرِيرُ مَا زَهَرْ

٣ - ﴿ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلالُهَا ﴾ ، أَىْ كَأنَّ قِيل جَزَاؤُهُم جَنَّةٌ جَامِعين فِيهَا بَيْنَ البُعْدِ عَنِ الحَرِ والمُضْطجعُ .

٥ - ﴿ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَ . قَوَارِيرَ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴾ .

جرَت العَادَة عنْد الصانع أن يَتجوَّدَ في إنَاء الشُّرْب أكثَر ممَّا يَتَجوَّدُ في إناء الأكْلِ فَقَوْله تَعَالى : ﴿ يُطَافُ عَلَيهِمْ بِصحَافٍ من ذَهَبٍ وأَكْوَابٍ ﴾ .

الصّحَافُ : القصَاعُ : وهىَ مَوْضعَ الأكْلِ ، وعَلَيْه يكُون إنَاءُ الشُّربِ أجْوَدُ - وَرَدَ هَهُنَا بَأنّها (قَواريرَ من فِضَّةٍ) ولاَ مُشَاكَلَةَ أَوْ مُنَافاةَ فَتَارَةً يُسْقَوْنَ بِهَذَا وتَارةً يُسْقَونَ بذَلك .

٦ - ﴿ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلاً ﴾ .

فالزَّنْجَبِيل والكَافُور : يُحْدثَان ضَرْبًا منَ اللَّذْع منَ المشْرُوبِ وَهى عَادةٌ يُحِبُّها العَرَبُ لذَا جَاءَ التَّصْوِيرُ بمَا تَشْتَهِيه أَنْفُسَهُم وَمَا أَلِفَتْهُ عَادَاتُهم .

٧ - ﴿ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلا ﴾

قَالَ الأكْثَرُون : يُقَالُ شَرَابٌ سَلِسٌ ، وسلسالٌ ، وسَلْسَبِيلٌ - أىْ [عَذبٌ سَهْلُ المَسَاغِ] .

قال الزجّاجُ : السَّلْسَبِيلُ في اللُّغَة صِفَةٌ لِمَا كَانَ في غَايَة السَّلاَسَة(١) .

---

(١) مفاتيح الغيب ص٧٣ جـ١٦ .

٨ ـ ﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُون ﴾ : مُبقَّون عَلَى هَيْئَةِ الوِلْدان فِي البَهَاءِ وَهُمْ المُشْتَغِلُون بالطوَّاف عَلَيهِمْ بِصحَافِ الطَّعَامِ وأكْوَابِ السِّقَايَة .

٩ ـ ﴿ إذَا رأَيْتَهُم حَسِبْتَهُم لُؤْلُؤاً مَّنْثُوراً ﴾ : أىْ عِنْدَ اشْتِغَالِهِم بالخِدْمَةِ تَرَاهُم كاللُّؤْلؤِ المُغرق فِي الحُسْنِ والصَّفَاء .

١٠ ـ ﴿ وإذا رأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعيمًا ومُلْكًا كَبيراً ﴾ : قَالَ ابنُ عَبَّاسٍ ﷺ : لاَ يَقْدِرُ وَاصِفٌ يَصِفُ حُسْنُهُ وَلاَ طِيبَهُ .

وقِيلَ : لاَ زَوَالَ لَهُ ، وَقِيلَ : إذَا أرادُوا شيْئًا حَصَلَ (١) .

﴿ عَالِيهُم ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ ﴾ : والمَعْنَى ممَّا يَعْلُوهُم من كِسَاء أوْ لِبَاسٍ ، سَبَقَ ذَلِكَ ﴿ وحُلُّوا أَسَاوِرَ من فِضَّةٍ ﴾ ، لاَ أعْلمُ أهِيَ مَخصُوصَةٌ لأهْلِ جَنَّاتِ النَّعِيم ، مِثْلَ مَا كَانَتْ أسَاوِرُ الذَّهَبِ مَخْصُوصَة لأهْلِ جنَّات عَدْن ـ أمْ أنَّه لاَمُنَافَاة بَيْنَ الأمْرَيْنِ وَلاَ مُشَاكَلةَ . فَلَعَلَّهُم يتعاقبُونَ عَلَى لِبَاسِ الحُلِي تَارَةً بِسوَارِ الذَّهَبِ وَتارَةً بِسَوارِ الفِضَّةِ ـ واللَّهُ أعْلم .

﴿ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُوراً ﴾ ، لِلمُبَالَغَة فِي كَوْنِهِ طَاهِراً ، وَلاَ يَؤُولُ إلَى نَجَاسَةٍ قَطُّ لأن ما يَرْشَحُهُ الجِسْمُ من عَرَقٍ مِنْهَا لَهُ عَبَقٌ كَعَبَقِ المِسْك .

إنّ هَذَا كَانَ لَكُم جَزَاءً وكَانَ سَعْيُكُم مَشْكُوراً

قَال ابنُ عبَّاسٍ : المعْنَى : يُقَالُ لأهْلِ الجَنَّة بَعْدَ دُخُولهم فِيهَا ومُشَاهَدَتهم لنَعِيمهَا . إنَّا هذا كَانَ لَكُم جَزَاءً قَدْ أعدَّهُ اللَّهُ لَكُمْ إلَى هَذَا الوَقْتِ فَهُو كُلُّهُ لَكُمْ بِأعْمَالِكُمْ عَلَى قِلَّتِهَا ـ كَمَا قَالَ حَاكِيًا عَنِ المَلاَئِكَةِ : إنَّهُم يَقُولُون لأهْلِ الجَنَّة : ﴿سَلاَمٌ عَلَيْكُم بمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد : ٢٤] وقَالَ تَعَالَى : ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بمَا أسْلَفْتُمْ فِي الأيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴾ [الحاقة : ٢٤] .

﴿ إلاَّ عِبَادَ اللَّه الْمُخْلَصِينَ ﴾ [الصافات من : ٤٠ : ٤٥] .

﴿ إلاَّ عِبَادَ اللَّه الْمُخْلَصِينَ ﴾ : قَسَمَ لَهُم رِزْقًا مَّعْلُومًا .

فَوَاكِه : الفَاكِهةُ مَا تُؤْكَلُ لأجْلِ التَّلَذذ لاَ لأجْلِ الحَاجَة فَأجْسَامُ أهْلِ الجَنَّة خُلِقَتْ بإحْكَامٍ للأبَد فَمَا يَأكُلونَ للتَلذُّذ لاَ لحِفْظ الصِّحَة وَسَلاَمَة البِنْيَة .

وهُمْ مُكْرَمُون : لأنّ الأكْلَ عُمومًا إن خَلَى عَنِ التعْظِيم صَارَ لاَ يَلِيقُ بالمُكْرَمِينَ

(١) مفاتيح الغيب جـ١٦ ص٧٥ .

إنما يتَّفِقُ مَعَ غَيرِ العَاقلينَ والكَافِرينَ والأنْعَامِ وَمَنْ هُمْ أضَلُّ مِنَ الأنْعَامِ سَبِيلاً فى جنَّاتِ النَّعِيم : التَّى تَليقُ بِهِم واعَدَّهَا لَهُم نُزُلاً .

على سُرُرٍ مُتَقَابِلين : فَلاَ حَرَج وَلاَ كَلفَةَ عَلَيْهِم فِي التَّلاقِى للمُخَاطَبَة والأُنسِ يُطَافُ عَلَيهم بكَأسٍ مِن مَّعِين ، والمُرادُ أنَّهُ الماءُ الذَّى تَرَاهُ العَيْنُ جَارِيًا صَافِيًا ظَاهِرًا ، والمعْلُومُ أنَّ الكَأسَ تَحوِى الخمْرَ ، ويُقَالُ لِلخَمرِ الكَأسُ ، وهِى خمرةٌ بَيضَاءَ لَذيذَةٍ للشَّارِبينَ.

﴿ لاَ غَوْل فيه ﴾ : لا تَغْتَالُ العُقُولُ وَلاَ تُذْهِبُهَا بالسكْرِ والتَغْيِب .

قَوْلُهُ : وعِندَهُم قَصِراتُ الطَرْف : القَصْرُ فِي اللُّغَةِ : هو الحَبْسُ ، والمَعْنَى أنَّهنَّ يَحْبِسْنَ نَظَرهُنَّ وَلاَ يَنْظُرنَ إلَى غَيرِ أزْواجِهِنْ .

﴿ عِيْنٌ ﴾ : قَالَ الزَجَّاجُ : كِبارَ الأعْيُنِ [حِسَانُهَا] وَاحِدُهَا عَيْنَاء .

﴿ كَأَنَّهنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ ﴾: أى بَيْضٌ مَسْتُورٌ ومَصُونٌ عَنِ الغَبرة والقَتَرة ، ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُم عَلَى بَعْض يَتَساءَلون ﴾ عَلَى مَعْنَى : يَحْتَسُون الخُمورَ ويَتَبادَلُونَ أطْرافَ الحديث عَلَيْهَا فِى بَهْجَة وَسُرور .

﴿ ذَلكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتيه مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيم ﴾ [المائدة : ٥٤] .

رابعًا : دار السلام

قال تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [يونس : ٢٥] .

فيه . نَهْيٌ عَنِ الإشتغال والغَفْلَة وترغيبٌ في الدَّارِ الآخرة وَهُوَ مَا يُبيّنُهُ قَوْلُ الرَّسُول ﷺ فيمَا رُوِى عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ : « مَثَلي ومَثَلُكُم شِبْهُ سَيِّد بَنَى دَارًا ووضعَ مَائدَةً وأَرْسَلَ دَاعيًا فَمَن أَجَابَ الدَّاعي دَخَلَ الدَّارَ وأَكَلَ مِنَ المَائدَة وَرَضيِ عَنْهُ السَّيِّدُ ، وَمَن لَمْ يُجبْ لَمْ يَدْخُل وَلَمْ يَأْكُل وَلَمْ يَرْضَ عَنْه السَّيِّدُ ـ فاللَّه السَّيِّدُ ، والدَّارُ دارُ السَّلاَم ـ والمَائدَةُ الجَنَّةُ ـ والدَّاعي مُحَمدٌ ﷺ » .

وَعَنْهُ أَيْضًا ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « مَا مِن يَوْم تَطْلَعُ فيه الشَّمْسُ إلاَّ وبجَنْبَيْهَا مَلَكَان يُنَاديَان بحَيْثُ يَسْمَعُ كُلُّ الخَلائق إلاَّ الثَّقَلَيْنِ : أَيُّهَا النَّاسُ هَلَمُّوا إلَى رَبكُم ، واللَّهُ يَدْعو إلى دَارِ السَّلاَمِ » .

وعليه فإن دار السلام يصح أن تكون هى بطنا للجنات كلها وتحتويها فإنها إذا اسم [جنس] أعم وأشمل من أسماء الجنات ودرجاتها .

وسميت كذلك :

لأن اللَّهَ تَعَالَى يُسَلِّمُ عَلَيْهِمُ ﴿ سَلامٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس : ٥٨] ، والمَلائكَةُ يُسَلِّمونَ عَلَيْهِمْ ﴿ وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ﴾ [الرعد: ٢٢، ٢٣] وكَذَلكَ يُحيّي بَعْضُهُمْ بَعْضًا بالسَّلاَمِ ﴿ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ ﴾ [إبراهيم: ٢٣] .

ودَعْوةُ اللّه إلَى دَارِ السَّلاَمِ [دارُ الكَرَامَة والسَّلاَمَة والنَّجَاة] يُمْكن أن تَكُونَ بهِدَاية اللّه مَن يَشَاءُ إلَى إجَابَة تلْكَ الدَّعْوَة ، وَيُمْكنُ أن تكُونَ عَلَى سبيل التَّنْبيه والتَّقْرير عَلَى حُسْنِ المَآب كقَوله تَعَالَى : ﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ ﴾

ونكّر الجنَّةَ تَفْخيمًا وتَعْظيمًا لَهَا وَللخَيْرات الّتى بهَا . نَظيرُ قَوْلُهُ تَعَالى : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلا ذِلَّةٌ أُوْلَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [يونس : ٢٦] .

للَّذِينَ أَحْسَنُوا الحُسْنَى : قَالَ ابْن عبَّاسٍ (١): رَضِى اللَّهُ عَنهُما ، للَّذِينَ ذَكَرُوا كَلمَةَ (لاَ إِلَهَ إلاَّ اللَّه)

وقال الأصم : للَّذِينَ أحْسَنُوا فِى كُلِّ مَا تَعبَّدُوا به ، ومَعْنَاهُ أَنَّهُم أَتوْا بِالمأمُورِ به كَمَا يَنْبغِى ، واجْتَنبُوا المَنهيَّات مِنَ الوَجْه الذَّى صَارَتْ مَنْهيًا عَنْهُ .

وقَولُهُ : **الحُسْنَى** : فَقَالَ الأَنْبَارِى (٢) : الحُسْنَى فِى اللغُة تَأْنيثُ الأَحْسنِ والعَربْ تَوْقعُ هَذه اللفْظَةَ عَلَى الحَالَة المحبْوبَة والخصْلة المرْغُوب فيهَا .

قَالَ صَاحِبُ الكشَّاف : **الحُسْنَى** : المُرَادُ : المثُوبَةُ الحُسْنَى نَظِيرُ هَذه الآية ﴿ **هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ** ﴾ [الرَّحْمن : ٦٠] .

قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ **وزِيادَةٌ** ﴾ .

الوَاجِبُ أَنْ يكُونَ المرادُ مِن الزِّيَادَة مُغَايرٌ لكُلِ مَا فِى الجنَّة مِن المنَافعِ والتَعْظِيم لِيَطُولَ اشْرفَ مِن ذَلك ومُراداً ويَقْطعُ عَلَيْه للفوزِ بِنضْرَة الوُجُوه كَمَا قَالَ تَعَالى : ﴿**وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ** ﴾[القيامة : ٢٢، ٢٣] .

أى : (لاَ يَرْهَقُ وُجُوهَهُم قَتَرٌ وَلاَ ذِلَّةٌ) **والقتر** : المعنى : لا يَغْشَاهَا قَتَرٌ وهِىَ الغَبَرةُ ذَات السَّوَاد ، **اما الذلة** : اىْ فَلاَ أَثَر لِهَوان وَلاَ كُسُوف وَلاَ خُذْلاَن اما الذلة : اىْ : فَلاَ أَثَر لِهَوانٍ وَلاَ كُسُوفٍ وَلاَ خُذْلاَن وهَؤلاَء لَهُم السلاَّمُ تحية عِنْدَ لِقَاء اللَّهِ .

﴿ **تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلامٌ** ﴾ [الأحزاب : ٤٤] .

« وتَتَلقَّاهُم المَلائكَةُ بالسَّلام ﴿**سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ**﴾ [الزمر :٧٣].

دعاهم الداعون بالسلام ﴿**ادْخُلُوهَا بِسَلامٍ**﴾ [ق : ٣٤] .

ناداهم المنادون بالسلام ﴿**ادْخُلُوهَا بِسَلامٍ آمِنِينَ**﴾ [الحجر : ٤٦] .

﴿ **أُولَئِكَ أَصْحَابُ الجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** ﴾ : لِكَوْنِهَا خَالدةٌ دائمةٌ آمِنَةً مِن الصيرُورَة أو الانقطاع .

﴿**سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ**﴾ [الرعد : ٢٤] .

---

(١) مفاتيح الغيب : جـ٨ ص٣٣٧ .

(٢) مفاتيح الغيب : جـ٨ ص٣٣٧.

الباب الرابع
سبل السلام

إنَّا السَّبيلَ إلَى الفَوْز العَظيم مَحْفُوفٌ بالمَشَاق مَليءٌ بالصِّعَاب الجَمَّة وإنَّ الوُصُولَ إلى دَار السَّلاَم مَشْرُوطٌ باتِّبَاع سُبُل السَّلاَم التَّي سَوْفَ أَجْتهدَ فى بيَان بَعْض مِنْها إنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى واللَّهُ المُسْتعانُ .

أوَّلاً : الاسْتقَامَة

قَالَ تَعَالَى : ﴿ **فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ** ﴾ [هود : ١١٢] فاسْتَقم كَمَا أُمرْتَ : هى كَلمَةٌ جَامعَةٌ .

لكُلّ مَا يَتعلَقُ بالعقَائد والأعْمَال ـ وَهىَ الأصْلُ العَظيمُ فى أمُور الدّين، وَلاَ يَصحُّ عَلَى حكْم الاسْتقَامَة قياسٌ . فَإنَّ العَمَل بالقيَاس انحرافٌ عَن الاسْتقَامَة ﴿ **وَمَن تَابَ مَعَكَ** ﴾ : المُرادُ التَّائبُون إلَى ربهّم من المُنَافقينَ والفاسقين والرَّاجعينَ عَن الكُفْر والشّرك ممَّن جَاءوا تَحْتَ قَوْله تَعَالَى : ﴿ **وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ** ﴾ [الزمر ٥٤]، فَمَنْ أنَابَ صَحَّ منْهُ الإشْتغَالُ بالاسْتقَامَة عَلى طَريق اللَّه والبَقاء عَلَى عُبُوديتَه للَّه تَعَالى .

﴿ **وَلا تَطْغَوْا** ﴾ : الطُغْيَانُ . التَّجَاوزُ . وإمَّا أنْ يكُونَ بالتكبُر عَلَى عبَاد اللَّه أوْ الكبْر عَلَى أوَامر اللَّه والالْتفَات عَن التَّواضُع للَّه تَعَالى ، أوَ أنْ يكُونَ تَجَاوزًا عَلَى المنْهَج القَويم بإبْتدَاع أمور واسْتحْدَاث أشْيَاء لَمْ يأذَنْ بها الشَّارع ، أوْ يَقَع الميْلُ والحولُ عَن الاسْتقَامَة ، فَيَقَع تَحْليلُ الحَرَام أوْ تَحْريمُ الحَلاَل عَن جَهَالَة ﴿ **إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ** ﴾ .

قال تعالى : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٣) أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ [الأحقاف: ١٣ ، ١٤] .

فيه تَقْريرٌ عَلَى دَلائَل التَّوْحيد والنُّبُوة بالتَّأكيد عَلَى الإمْسَاك بمفْتَاح الجنَّة وَهُو (لاَ إلَهَ إلاَّ اللَّهَ مُحَمدٌ رَسُولُ اللَّه) إقْراراً بربُوبيتّه واسْتحقَاقًا لألُوهيَّته ثُمَّ اسْتَقَامُوا ، سَبَقَ القَوْلُ في الاسْتقَامَة .

﴿ **فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ** ﴾ : أىْ : يَزُول عنْهُم خَوفَ الحشْر وفَزَع

النَّشْرِ والعِقَابِ ﴿ لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ﴾ [الأنبياء : ١٠٣] .

﴿ لا يَحْزُنُهُمْ ﴾ : أىْ لاَ يَهُمُّهُمْ فِرَاقُ الذُّرِّيَةِ لأَنَّهُمْ مُرْدَفِينَ إِلَيْهِم مُلْحَقِينَ عَلَيْهِمْ كَمَا قَالَ تَعَالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ ﴾ [الطور : ٢١] .

وهى سياقٌ يُفِيدُ الحَصْرَ - لأَنَّ أَصْحَابَ الجَنَّةِ - الذِّينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ - ثُمَّ اسْتَقَامُوا . وَقَعَ مِنْهُ أنَّ صَاحِبَ الْكَبِيرَةِ قَبْلَ التَّوْبَةِ إِلَى اللَّه لاَ يَدْخُلِ الجَنَّةَ .

قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠) نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ (٣١) نُزُلاً مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴾ [فصلت : ٣٠ : ٣٢] .

إنَّ القَوْلَ باللِّسَانِ لاَ يُفِيدُ الاسْتِقَامَةَ ولا يُشِيرُ إِلَيْهَا أَوْ يَدَلُّ عَلَيْهَا . إِذْ لاَ تَحْصُلُ الاسْتِقَامَةُ إلاَّ إِذَا كَانَتَ مُقْرُونَةً باليَقِينِ والمَعْرِفة . أىْ الإِخْلاَصِ للَّه وَعَدَمِ الالْتِفَاتِ إِلَى إِلَه غَيْرِ اللَّه . ولِحُصُولِ الاسْتِقَامَةِ يَنْبَغى مُنَاوَلة الأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ من وُجُوهِ الخَيْرِ ، واجْتِنَابِ عِبَادَةِ الطَّاغُوتِ - واتِّقَاءِ السَّيِّئَاتِ واجْتِنَابِ الرِجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَعَدمِ القَوْلِ بالزُّورِ .

﴿ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ ﴾ : قِيلَ عِنْدَ المَوْتِ - وَقِيلَ فِي مَوَاقِفَ ثَلاَثَةٍ [عِنْدَ المَوْتِ وَفِي القَبْرِ ، وعند البعث] أىْ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ . أَن لاَ تَخَافُوا وأَبْشِرُوا : والبِشَارَةَ هِيَ الخَبَرِ الأَوَّلِ بحصُولِ المَنَافِعِ وَالخَيرات .

﴿ بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ : وَرَدَ فِي ذَلِكَ الكَثِير .

﴿ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ ﴾ : كَمَا كَانَتْ الوَلاَيَةُ فِى الدُّنْيَا يَجِبْ أَنْ تَكُونَ فِي الآخرة كَذَلِكَ ﴿ هُنَالِكَ الْوَلايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ ﴾ [الكهف : ٤٤] .

﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ ﴾ : يُرَادُ بِهَا الجَنَّةُ الجُسْمَانِيَة

﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴾ : إِشَارَةٌ إِلَى الجَنَّةِ الرُوحَانِيَّةِ .

﴿ نُزُلاً مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴾ : والنُّزُلُ فِي بـطْنِ اللُّغَةِ هِى رِزقُ النَّزِيل وَهُوَ [الضَّيْفُ].

وَاعْلَم بِأَنَّ للاسْتِقَامَةِ دُرُوبَ وأَسَالِيبَ اجْتَمعَتْ كُلُّهَا فِي بَابَيْنِ فَقَطْ بَابُ الأَمْرِ : افْعَل . وبَابُ النَّهْى : لاَ تَفْعَل .

ومن القرآن الكريم نماذج في بيان الاستقامة .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَى﴾ [البقرة : ٢٦٤] .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ ﴾ [البقر: ٢٦٧] .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[البقرة:٢٧٨].

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ [البقرة : ٢٨١] .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ﴾ [البقرة : ٢٨٢] .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا الرِّبَا﴾ [آل عمران : ١٣٠] .

﴿ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران : ١٣١] .

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [آل عمران : ١٣٢] .

﴿وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا﴾ [آل عمران : ١٠٥] .

﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران : ١٠٣] .

﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [آل عمران: ١٠٤] .

﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال : ٢٥] .

﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا﴾ [النساء : ٩] .

﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٦] .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى﴾ [الحجرات : ١١] .

﴿ وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ﴾ [الحجرات : ١١] .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ [الحجرات : ١٢] .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلا تَعْضُلُوهُنَّ﴾ [النساء:١٩].

والاستقامة ترجمة أفعال الفرد وتعامله مع قول الله تعالى :

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٣٠) مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٣١) مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ [الروم: ٣٠ : ٣٢] .

ثانيا : الاستعانة

قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [البقرة : ١٥٢ : ١٥٣] .

المُلاحَظُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَوْجَبَ جَمِيعَ العِبَادَاتِ والطَّاعَاتِ فِـي قَوْلِهِ : ﴿واذْكُرُونى﴾، كَذلكَ فَقَدَ أوجب الشُّكْرَ وَمَا يَتَّصِلُ به فَى قَوْلِهِ ﴿ وَاشْكُرُوا لِي ﴾ .

ولأنَّ التَّكْليفَ شَاقٌ والمَنْهَجَ غيرَ يَسير والأَمْرَ ثَقِيلٌ عَلَى إنْسَانٍ قَدْ ابتُلِي بِأَرْبَع يَرْمِينَه ﴿ النَّفْسُ ـ الهَوَى ـ الدُّنْيَا ـ والشَّيْطَنُ ﴾ . لِذَا فَقَدْ تَعَيَّنَ عَلَى المُؤْمنِينَ الاسْتِعَانَةَ باللَّه بِأنْ يَنْوِيهَا ويَرْغَبُهَا قَبْلَ الشُّروعِ فِي العَمَلِ ـ كَمَا يجَبُ أَنْ يسلُكَ فِي سَبِيلِها سبل الله التى ذَكَرَهَا .

وقَدْ أَرْدَفَ المعِينُ جَلَّ وعلا مَا يعينُ عَلَى الذِكْرِ والشُّكْرِ وَمَا يَتَعَلَقُ بِهِمَا بقوله تَعَالَى ﴿ اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ﴾ .

فالصَّبْرُ : هُو قَهْرُ النَّفْسِ عَلَى تَحمُل المكَارِه فِي ذات الله تَعَالَى وتَوْطينَها عَلَى تَحمل المَشَاق وتَجنُبِ الجَزَعِ . ولاَ سَبيلَ إلى ذلكَ إلاَّ بِتَحْميلِ النَّفْسِ والقَلْبِ لِهذَا التذْليل .

أما الصَّلاةُ : لأنَّ الاستَعَانَةَ بِهَا تَقْتَضِى الخُضُوعَ والخشُوعَ والتَذَلُّلَ والإِخْلاصَ للَّه الوَاحِدِ القَهَّارِ ، وتجعل المصلى وهَمّ قلبه إلى ما يأتى فى الصلاة من قراءة القرآن وأن يشتغل بأمور الوعد والوعيد والترهيب والترغيب لأنهُ تَعَالى قَالَ: ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ [العنكبوت : ٤٥] .

إنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابرين : أىْ أنَّهُ تَعَالَى قَضى بِالنَّصْرِ لَهُم ، كَأنَّهُ تَعَالَى كَفَى وَضَمنَ مَن استَعَانَ بِالصبرِ وَالصَلاة عَلَى طَاعَته أن يرزقهم اللطف والتَّوفيقَ والسَّدادَ ﴿ جَزَاءً مَوْفُورًا ﴾ .

ولأنَّ الصَّلاةَ تَحُولُ دُونَ الاشتغَال بالدُّنْيَا وأهْوَائها ، وبسببها تَطْمَئِنُّ القُلوبُ وَفيهَا كَذلك قِراءةَ القُرآنِ وتَدبُّر مَا فيه منَ الوَعْد والوَعيد والحكمة والآدَابِ الجَميلَة إلى جَانبِ ذِكْرِ مَصير الخَلق إلى أحد الدارين [الجَنَّة . أو . النار] بِمَا يُرغِّبُ فى الآخرة وينفر عَن الدنيا ويحتم بِقَصْد بَابِ اللَّه فَلَيْسَ دُون بَابِ اللّه بابَ .

وإنَّها : إذ لَمَّا كان خبر إنَّ مُفْرداً مرفوعًا بالضمة الظاهرة تأكد لَنَا أنَّ الضمير يعود على الاستقامة لا علي الصبر والصَّلاة . إذ لا يجوز أن ندمج الصبرَ والصلاة (المثني)

في مفرد واحد ولو قلنا بتثنيتهما لكان القول [وإنهما] أولى إلا أن [إنَّها] جاءت مُفردة لتوكّد أنّها عائدةٌ عَلَى الاستعانَة .

وكما كَانَتْ الصَّلاةُ مَعْطوفة عَلَى الصَّبْر وَهُما أَمْران مُخْتَلفَان في اللَّفْظ والمَعْنى استحال بسبب ذَلك أن يكوُن المُراد بقوله: [إنها] عَائدة عَلَى الصَّبْر والصَّلاَة منْهُ فإنَ الاستعَانَةَ أمْر هَائلٌ وَشَاقٌ إلاّ عَلَى الذَّين يَروضُون أنفُسَهُم وَقُلُوبَهُم فى طاعة اللَّه بالمداومة عَلى العبادات والانصراف إلى الطَّاعات واجتناب المُضَلاَّت كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وإنَّهَا لَكبيرةٌ إلاَّ عَلَى الخَاشعينَ ﴾ الذين يَتسلحُون بالصبر والصَّلاة عنْدَ البَلاء الكَائن في صُور الخَوْف أو الفَقر أو الجُوع ونُقْصَان الأنفس والثمَّرات والأمْوال إلَى غير ذَلك.

أولئك لَهُم البُشرى كَمَا قَال تَعَالَى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِين ﴾ [البقرة : ١٥٥] .

إنهم الصَّابرُونَ الذَّينَ ذُكرَ جزَاءهُم في غَير مَوْضع في القرآن الكريم :

﴿ الَّذينَ إذَا أَصَابَتْهُم مُّصيبَةٌ قَالُوا إنَّا للَّه وَإنَّا إلَيْه رَاجعُونَ (١٥٦) أُولَئكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئكَ هُمُ الْمُهْتَدُون ﴾ [البقرة : ١٥٦ : ١٥٧] .

﴿ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُون ﴾ [النحل : ٩٦] .

﴿ إنَّمَا يُوَفَّى الصَّابرُونَ أَجْرَهُم بغَيْر حسَاب ﴾ [الزمر : ١٠] .

﴿ أُوْلَئكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْن بمَا صَبَرُوا ﴾ [القصص : ٥٤] .

وقَد عَلَّق النَّصْرَ عَلَى الصَّبر بُشرى للصَّابرينَ وتَحْفيزاً لَهُمْ ﴿ بَلَىٰ إن تَصْبرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْددْكُمْ رَبُّكُم بخَمْسَة آلاف مِّنَ الْمَلائكَة مُسَوِّمينَ (١٢٥) وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إلاَّ بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلتَطْمَئنَّ قُلُوبُكُم به وَمَا النَّصْرُ إلاَّ منْ عند اللَّه الْعَزيزِ الْحَكيم ﴾ [آل عمران : ١٢٥ ، ١٢٦] .

وَقَدْ جَمَعَ اللَّهُ تَعَالَى للصَّابرينَ مَا وَعَدَهُم به عَن استْحقاقٍ وَوُجُوبٍ مَالَمْ يَجْمعه لغيرهم من عباده المُبشّرينَ .

فَصلاةُ اللَّه : ثَنَاء ومَدح وتَعْظيم

ورحمة اللَّه : نعم اللَّه أنزلَها وأرَاهَا عَاجلاً وآجلا

والفَوْزُ كَمَا قَالَ تَعَالَى:

﴿ وَهُدُوا إلَى الطَّيِّبِ منَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إلَىٰ صرَاطِ الْحَميد ﴾ [الحج : ٢٤] .

ثالثا : إقام الصَّلاة

قال تعالى : ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [البقرة : ١١٠] .

﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [النور : ٥٦].

فيه إلزَامٌ لِحظَ النَّفْس وصَلاَحِهَا : إذْ أَجِدُ أَنْ إقْرانَ الزَّكَاة بالصَّلاة أمْرحَتْمى وَوْجوبى . إذْ إن (الوَاوْ) الوَاقعة بَيْنَ ﴿ أقيموا ، وءَاتوُ ﴾ لَيْستَ للعَطْف - إنَّمَا هِيَ واوُ المعية . إذا يلزم مَعَ هَذه . تلْكَ . باعتبار إقامة الصَّلاة رُكنَ الإسْلامَ الثانى بَعْدَ التَشهُد ويَأتى إيتاء الزَّكَاة في الرُكنِ الثَّالث قَبْلَ صَوْم رَمَضَانَ . والثَّابت أنَّ أرْكان الإسلامِ كُلهُا وَاجِبةُ الشُمُولِ والنَفَاذ . مِن دُون عَطْفٍ أوْ مُبادلة أو تقديمِ رُكنٍ وطرح آخر .

وَإن تَقدَّم التَّزكّى كَأحَد الزَّكاة وكَعَلاقَة النُّوع بالجنْسِ - مثَل ما قال تعالى تَعَالَى : ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ ﴾ [الأعلى : ١٤ : ١٥] عَلَى مَعْنَى قَدْ فَازَ وَحَازَ سُبُلَ النَّجاح مَنَ تَزَكى بِنَفْسه عَن الكُفْرِ والمَعَاصِى وَتَطَّهرَ مِنَ الآثَامِ والمَعَاصِى وَذَكرَ اللَّه تَعَالَى أخْذا بِسَبَبِ الذكرِ - فَمَنْ أقَامَهَا وَتَزكَّى مَعَهَا إنَّما يكُون قدْ زكى وَفَازَ بالبُغْية والمُرَاد .

قَولُهُ تعالى ﴿ وَمَا تُقَدِّمُوا لأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ ﴾

وَفيه إرْدَافُ التَطَوعِ عَلَى الوَاجب فإقَامَةُ الصَّلاة وإيتَاء الزكاة واجبٌ ، والأظْهَرْ أنَّ الوَاوَ للعَطْف أىْ مَعَ ذَلكَ فالتَطَوُّعَات مِنَ الصَّلاة ومِنَ الزَّكاة وكَافة أفعال الخَيْر فَإنها تَبْقى ، وَهِىَ مَوجودة عنْد الله تَعَالَى ليجزيهم عَنها ويثيبهم عَليهْا ﴿ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ ﴾ [البقرة : ١٨٤] وَقوله تعالى ﴿ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الحج : ٧٧] .

﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾، نَظير قَولُهُ تَعَالَى ﴿والله بصير بالعباد﴾ وَفيه الترغيب عَلَى فعل الخَيْر وَحَصْرِ الكثيرِ والقَليلِ من الأعمال الصالحة لأن الله تعالى لا يخفى عَليه شىءٌ من خلقه ولا من أفعالهم ﴿ أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ .

وقال تَعالى : ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [النور : ٥٦] .

فى معرض الحديث عَن الآيَة الأولى [البقرة : ١١٠] نجد الأمر عاما وجَامعا . فَفيه إقامةُ الصَّلاة وإيتَاء الزَّكَاة عَلَى سَبيل التكليف بالجملة ، أمَّا فى الآيَة الثَّانية . فَإنَّ البَيَانَ تَفْصيلٌ جَاءَ به الرَّسُولُ ﷺ الذى وَجَبَتْ طَاعَتُه ﴿ وأَطيعُوا الرَّسُولَ ﴾ لأنَّه الذَّى جَاءَ بعدد الصلَوَات المَكْتُوبة وَبينَ عَدَدَ رَكْعاتها وكَيفيَّة أدَاءهَا وأرْكَانَهَا وحرَكَاتهَا - كَمَا بينَ نَصيبَ الزَّكَاة وَمُسْتَحقيهَا والصَّدَقَات وَمَنْ تَقع عَلَيْهمْ - وكذلكَ أوْجُه التَزكّي وَالإنفَاق المُتنوِّعَة . وَهذَا راسُ طَاعَة الرَّسُولِ ﷺ بأخْذ مَا جَاءَ والانْتهاءُ عَمَّا نَهَى .

﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ﴾ [الحشر : ٧] .

بيـــوت الله

قالَ تَعَالَى : ﴿ في بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ (٣٦) رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ (٣٧) لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [النور : ٣٦ : ٣٨] .

أكثر المفسرين قَالوا : المراد من قَولِه تعالى ﴿ فى بيُوت ﴾ المَسَاجد [1] .

وعَن ابن عبّاس رَضِى اللَّهُ عَنْهُما هى المَسَاجد أمَرَ الله أن تُبْنَى

وَهىَ عنْدنَا : مَسَاجدَهُ تُبْنَى فَتُرفَعُ تَميْزاً وتَخْصيصًا عَنْ سائر البيوت وهى تُرْفَعُ كَذَلكَ فَوْقَ الشّرْك والفُسْق والنَّجَاسَات والمؤامَرات والمَكائد واللَّغْو تعْظيماً لَما أُريَد لَهَا أنْ تُرفَعَ من أجله واشتغالا به

وهو التسبيح باسم اللَّه ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ﴾ [الأعلى : ١] .

التسبيح بحمد اللَّه ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ ﴾ [النصر : ٣] .

السُّجودُ للّه ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴾ [الحجر : ٩٨] .

مداومة العبادة لله ﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾ [الحجر : ٩٩] .

﴿ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ ﴾ : الأمْرُ عَامٌ يَتنَاوَلُ كُلَّ ذكْرٍ منْ صَلاَة وتلاوة وتعَلُّم أحْكَام الفقْه وَيطُولُ سائر العبَادَات والطاعات ويعرضُ لقَضايَا الأُمَّة وهُمومُهَا بمَا يَدْرأُ عَنْهَا المفاسد ويَجلبُ لَهَا المَنَافعَ والخَيرَات .

(١) مفاتيح الغيب ج ١١ ص ٥٩٣ .

﴿ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا ﴾ : المشْتَغلُونَ بالذّكْرِ وَهُمْ كَمَا قَالَ تَعَالى : ﴿ رِجَالٌ ﴾ أى : ضِدُّ النّساء ـ ويُفيدُ التكبير فى [رجال] أنْ يكونَ القول عامًّا فَيَشْمَلُ كُلَّ الرِّجَال او ان يكونَ التفاتا فيتَنَاولُ بَعْضَ الرجّالِ فإنْ كَانُوا هَؤلاَء أوْ هَؤلاَء فإنَّهُم الرّجَالُ الذّين بِهِم نَعْمُرُ المَسَاجِدُ ، أمَّا النسّاءُ .

فَصَلاتُهُنَّ تَصِحُّ فى قَعْرِ دَارِهن ومَا عَليْهِن جَمَاعة .

﴿ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا ﴾ : المُشْتَغِلون بالذكْرِ هُمُ المُسَبِحُون بِحَمْدِهِ المُنزهُونَ لِذَاته .

بالغدو : وهو البكرة من البكور وهو مصدر ـ لا يُجمعُ .

والآصَالُ : جَمْعُ اصُل والأصُل جَمْعُ أصيل ـ وهُوَ العَشِيِّ ، وكُنى بالغُدُوّ والآصَالِ عَنِ استمْرار عمَارة المَساجد بمُدَاوَمة الصَّلاة فيهَا وَالمُواظَبَة عَلَيْهَا فى أوْقَات الصَّلاة فيهَا والمُواظَبَة عَلَيْهَا فى أوْقَاتها منَ الأصيلِ إلى البُكْرَة ، وَمن البُكْرة إلى الأصيلِ ، أىْ : الاشتغَال بعبَادَة اللّه وإعْمَارهَا طيلةَ اليَوم كُلّه كمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿وأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ﴾ [هود : ١١٤] .

إنَّ المُشْتَغلينَ بالذكْرِ المُنزهُونَ للّذات الإلَهيَّة عُمَّارُ المَسَاجد كَمَا نَعَتَهُم اللّهُ تَعَالى هُمْ [رجَالٌ] وقد اختَصَّ اللّهُ الرجَالَ دُونَ النسَاء لَسْنَ من أهْلِ التّجَارة أوْ الصنَاعة وَهُمْ كَمَا حكَى القُرْآنُ الكَريمُ : لاَ تُلْهِيهم تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ فَالتجارَةُ [جنْسٌ] عامٌ وَشَامل والبَيْعُ : نَوْعٌ يَنْدرجُ تَحْتَ الجِنْسِ .

فالتَّاجرُ يَبيعُ وَيَبْتاعُ والرِبْحُ الحَاصِلُ للتَّاجرِ فيه شَكٌّ مُسْتَقْبَلىٌّ .

أمَّا البَائعُ : فإنَّ تَحْقيقَ الربْح لَهُ حَاصِلٌ يَقينًا .

والمُرادُ : أن المُشْتَغلينَ بالتّجَارة من الرجَال المُؤمنينَ لاَ تُلْهيهمْ تجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَن ذكْرِ اللّه . وَ ذكْرُ اللّه كَمَا تَقَدَّمَ عَامٌ يَتَنَاوَلُ كُلَّ العبَادَات والطَّاعَات التَّى يصحُّ الاشْتغَالُ بهَا أثْنَاءَ البَيْعَ أو الابْتيَاعِ . كَمَا أنَّهُم لاَ تُلْهِيهُم تجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَن إقَام الصَّلاة .

﴿ وأَقِمِ الصَّلاةَ ﴾ : المُرَادُ : الصَّلاةُ المكْتُوبَة (المَفْرُوضَة) عَلَى أوْقَاتهَا والأنْفَالُ التَطَوُّعيَّة بِكَامِلِ أرْكَانهَا وَحَركَاتهَا وَسَكَنَاتهَا بِمَا تَسْتَوْجبُ مِن خُشُوعِ قَلْب وَاسْتحْضَار عَقْلٍ واطمْئنَان جوَارح .

﴿ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ﴾ : قَالَ ابنُ عَبَّاس ﷺ : المُرادُ من الزَّكَاة طَاعَةُ اللّه تَعَالَى والإخْلاَصُ ، وكَذَا فى قَوْله ﴿ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ ﴾ [مريم : ٥٥] .

وَقَد عَلَّقَ اللّهُ تَعَالَى الزَّكَاةَ عَلَى الإيتَاءِ وَهُوَ مَا يَعْنى إخْرَاجَ المَالِ عَن رِضَا وإيمَانٍ

ويقين لأنهم يخافون يومًا تتقلب فيه القلوب والأبصار .

قال تعالى : ﴿وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار﴾ [طه : ١٣٠] . فقوله تعالى : قبل طلوع الشمس وقبل غروبها . إشارة إلى الصبح والعصر وهو كقوله تعالى : ﴿ وأقم الصلوة طرفى النهار وزلفا من الليل ﴾

قوله تعالى : ﴿ ومن ءاناء الليل ﴾ إشارة إلى المغرب والعشاء وهو كقوله ﴿ وزلفا من الليل ﴾ للتبعيض ، وقوله ﴿ ءاناء الليل ﴾ وهو جمع وأقله ثلاثة .

وقال تعالى : ﴿ وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفا من الليل﴾ [هود : ١١٤] . قال المفسرون بوجوب صلاة الصبح ووجوب صلاة العصر فى﴿ طرفى النهار ﴾ ، ﴿ وزلفا من الليل ﴾ يفيد وجوب المغرب والعشاء .

قال تعالى : ﴿ أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر﴾ [الإسراء:٧٨] .

المراد : من الدلوك إلى الغسق هو الظهر والعصر ، والواجب من الغسق إلى الفجر هو المغرب والعشاء والواجب في الفجر هو صلاة الصبح .

وقال تعالى : ﴿ وله الحمد في السموات والأرض وعشيا وحين تظهرون ﴾ [الروم:١٨] .

وعشيًا : المراد منه الصلاة الواقعة في محض الليل وهى صلاة العشاء ﴿ وحين تظهرون ﴾ : المراد : الصلاة الواقعة في محض النهار وهى صلاة الظهر.

من مفسدات الصلاة

ذكر الفقيه : أبو الليث رحمه الله تعالى في [تنبيه الغافلين] : أن تمام القراءة أن يقرأ بغير لحن وأن يقرأ بالتفكر (١) .

أما الغزالي : رحمه الله : فإنه نقل عن أبى طالب المكى عن بشر الحافى أنه قال : من لم يخشع فسدت صلاته .

وعن الحسن رحمه الله : كل صلاة لا يحضر فيها القلب فهى إلى العقوبة أسرع.

(١) انظر ص٣٤٥ . جـ١١ مفاتيح الغيب .

وعَنْ مُعَاذِ بن جَبَلٍ : مَن عَرَفَ مَن عَلَى يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ مُتَعَمِدًا وَهُو فِي الصَّلاَةِ فَلاَ صَلاَةَ له .

وَرَوَى أَيْضًا مُسْنَدًا : قَالَ عَلَيْه السَّلاَمُ : « إنَّ الْعَبْدَ لَيُصَلِّي الصَّلاَةَ لاَ يُكْتَبُ لَهُ سُدْسُهَا وَلاَ عُشْرُهَا وَ إِنَّما يُكْتَبُ لَهُ مَا عَقَلَ مِنْهَا » .

وَقَال عَبْدُ الوَاحِدِ بن زَيْدٍ : أَجْمَعَتُ العُلَمَاءُ عَلَى أنَّهُ لَيْسَ لِلْعَبدِ مِنْ صَلاتِهِ إلا مَا عَقَلَ . وادَّعَى الإِجْمَاعَ .

ورُوِىَ : أنَّهُ عَلَيْه السَّلاَمُ قَالَ : « إذَا أَحْسَنَ العَبْدُ الوُضُوءَ وَصَلَّى الصَّلاَةَ لوَقْتِهَا وحَافَظ عَلَى رُكُوعِهَا وسُجودهَا وَمَوَاقِيتِها قَالَتْ : حَفِظَكَ اللَّهُ كَمَا حَافَظْتَ عَلَيَّ ، وشَفَعَتْ لصَاحِبِها ، وإذَا أَضَاعَهَا قَالَتْ : أَضَاعَكَ اللَّهُ كَمَا ضَيَّعْتَنِى ، وتُلَفُّ كَمَا يُلَفُّ الثَّوْبُ الخَلَقَ فَيُضربُ بِهَا وَجهُ صَاحِبِهَا .

قوله تعالى : **﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللَّهَ فَعَسَىٰ أُوْلَئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾** [التوبه : ١٨] .

اعلم أن

العمَارَة	ضِدُّهَا	الخَرَابُ .
الإِيمانُ	ضِدُّهَا	الكُفْر .
وإِقَامَ الصَّلاة	ضِدُّهَ	تَضْيِيعُهَا
وإِيتَاءُ الزَّكَاةِ	ضِدُّهَا	إِنْكَارُها
الخَشْيَةُ	ضِدُّهَا	الفُجُورُ
الهِدَايَةُ	ضِدُّهَا	الضَّلالُ

وعمَارَةُ المَسَاجد : صنفان

الأَوَّلُ : لُزُومُهَا وكَثْرَةَ إِتْيَانِهَا وإِعْمَارهَا بإِقَامَة الصَّلاة فيهَا على الوَجْه المُتَقَدم.

الثَّانى : وهِيَ العمَارَةُ من الإنْشَاء والبنَاء والارْتِفاع المُمَيّز لَهَا مِنْ غَيْر زَخْرَفَة الحَرَمْ والعمارَةُ بهذَا المَعْنَى أَوْ ذَاكَ وَاجبةٌ لمَسَاجِد اللَّه عَلَى المُؤْمنينَ كَقراءَة الجُمْهُور أَوْ إن كَانَ مَسْجِدَ الله كَمَا قَرَأَ ابنْ كَثِير وابنَ عُمرَ ، ووُجُوبُ عمارَتِها قَصْرًا عَلَى المُؤْمنين مِنْ دُون غَيْرِهِمْ كَقَوْلِه تَعَالَى : **﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ﴾** [التوبة:١٧] .

فالمَسْجدُ : هُو المَوْضِعُ الَّذى يُعْبَدُ اللَّهَ تَعَالى فِيه أوَ كَانَ لغَيرِ المُؤْمنينَ أَنْ يَعْمُرُوهُ

سَوَاءٌ ببنَاءِه أوْ بلزُومه وكَثْرة إتْيَانه .

فَمَن فَعَل البنَاءَ وَجَاءَ بكَثْرَة الإتْيَان صَحَّ أنْ يكُونَ مُؤْمنًا باللَّه وَاليَوْمِ الآخرِ ، فالاشْتغَالُ بالعبَادَة يُفيدُ يوْمَ القيَامَة ، وَمَنْ أنْكرَ القيَامة لَمْ يَعْبُدْ اللَّهَ وَجَاءَ يَوْم القيَامَة كَمَا قَالَ تَعَالَى ﴿ فَلا نُقيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴾ [الكهف : ١٠٥] .

﴿ وَإِقَامِ الصَلاةَ ﴾ : لأنَّ بنَاءَ المَسَاجِد لإقَامَة الصَّلاة .

﴿ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ﴾ : إذ إنَّ المسْجدَ يأتيه الفُقَرَاءُ والمساكينُ وَطالبوُا الحَاجَةَ فَيَقَع إتْيَانَ الزكَاة عَلَى مُستَحقيِّهَا ، والصَّدقَات عَلى الفُقَراء والمَسَاكين . فَتكُونُ الألْفَةُ والمَحبَّةُ ويَلْتقِي الجَميعُ فِي حُبِ اللَّه فِي بَيْتِ اللَّهِ الذَّى بَاتَ عَامرًا بِفَضْلِ اللَّه عَلَى عبَاده المُؤْمنين .

﴿ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللَّهَ ﴾ : وفيه تَنْبيهٌ عَلَى أنّ بُيُوتَ اللَّه يَجبُ أن تُصَانَ عَنْ غَير العبَادَة وان لاَ يَتطرَّقْ عُمَّارَ المسَاجد إلَى الحَديث عَن مَتَاع الدُّنيا وزينتها . لمَا رُوىَ عَن الرَّسُول ﷺ أنَّهُ قَالَ : (يَأتِى فِي آخرِ الزَّمَان انَاسىٌّ من أمتى يَأتُونَ المَسَاجدَ يَقْعُدُون فيهَا حَلَقًا ذكْرُهُم الدنْيا، وحُبُّ الدُّنْيَا ، لاَ تُجَالسُوهُمْ فَلَيْسَ للَّه بِهم حَاجَةٌ)

وعَنْهُ ﷺ :« الحديثُ فِي المسْجِد يَأكُلُ الحَسَنَاتُ كَمَا تَأكُلُ البَهيمَةُ الحَشيشَ ».

ومن طريق آخر : « الكَلاَمْ فِي المسْجد يَأكُلُ الحَسَنَات كَمَا تَأكُلُ النَّارُ الحطَبُ » .

وعنه ﷺ : « مَنْ ألفَ المَسْجدَ ألَفَهُ اللَّهُ تَعَالى » .

وعنه ﷺ : « إذَا رَأيْتُم الرَجُلَ يَتَعاهَدُ أوْ قَالَ (يَعْتَادُ) المَسْجدَ فَاشْهَدُوا لَهُ بالإيمَان» .

وعنه ﷺ : « مَنْ أسْرَجَ فِي مَسْجدِ سرَاجًا لَمْ تَزَلْ المَلائكَةُ وَحَملةُ العَرْشِ يَسْتَغْفرُون لَهُ مَادَامَ فِي المسْجد ضَوءُهُ » .

قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴾ .

عَسَى : منَ اللَّه تَعَالى لاَ تُفيدُ التَّرَجى . بلْ تَحقيقًا لأنَّها منَ اللَّه وَاجبٌ ، وَإنَّ رُدَّتْ إلى العبَادِ فَهِى للتَرَجىِّ . عَلَى رَجَاءِ وَأملِ الفَوْزِ بَأن يكُونُوا منَ المُهْتَدين .

رابعا : الجهاد

اعلم أنَّ الجهَادَ مقرونةٌ به الهجرَة . كَمَا قُرِنَت بالصَّلاة الزَّكَاةُ ، ويَحتَلُّ الجهَادُ مكَانَةً عاليةً ، ويَتَبوأُ مَركَزَ الصَّدَارِ فِي تَحْدِيدِ مَلامحِ سَبيلِ الفَوْزِ العَظِيم مِنْ أَمْثلَة «الاستِقَامَة والاستِعَانة » .

قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ [الأنفال : ٧٤] .

قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾ : سَبَقَ القَولَ عندَ غَيْرِ وَاحدَة .

﴿ وَهَاجَرُوا ﴾ : أَيْ أَنَّهُم فِي سَبِيلِ اللَّه فَارقُوا الأوْطَانَ ، وتَرَكُوا الأقَارِبَ والجيرَانَ وَأجْبَرُوا عَلَى مُفَارَقَة كُلِّ عَزِيزٍ طَلَبًا لمَرضَاة اللَّه تعالى .

﴿ وجَاهَدُوا بأموالهِم وأنفسهِم فى سَبِيل اللَّه ﴾ : نَظيرَ مَا جَاءَ فى حَادثَة أَبى بكرٍ الصّدّيق قُبَيل مُصَاحبَته لرَسُول الله ﷺ فِي هجْرَته مِنْ مَكَّةَ إِلَى المَدينَة ـ حَيْثُ قَصَدَ أَبُو بكرٍ بَيْتَهُ وَجَاءَ بِكُلِّ مَا فيه ولَمْ يَدَعْ لأهْلِ بَيْته شَيْئًا وكَانَ أَبُو بكرٍ [صَاحب تجارَة ومَالٍ وَفير] فَلَمَّا جَاءَ إلى الرَّسُولِ ﷺ وَرَأى مَا مَعَ أَبى بكر قَالَ لَهُ : يَا أَبَا بكر مَاذَا تَرَكْتَ لأهْلكَ ؟ قَالَ أَبُو بكر : [تَرَكْتُ لَهُمُ اللَّهَ ورَسُولَه] .

وفى هَذه القصة نَمُوذَجٌ يُحتَذَى للجهاد بالْمال والنَّفْس . وَهُنَاكَ مَن هاجَرَ وتَرَكَ مَزَارِعَهُ ومَسَاكنَهُ وَضيَاعَهُ وَاستَولَى عَلَيْهَا الأَعْدَاءُ وَهُنَاكَ أيْضًا مَنْ فَعَلَ مثْلَ مَا فَعَلَ أَبُو بكرٍ وأَنْفَقُوا أَمْوالَهُم عَلَى الفُتُوحَات والْغَزَوات نَصرًا لدين اللَّه ونَشْرًا لَهُ .

وأمَّا الْمُجَاهَدَةُ بالنَّفْسِ : حَيْثُ يَكُونُ الإِقْدَامُ بجَسَارَة وَشَجَاعَة عَلَى الْمحاربَة منْ غَيرِ عدَّة أوْعَتَاد أَوْ استعْدَاد ـ كَمَا كَانَ فِي يَوْمِ بَدْرٍ عِنْدَمَا أَزَالَ المؤمنُونَ ـ اطْمَاعَهم عَن الحياة الدُّنْيا ، وبَذَلُوا أَنْفُسَهُمْ فى سبيل الله ، وقَاتَلُوا الأعداءَ ـ الْمَوْصُوفوينَ بالكَثْرة والشدَّة ومَا هُو كَائنٌ الآن عَلَى أرضِ فلسْطين العَرَبِيَّة الْمُغْتَصبَة . حَيْثُ يَخْرُجُ الفدَائيُّون الفلسْطَينيُّون (١) لاَ يَمْلكُونَ إلا أَرْوَاحَهُم يُقَدمُونَها في سَبيلِ اللَّه والوَطَنِ وَهُم يُواجهونَ الدبَّابَةَ بالحَجر والطَّائرَةَ بالنَّبْلَة ويُدافعُون عَن عَدَالَة قَضيَّتهم بصُدُورهم أَمَامَ مَدَافع الغَدرِ الإسْرائيليَّة التى تَدْمُر كُلَّ شَيءٍ وتَقْضى عَلَى الأخْضَرِ واليَابس ، وذَلكَ

(١) من الأمثلة كذلك قتال الكشميرين الباكستانيين المسلمين ضد الهندوس الهنود عبدة الإله المزعوم[رام] وقتال الشيشانيين ضد الروسية اللادينية الشيوعية .

يُزيدُ الفلسطينينَ إيمَانًا عَلَى إيمَانهم بحَيْثُ يُقْدمُونَ عَلَى التَّضْحيَة بالغَالي والرَّخيص وترَكَ الأَمْوَالَ والأَوْلاَدَ والأَهْلَ ، ومتَاعَ الدُّنيَا كُلَّهُ تَلبيَةً لندَاء الجهَاد : ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج : ٤٠] .

* * * * *

وقَالَ تَعَالَى : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ⑳ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ㉑ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [التوبة : ٢٠ : ٢٢] .

وَفيه وَصفٌ بالجَلاَلَة والرِّفْعَة للذّينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا في سَبيلِ اللَّه بأمْوَالَهم وأنفُسَهُم . وَفيه كَذَلكَ البُشْرَى بكُلِ مَا اشتَمَلتْ عَلَيْه الدَّرَجات العَالية والمقَامَات المحمُودَة . . . الأَسْمَى فَالأَسْمَى ، والأَشْرفُ فَالأَشْرَفُ .

قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [العنكبوت : ٦٩] .

وَفيه تقْريرٌ عَلَى الجهَاد بالطَّاعَات وتَأكيد التَّكْليفَات .

حَيْثُ لَمْ تُلهِهِمْ أَمْوالُهم وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ عن ذكْر اللَّه وإقَام الصَّلاة وإيتَاء الزَّكَاة وَجاَهدُوا النَّفْسَ وَالهَوَى وَالدُّنْيَا والشَّيْطَانَ وَعبدُوا اللَّهَ حَقَّ عبَادَته حَتَّى أَتَاهُم اليَقينُ . وَلَمْ يَقْعدْ الشَّيْطَانُ لَهُم صرَاطَ اللَّه المُستَقيم - وآثَرُوا النَّاسَ عَلَى أَنْفُسهم وَلَوْ كَانُوا بهم خَصَاصَةٌ والتَمَسُوا طَرِيقَ الكَرَم وقَايَةً من الشُّحِّ وَلَمْ يَلْمزُوا في الصَّدَقَات ، وَآتُوا المَالَ ، وأَطْعَمُوا الطَّعَامَ ، وأَفْشُوا السَّلاَمَ ، وَصلُّوا باللَّيْلِ وَالنّاسِ نيامٌ ، وَلَمْ يَغْتَرُّوا بالدُّنْيَا - وسَلمَ النَّاسُ من أَلْسنَتهم، وصَدَّقَتْ قُلُوبهُم عَلَى أَقْوالهم فَجَاءَت أَعْمَالَهُم خَالصَةً للَّه وَحدَه دُونَ إشْراك به - حُنَفَاء للَّه غَيْر مُشْركينَ به - وجَهدُوا في اللَّه واعْتَصَمُوا به . إنَّهُم المُجاهدُونَ الَّذينَ جَاهَدُوا في اللَّه واتَّبَعُوا سَبيلَهُ بالالْتزَام بحَمْلَة الطَّاعَات والانْتهَاء عَن المنهيَّات - وَقَدْ تَأكَّدَ لَهُم سُبُلَ النَّجاة والفَوْز العَظيم - كَمَا قَالَ تَعَالى ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت : ٦٩] بتَيْسير مَشَاق التَّكَاليف والعبَادَات وَتَذْليلِ مَا يعُوقُ حَيَاتَهُم من صعُوبَات ، ثُمَّ في الآخرَة يُنْجز اللَّهُ وَعْدَهُ بأحسَنِ الجَزَاء بتَأكيد مَعيَّته لَهُمْ ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ إشَارَةً إلى المَعيَّة والقُرْبَى نَظير قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ [النحل : ١٢٨].

* * * * *

قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء : ١٠٠] .

الرَّغْم : الرغَامُ : التُّرَابُ - ويُقَالُ أَلْقَاهُ فِي الرَّغَامِ : أَذَلَّهُ وأَهَانَهُ - ويُقَالُ فَعَلَهُ عَلَى رَغْمِه وعَلَى الرَّغْمِ منْهُ ، وعَلَى رَغْم أنْفِه ، - ورَغْمًا عَنْهُ أيّ : عَلَى كُرْه منْهُ .

المرَاغَمْ : المَلْجَأ وَالمتَّسَع (١) .

فَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّه من بَلَدَ إِلَى آخَرَ - كَأَنْ يكُونَ فِي طَلَبِ الرزق أَوْ البَحْثِ عَنْ عَمَلٍ يكُفُّهُ عَنِ المَسْأَلة أَوْ يُوفرُ لَهُ الحَيَاة الكَرِيمَة إِذَا مَا ضَاقَتْ الأَرْزَاقُ فِي الأَوْطَانِ - أَو نَجَاة بدينه منْ جُورِ السُّلْطَان كَمَا قَال تَعَالى : ﴿ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا ﴾ [النساء : ٩٧] . أَوْ أَنْ تَكُونَ الهِجْرَةُ لِمُلاَقَاة الأَعْدَاء عنْدَ دُول الجُوَارِ للْحَيْلُولَة دُون وصُولهم إِلَى الوَطَنِ - أَوْ فِي هِجْرَة الوَطَنِ إِلَى مَوَاطِنَ أُخرَى لِجَمْع المَعْلُومَاتِ والاسْتخْبَارَاتِ عَن الدُّوَل التَّي يُمْكن أن تُهدِّدَ سَلاَمَةَ الدينِ وَالوَطَنِ .

فَمَن خَرَجَ مُجَاهِدًا عَلَى نَحْو مَا سَبَق سَيَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ مِن أَمْرِهِ يُسْرًا ، وسَيَجِدُ فِي الأَرْضِ مُرَاغَمًا [مَلْجأ وَمُعَاذًا ومُتَّسَعًا] كَثِيرًا وسَعَةً .

حَتَّى مَنْ خَرَجَ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّه وَرَسُوله وَمَاتَ من قَرِيب - قَبْلَ إِنْجَاز قَصْده وتَحقيق مَأْرَبِه فَقَدْ وَقَعَ [وَجَبَ] أَجْرُهُ عَلَى اللَّه . وَهُوَ المَنْفَعَةُ المستحقَّةُ والمتكَافئةُ اللاَّزِمَةُ .

﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ : أَيْ يغْفِرُ مَا كَانَ مِنَ القُعُود قَبْلَ الهجْرَة ، وَيَرْحَمُ بإتمَام الأَجْرِ الكَامِلِ : ﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ۝٥٨ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلاً يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴾ [الحج: ٥٨ / ٥٩] ، وَفِي الآيَة الكَرِيمة : اسمٌ مَوْصُولٌ [الَّذِينَ] لتَعْرِيف اسْم [نكرَة] - هَاجَرُوا - سَوَاءٌ بالهجْرة إلى الحَبَشَة أَوْ إلى يَثْرِبَ وَمَن هَجَرَ دينَ آبَائه وأجْدَاده وَظَلّ فِي مَكَّةَ ولَم يُهاجِر ويَمتَّدَ الجِهَادُ وَتَمتَدَ الهِجْرةُ حَتَى يَطُولاَ كُلّ مَنْ هَجَرَ سُلُوكَ

(١) المعجم الوجيز باب رَغَمَ ص ٢٦٩ .

المُجْتَمعَ الضَارّ ، واعْتَصَم بِحَبْلِ اللَّه حَتَّى يَعُضَّ عَلَى جِزْعِ شَجَرَةٍ حِينَ يَفْسَدُ النَّاسُ.

هَؤُلاَءِ الذِّينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّه ثُمَّ قُتِلوا عِنْد لِقَاءِ الأَعْداء أَوْ فِي البَحْثِ عَن الرِزْقِ - أَوْ عَلَى أَيْ وَجْهٍ مِنَ الوُجُوه السَّالفَة الذكْرِ - أَوْ مَاتَ مِن غَيرِ قَتْلٍ وَهُو فِي سَبِيلِ اللَّه فَكَان كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ ﴾ [النساء : ١٠٠] .

وَالأَجْرُ هَهُنَا : هُوَ وَعدٌ مُؤَكَّدٌ بِلاَمِ التَّوْكِيد ﴿ لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴾ فَرِزْقُهُمُ الحَسَنُ فِي الدُّنْيَا هُو الغَنِيمَةُ الحَلاَلُ ، وَفِي الآخرة نَعِيمٌ مُقِيمٌ .

﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِين ﴾ : لأَنَّهُ تَعَالَى يَرْزُقَهُم مِن لَّدُنْه رِزْقًا حَسَنًا عَلَى النَّحْوِ المُتَقدم ثُمَّ يَنْعِمُ عَلَيْهِم مِن فَضْلِه بِتَأْكِيدِ وَعْده ﴿ لَيُدْخِلَنَّهم مُدْخَلاً ﴾ .

فَإِنْ قُرِئَ : مَدْخَلاً بِفَتْحِ المِيم فَإِنَّهُ المَوْضعِ والمَقَامِ .

﴿ يَرْضَوْنَهُ ﴾ : فَالمُرادُ لاَ يَبْغُونَ عَنْهُ حولاً لأنهُم كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فِي عِيشَةٍ رَاضِيةٍ﴾ هَانِئَةٍ سَعِيدَةٍ مُرْضِيَةٍ دَاخِلَ مَسْكَنٍ خَاصٍ نَظِيرُ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا ﴾ [التوبة : ٢٤] .

﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيم ﴾ : أَيْ بِمَا يَسْتَحِقُّونَهَ مِنَ الفَوْزِ وَمِنْ دَرَجَاتِ التَكْرِيمِ .

﴿ حَلِيم ﴾ : فإِنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعالَى لاَ يُعَجّلُ العُقُوبَةَ لِمن قَدَم عَلَى المَعْصِيَةِ فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ يَمْهِلُ العَاصِي إِذْ قَدْ يَقَعْ مِنْهُ التَّوْبَةُ والإِيمَانُ والعَمَلُ فَيَنْسَحِبْ عَلَيْه قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿ إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيمًا ﴾ [الفرقان : ٧٠] .

وَصَدَقَ اللَّهُ العَظِمُ القَائِلُ :

﴿ انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّه ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنُتمْ تَعْلَمُون﴾ [التوبه : ٤١] .

خامسًا : الاستغفار

تَعُودُ أَهَمِيةُ الاستِغْفَارِ فِي كَوْنِه إمَّا أنْ يكُونَ سَبَبًا لإزالة الْفَقْرِ والخَرَابِ أوْ سَبَبًا للغنَى والعمَارَة . حَيْثُ إنْ مَنْ ءَامَنَ اسْتَقَامَ عَلَى طَرِيقِ اللَّه ، واسْتَعَان باللَّه عَلَى مَشَاقِّ التكَالِيفِ والطَّاعَاتِ ، وَجَاهد فِي سَبِيلِ اللَّهِ بمالِهِ وَنَفسِه ، فَمَن لَزَمَ الاسْتِغْفَارَ يكُونُ قَدْ حَازَ الخيرَ كُلَّه .

وَذَلِكَ لأنَّ الاشْتِغَالَ بالطَّاعَاتِ وَتَنْفِيذِ التكْلِيفَاتِ واجْتِنَابِ النَّواهِي والانْتِهَاءِ عن المَنهيَّات سببٌ لانفتَاحِ كُلِ أَبْوابِ المَنَافِعِ والخيرَاتِ .

رُوِيَ عَنِ الحَسَنِ : أنَّ رَجُلاً شكَا إِلَيْه الجَدَبَ ،فَقَالَ استَغفِر اللَّه ،وشكَى إليْه آخرَ الفَقْرَ وآخر قِلَّةَ النَّسْلِ وآخرَ قِلةَ رِيعِ أرْضِه فَأمَرَهُم كُلَهُم بالاستغْفَارِ ، فَقَالَ لَهُ بَعْضُ القَوْمِ أتَاكَ رِجَالٌ يَشْكُون إِلَيْكَ أَنواعًا مِنَ الحَاجَة . فأمَرتَهُم كُلَّهُم بالاستغفارِ فَتَلاَ الآيَةَ ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ⑩ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ⑪ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا﴾ [نوح : ١٠:١٢] .

يُضَارِعُ هَذِه الآيَة قَوْلَهُ تَعَالَى ﴿ وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا ﴾ [الجن : ١٦] وقَوْلُهُ ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ② وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ [الطلاق : ٢ ، ٣].

اعلم أنَّ اللَّهَ تَعَالَى نَبَّأنَا فِي القُرْآنِ الْكَرِيم عَن إحْسَانِه الْكَبِيرِ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ ، وَمِنْ كَمَالِ إحْسَانه وإتْمَامِ فَضْلِه أنْ كَانَت مَغْفِرَةُ اللَّه تَعَالَى عَلَى صُورٍ ثلاث . تَضَعُ مَغْفِرةَ اللَّهُ مُقَابلةً لظُلْم الإنْسان .

أوَّلُها : أنَّ اللَّهَ تَعَالَى غَافِرٌ فِيَ مُقَابَلَة لقَوله : ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ ﴾ [فاطر:٣٢] .

ثانيها : أنَّ اللَّه تَعَالَى غفَّارٌ فِي مُقَابَلَة لقَوْله : ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ﴾ [فصلت:٤٦]

ثالثها : أنَّ اللَّهَ تَعَالَى غفورٌ فِي مُقَابَلَة لقَوْله :﴿ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا ﴾[الأحزاب:٧٢]

فَمِن رَحْمَته تَعَالَى أنَّهُ كان غَافِرٌ للظَّالِم وَغَفَّارٌ للظَّلاَّم وَغَفُورٌ للظَلُومِ.

مِمَّا سَبَقَ يَتَّضِح أنَّ التِزَامَ الاسْتِغْفَارِ وَاجِبٌ وَإهمالُهُ إعْراضٌ .

وَعَلَيْه فَإِنَّ رَأْسَ الْمَغْفِرَةِ الاسْتِغْفَار . فَمَنْ سَقَطَ فِي بَحْرِ الذُّنُوب وَغَابَ فِي أَدْغَالِ الْمَعَاصِي وَغَاصَ فِي ظُلُمات الجَهَالاَت وَالضَلاَلاَت وَجَبَ عَلَيْه القُنُوتُ وَعَدَمَ القُنُوطِ من رَحْمَةِ اللَّه لِقَوْلِه تَعَالَى ﴿ **قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا** ﴾ [الزمر : ٥٣] عَلَى الرَّغْم مِنَ دَرَجَات الذُّنُوب وحَجْمِ المَعَاصِي لأَنَّ اللَّه تَعَالَى جَعَل من مَغْفِرَتِه دَرَجَات تَتَنَوَّعُ بِتَنَوُّعِ الذُّنُوب .

واقْرأ إنّ شِئْتَ قَوْلَهُ تَعَالَى : ﴿ **وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ** ﴾ [آل عمران : ١٣٥] .

فيهِ مُلاَزَمة الاسْتِغْفَار تَغْفِرُ الفَوَاحِشَ وَظُلْم النَّفْس ، والفَوَاحِش : الكَبَائِر وظُلْم النَّفسِ : الصَّغَائِر ، وهم عَلِمُوا بِالْمَنهجِ الصَّحِيح فَعَمِلواْ إِلَى السَّعْي لحِيَازَة مَغْفِرَة اللَّه وَالفوزِ بهَا . قَالَ تَعَالَى : ﴿ **الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ**﴾ [النجم : ٣٢] ، وَفيه جَاءَ مَنْفِيًا عَنْهُم إِصْرَارَهُم عَلَى المَعْصِيَة واتِّخاذهمُ سَبِيلَ التَّوْبَة نَحْوَ طَرِيق اللَّه - كَمَا قَالَ تَعَالَى ﴿ **وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُون** ﴾

وَفِيه أَنَّ الاسْتِغْفَارَ لاَ يَصِحُّ إِلا عَمَّا يَقَع عَن جَهَالَة مِنْ غَيْرِ عِلم لِمَا فَعَلَ مِنْ فَحِشَة أو اقْتِراف من ظُلْم نَفْسٍ . كَذَلِكَ فيه أَنَّ التَّوْبَةَ حَقٌّ عَلَى اللَّه أَن يَرْزُقَها التَّائبينَ مِن قَرِيب فَوْرَ عِلْمِهِم بِجُرْمِ مَا ارْتَكَبُوا مِنَ الذُّنُوب والآثَام وَالفَوَاحِشَ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ **إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ**﴾ [النساء : ١٧] .

صك الاستغفار

قال تعالى : ﴿**وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ**﴾ [الأنفال : ٣٣] .

يُؤَكِّدُ المَعْنَى عَلَى أَنَّ عَذَابَ الاسْتِئْصَال بِالْكُلِية لاَ يَكُونَ مَعَ وجُودِ الرَّسُول ﷺ وَحَضْرَتِه بَيْنَ فِئَات الشِّرْك والْكُفْرِ وَالنِّفَاق .

إِذْ إن عَادَة اللَّه تَعَالَى قَدْ جَرَتَ عَلَى إِهلاَك القُرَى الظَّالمة بَعْدَ خُرُوجِ رُسُلِ اللَّه تَعَالَى إِلَيْهِم كَمَا كَانَ فِي حَقِّ [هُود - وصَالِح - ولوط] ومِنْهُ يُسْتَدَلُّ عَلَى أَنَّ وُجودَ الرَّسُولِ ﷺ بَيْنَ هَؤلاءِ كَانَ مَانِعًا لِنُزُولِ سَخَط اللَّه وَعَذَابِه .

قَالَ ابنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما : كانَ فِيهِمَ أَمَانَان نَبِيُّ اللَّه (١) والاستغْفَارُ أَمَّا النَّبِيّ ﷺ فَقَدْ مَضَى وأَمَّا الإِستغْفَارَ فَهُو بَاقٍ إِلَى يَوْمِ القِيَامة (٢) .

وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيعَذبَ الْمُسْتَغْفِرينَ .

فالاستغْفَارُ كَمَا قَالَ أَهْلُ المَعَانِىَ : أَمَانٌ وَسَلاَمَةٌ منَ العَذَاب .

وَهُو عنْدنا أَحَدَ الدالاَّت عَلَى صدْقِ الإِيمَان كَحكَايَة القُرْآن الكَرِيمِ فيهِم عنْدَ قَوْله تَعَالَى : ﴿ الَّذينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٦﴾ الصَّابِرِينَ وَالصَّادقينَ وَالْقَانتينَ وَالْمُنفقينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بالأَسْحَارِ ﴾ [آل عمران : ١٦ ، ١٧] ، وقوله تعالى : ﴿ وأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْه يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَه ﴾ [هود : ٣] ، قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَبالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الذاريات : ١٨] ، هَو مَا يُفَسِّرُهُ قوله تَعَالى : ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ [السجدة : ١٦] .

أَىْ أَنَّهُم المُجْتَهدُونَ المُتَهجدُّونَ المُجدُّونَ المُجيدُونَ فِى ذكْرِ اللَّه والاشْتغَال بِطَاعَته . فإِنَّهُمْ يَسْتَغْفِرونَ اللَّهَ اسْتغْفَارًا مُقْترنًا بالاَسْحَارِ مُتصلاً بِهَا عَنِ التَّقْصِيرِ الَّذى يَكُونُ منْهُم وَمَا قَدْ يكُون منَ السَّهْوِ وَالْغَفْلَة الَّتِي يَقَعُون فِيهَا مِنَ غَيْرِ قَصْدٍ . عَنْ طَرِيق طَلَب المَغْفرَة .

وَعَلَيْه يَصحُّ أَنْ يكَوْنَ الاستغفَارُ سُلُوكَ العَارِفينَ بِاللَّه ـ المؤْمنينَ به ـ الْمُشْتَغلين بذكْرِه بقَصْد نَيْلِ مَغْفرة اللَّه تَعَالَى عَمَّا حَصَلَ منْهُم أَوْ صَدَرَ عَنْهُمْ وَإِنْ كَانَ منَ الصَّغَائِرِ التَّى يَشْتَمِلُ عَلَيْهَا حَدِيثُ النَّفْسِ ـ كَمَا حكَىَ القُرْآنَ الكَرِيمُ فِي أَمْرِ الجَمَاعَة التَّى هَمَّتْ بقَتْلِ نَبِىِّ اللَّه (دَاوُدَ) عَلَيْه السَّلاَمُ ـ أَن تَسَوَّرُوا المحْرَابَ وَدَخَلُوا عَلَيْه فِي خَلْوته فِي يَوْمه الَّذى يخْلُو بنَفْسه لِيَشْتَغلَ بطاعَة اللَّه .

رُوِىَ : أَنَّهُم كُلَّمَا دَخَلُوا عَلَيْه وَجدُوا عِنْدَهُ أَقْواما يَمْنَعُونَهُم منْ قَتْله . فَخَافُوا وَقَالُوا بِالْكَذب كَمَا قَالَ القُرْآنُ الكَرِيمُ عَنْهُمْ : ﴿ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ ﴾ [ص : ٢٢] .

وَلسَابق علمْ دَاوُدَ بِنِيَّتِهِمْ وَمَقْصدهم ، دَعَاهُ غَضَبُهُ إِلَى الاشْتغَالِ بالانْتقَامِ منْهُم ـ

(١) راجع ص٤١ ، ص٣٥١ من كتاب الأحاديث القدسية الصحيحة وشروحها .

(٢) مفاتيح الغيب جـ٧ ص٤٨٩ .

ثُمَّ استَرجَعَ أَنَّهُ فِي يَوْمِ عِبَادَتِهِ فَمَالَ إِلى الصَّفْحِ وَالعَفْوِ وَالتَّجَاوُزِ عَنْهُمْ طَلَبًا لِمَرْضَاةِ اللَّهِ تَعَالَى :

﴿ **فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ** ﴾ [أَخذًا بِالسَّبَبِ] ، وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ . هَمَّ فَفَعَل فَغَفَرَ اللَّهُ لَهُ مَا كَانَ مِنْهُ وَوَعَدهُ مَا قَالَ تَعَالَى فِيهِ .

﴿ **فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ** ﴾ [ص : ٢٥] .

فَمَنْ لاَزَمَ الاسْتِغْفَارَ حَازَ الخَيْرَ كُلَّهُ : ﴿ **وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا** ﴾ [النساء : ١٠٦] .

الباب الخامس
الطريقُ إلى الفوزِ
أولاً : الصدقُ

قَالَ تَعَالَى : ﴿ قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [المائدة :١١٩] .

وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١] .

فى الآية الثَّانية تَجدُ الأمْرَ بتقْوَى اللَّه تَعَالَى وَالإرْشَاد إِلَى مَا يَنْبَغى أَنْ يكُونَ مِنَ العبَادِ من أفْعَال الخَيْر وقَوْلِ الحَقِّ لأنَّ مَنْ أتَى بالخَيْر تَرَكَ الشَّرَّ ، وَمَن قَالَ الصَّدْقَ فَقَدْ فَازَ بوعْد اللَّه بالصَّلاَح وَالمَغْفرَة .

الأوَّل : أنْ يصْلحَ اللَّهُ الأعْمَالَ ويرْفَعَهَا ويُبْقِيهَا ويُنَمِّيهَا ﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠].

الثانى : مَغْفرةُ الذُّنُوبِ عَلَى الصدْق .

ومَنْ جَانَبَ الطَّاعَةَ خَسرَ الدُّنْيَا والآخرَة ﴿ أَلا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴾ [الزمر: ١٥] .

ومَنْ وَافَقَ طَاعَةَ اللَّه وَرَسُوله فَقَدْ نَجَا من عَذَابٍ عَظيم وَوَصَلَ إِلَى ثَوَابٍ كَثِيرٍ دَائمٍ أَبَدِى غَيْرَ مُنْقَطعٍ .

قَالَ تَعَالَى : ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ ﴾ [الأحزاب : ٢٣] .

وقَال تَعَالَى : ﴿ لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٢٤] .

فيه الإشَارَةُ إِلَى وَفَاء المُؤْمنينَ بمَا عَاهَدُوا عَلَيْه رَسُولَ اللَّه ﷺ أن لاَ يُفَارقُوهُ فى القتَال حَتَّى النَّصْر أَوْ الشَّهَادَة فَمنْهُم مَنْ قَاتَلَ حَتَّى قُتلَ وَوَفَى نَحْبَهُ (نَذْرَه) وَمنْهُم مَنْ هُوَ بَعْدُ فِي سَاحَة القتَالِ يُقَاتل مُنْتَظرًا الشَّهَادَة ، رَجَاءً للصدْق الذَّى وُعدُوه والقَوْل

الذّى عهدُوه .

وَمَا بَدَّلَ هَوُلاَء تَبْديلاً كَمَا كَانَ مِنَ الْمُنَفقِينَ الذِّينَ بَدَّلُوا أقْوَالَهُمْ وَوَلُّوا أدْبَارَهُمْ .

﴿ ليَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادقِينَ بِصدْقِهِم ﴾ : جَزَاءً مَوْفُوراً بِصدْق مَا وَعَدَهُمْ بِه في الدُّنْيَا وَالآخرَة ؛ كَمَا صَدَقُوا وَوَفُوا بمَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْه حَتّى نَالوا النَّصْرَ أَو الشَّهَادَة .

اعْلَمْ أَنَّ الصّدْقَ في الدُّنْيَا سَبِيلٌ إِلَى الفَلاَحِ وَفِي الآخرة صِراطٌ إلى الجنّة .

فالصّدْقُ : ضِدُّهُ الْكَذِبْ .

فَمَن أَرَادَ النَّجاَةَ: سَعَى لَهَا بلزُومِ الصّدْق واجْتنَاب الْكَذب .

وَمَنْ أرَادَ الجَنَّةَ عَمِلَ لَهَا وَمَنْ خَافَ النَّارَ اتَّقَاهَا ـ وَمَنْ أَتَى الخَيْرَ اجْتَنَبَ الشَّر .

قَالَ تَعالَى : ﴿ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ﴾ [الأحزاب: ٢٢] .

فَكُلُّ مَا جَاءَ مِنَ اللَّه صِدْقٌ وَكُلُّ مَا قَال بِه النّبِيُّ ﷺ صدق . وقد امتدح القرآن الكريم أهلَ الصدق ووعدهم كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿وَعْدَ الصّدْقِ الّذي كَانُوا يُوعَدُون ﴾ [الأحقاف : ١٦] .

والصّدْقُ : لِسَانُ الشُّجْعَان وَمِنْ ثَمَّ فَإنَّهُ لِسَان الْمُؤمنِينَ أَمَّا الكَذب : فإنَّهُ دَاءُ الْجُبَنَاءُ الْمُنَافقينَ الذِّينَ لَمْ يَدْخُلِ الإيمَانُ في قُلُوبِهِم وكَانُوا قَوْمًا بُورًا . هَذَا وَقَدْ أَجْمعَ الْمُفَسرُونَ عَلَى انَّ الْمُرادَ بِقَوله تَعَالَى : ﴿ يَوْمَ الصدْق ﴾ يَوْمُ القيامَة . ،الْمَعْنَى أنَّ صدْقَهُمْ في الدُّنْيَا يَنْفَعُهم فِي الآخرَة لأنَّ الصدقَ طَرِيقُ الإخْلاَص وَمِنْ ثَمَّ فَإِنّهُ مَنْهَجٌ لِلْخَلاَصِ مِنَ النفَاق في الدُّنْيَا . وَفي الآخرَة لَيْس النَّجاةُ منَ الْعَذَاب فَحَسْبُ بَلْ كَانَتْ لَهمْ الْبُشْرى بوَعْدِ مِنَ اللَّه بِأَنَّ لَهمُ الْمَنْفَعَةُ الخَالِصَةُ عَنِ الغَمْ والهَم عَلَى الدوَام والخُلْد الدَّائم .

ولَهُم فِيها نَعيمٌ مُقِيمٌ بِرِضَا اللَّه عَنْهُمْ ورِضَاهُمْ عَن وَعْد اللَّه بإنْجازه لَهُمْ عَلى الوَجْه الذّى يُرْضِيهمْ كَمَا قَالَ تَعَالى : ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلاً مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيم ﴾ [فصلت : ٣١ ، ٣٢] .

وتَنْكِير الرِّضَا في ﴿ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ﴾ يُفيدُ الأَسْرارَ التَّي تَحتَهُ كَمَا قَالَ تَعَالَى ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ﴾ [الضحى : ٥] وَهَذَا قَوْلُه تَعَالَى : ﴿ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [البينة: ٨] . ﴿ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِمُ ﴾ .

ثانيا : العـــدل

قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة : ٨] .

اعْلَمْ أَنَّ الحَيَاةَ لاَ تَسْتَقِيمُ بِغَيرِ العَدْلِ وَأَنَّ صَلاَحَ الدُّنْيَا لاَ يَكُوُن بِغَيرِ القِسْطِ . فَالْعَدْلُ وِقَايَةٌ وَخَلاَصٌ وَنَجَاةٌ مِنَ عَذَابِ اللَّهِ تَعَالَى وسَبِيلٌ لِلْفَوزِ العَظِيمِ والأَجْرِ الْكَرِيمِ.

لذَا فَإِنهَا الآيَةَ الكَرِيمة تَحثُّ المُؤمنِينَ عَلَى الانقِيادِ للتَّكَالِيف بِتَعْظِيمِ اللَّه تَعَالَى والشَّفَقَةَ عَلَى خَلْقِهِ . وَهُوَ خِطَابٌ لِلمُؤْمنِينَ وَتَكْليف لَهُمْ بِأَنَ يَكُوُنوا ﴿ قَوَّامِينَ لِلَّهِ﴾.

والقَوَّامُ :فَعّال أىْ : كَثِيرُ القِيَامِ شَدِيدُ الالْتِزَامِ بالحقّ كَمَا أَمَرَ اللَّهَ تَعَالَى فِي جُمْلَةِ التَّكَالِيف وَإِخْلاَصِ العِبَادَة وتَعْظِيم الرُبُوبِيَّة . أَمّا الشَّفَقَةَ عَلَى خَلْقِ اللَّه تَعَالَى فَهِيَ فِي ﴿ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾ مَهْمَا حَاوَلَ البَعْضُ مِنَ القَوْمِ بِالحَمْلِ وَالإِكْراه عَلَى أَنْ لاَ يَعْدِلُوا . أَوَ أَنْ يَجُورُوا ويَتَجاوَزُواْ حُدُودَ اللَّهِ وتَعَالِيمَهُ فِي مُمَارسَةِ العَدْلِ والإِنْصَافِ وتَرْكِ الْمَيْلِ والظُلْمِ .

ثُمَ قَالَ تَعَالَى : ﴿ اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ وَمنه الأَمْرُ بِالعَدْلِ بِتَأْكِيد القَوْلِ وتَشْدِيده لأَنَّهُ يَقَعْ بَيْنَ طَرَفِي الإفرَاطِ وَالتَّفْرِيط ـ وكَذَلِكَ بَيَانُ ذِكرُ علَّة الأَمْرِ لَهُم بِالْعَدْلِ لأَنَّهُ أَقْرَبُ إِلى الاتّقاء مِنَ عَذَاب اللَّهِ ولأَنَّهُ سُبْحَانَهُ وتَعَالَى عَالمٌ عَليمٌ بِجَمِيعِ المَعْلُومَاتِ فَلاَ يَخفَى عَلَيْهِ شَىءٌ مِن أَحْوَالِهِمّ ﴿يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه : ٧] . ﴿وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [الحديد : ٦] .

فَهُوَ سُبْحَانَهُ عَلِيمٌ بِأُولَئِكَ الَّذِينَ يَرجُونَ رحْمَته وَيخَافُونَ عَذَابَهُ فَإِنَّهُ تَعَالَى خَبِيرٌ بالعِبَادِ إِشارَةُ إِلَى البُشْرَى بِوَعْدِه الكَرِيم كَمَا قَالَ تَعَالَى ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة : ٩] .

قال تعالى : ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف : ٢٩] .

فِيهِ بَيَانٌ بِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى بِالقِسْطِ (إِرْدَافًا) عَلَى النَّفْيِ بِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ لاَ يَأْمُرُ بِفَاحِشَةٍ ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ [الأعراف : ٢٨] .

قَالَ عَطَاءُ ، والسّدِىُّ بِالقِسْطِ ﴿ بِالعَدْلِ ﴾ وبِمَا ظَهَرَ فِي العُقُولِ كَوْنِهِ حَسَنًا صَوَابًا .

وقَالَ ابنُ عَبَّاسٍ (١) ﷺ : هُوَ قَوْلُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ . والدَّلِيلُ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ [آل عمران : ١٨] وَذَلِك القِسْطُ لَيْسَ إِلاَّ شَهَادَةَ أن لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّه فَثَبَتَ أن القِسْطَ لَيْسَ إِلاَّ قَوْلُ لاَ إِلَه إِلاَّ اللَّهَ .

* * * * *

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء : ٥٨] .

الأَمَانَةُ : هِيَ مَا وَجَبَ لِغَيْرِكَ عَلَيْكَ : وَهِى اسْمُ جِنْسٍ يَنْدَرِجُ تَحْتَهُ كَثِيرٌ مِنَ الأَمَانَاتِ وَفِيهَا أَنَّ مَدَّ البَصَرِ إِلَى المحرَّمَاتِ خِيَانَةٌ لِلأَمَانَةِ لأَنَّ النَظَرَ أَمَانَةٌ : ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ﴾ [غافر:١٩] .

وَمِنْهَا كَذَلِكَ أَنَّ تَدْفَعَ مَا وَجَبَ لِلْغَيْرِ دَفْعَهُ إِلَيْهِ مِن حُقُوقِهِ المَادِيَّةِ أَوْ العَيْنِيَّةِ .

وَفِي القَوْلِ الكَرِيمِ السَّابِقِ وَجَدْتُ أَنَّ تَأْدِيَةَ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا مُقَدَّمٌ عَلَى أَمْرِ الحُكْمِ بِالعَدْلِ فَالأَمَانَةُ أَوّلاً والعَدْلُ مِنْهَا .

وأَجْمَعُوا عَلَى أَنَّ مَنْ كَانَ حَاكِمًا وَجَبَ عَلَيْهِ أَنْ يَحْكُم بِالعَدْلِ كَمَا قَالَ تَعَالَى ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ﴾ [النحل: ٩٠]، ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾ [الأعراف : ٢٩] ، ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾ [ص : ٢٦] ، ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات:٩] .

فَالعَدْلُ : حُكْمٌ مِن دُونِ جُورٍ أَوْمُحَابَاة لِقَوْلِهِ ﷺ: « لاَ يَمْنَعَنَّ رَجُلاً هَيْبَةُ النَّاسِ أَن يَقُولَ بِحَقٍّ إِذَا عَلِمَهُ » وقولـه تعالى : ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ [الأنعام : ١٥٢] .

أما الإِحْسَانِ : فَإِنَّهُ تَنْفِيذُ الحُكْمِ مِنْ دُونِ إِبْطَاءٍ أَوْ تَقَاعُسٍ وَفِي ذَلِك . قَالَ أَمِير

(١) انظر : ٤٤ جـ٧ مفاتيح الغيب .

المؤمنينَ عُمَر بنْ الخَطَّاب « ظُلْمٌ عَاجِلٌ خَيْرٌ مِنْ عَدْلِ آجِلٍ » .

وفى اللغة (١) :

القِسْطُ : العَدْلُ يُقَالُ ـ مِيزَانُ قسْط ، مَوَازين قسْط ، ومنْهُ فى القُرآن الكَريم: ﴿ وَنَضَعُ المَوَازِينَ القِسْطَ لِيَوْمِ القِيامَة ﴾ ـ والقِسْط : الحصَّةُ ، النَّصِيب وعنْدَنَا : العَدْل مِنَ القِسْطِ والقِسْطُ يَعْلُوه وَيَسْبِقُهُ لقوله تَعَالَى : ﴿ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالعَدْلِ وَأَقْسِطُوا﴾ [الحجرات: ٩]، وقولهُ تَعَالَى: ﴿ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ﴾ [المُمْتَحنَةُ: ٨].

فالقِسطُ . تَذْكيرُ المُؤمنينَ بِمَنْهَجِ اللَّه : ﴿ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الذاريات: ٥٥] وَهُوَ دَعْوَةُ غَيْرِ المسْلمينَ إِلَى اللَّه وإعْلاء رَايَة التَّوْحيد منْ دُون إكْرَاه لَهُمْ : ﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة : ٢٥٦]. ﴿لَسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ﴾ [الغاشية: ٢٢].

وَمنْهُ : أنَّ عَيْنَ القِسْط إزَالَةُ الجُور والضَّرَر وَعَدَم الإكْرَاه ، وَهُوَ مَا يُبَيِّنَهُ قَوْلُ اللَّه تَعَالَى: ﴿ لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة : ٨] .

عَلَى مَعْنَى: أنّ اللَّه تَعَالَى لاَ يَنْهَى عَن مبرة هَؤُلاء منْ غَيْرِ المُسْلمينَ الَّذينَ لَمْ يَظْهَروا العَدَاوَةَ والبَغْضَاءَ وإنَّ مَنَعَ وَلاَيتهم وأجَازَ مُوالَتَهُم ﴿ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ﴾: قَالَ ابنُ عَبَّاس ﷺ : يُرِيدُ بالصلَة وَغَيْرِها أنَّ اللَّهَ يُحبُّ المُقْسِطينَ : يُرِيدُ أهْلَ البرْ وَالتَوَاصُل(٢) .

وَجَاءَتْ ﴿ تُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ﴾ مَعْطُوفَةً عَلَى مَا قَبْلَهَا ﴿ البِرُّ ﴾ لأنَّ الَّذى تَبَرُّهُ وتَتَصدَّقُ عَلَيْه وتُقْسطُ إِلَيْه بالقَوْل وَالفعْل يَكُونُ إِلَى طَاعَتكَ أقْرَبُ وَيَمتثل لأوَامِرك لِمَا كَانَ منْكَ منْ حُسْنِ الصَّنِيع والعَمَلِ الجَمِيلِ .

فَإنْ وَقَع ذَلكَ كَانَتَ الدَّعْوَةُ إِلَى اللَّه أوْلَى وَأجْدَرُ وأعْلى مَرْدودًا وأشَدُّ نَفْعًا .

لقَوْلِه تَعَالَى : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ ﴾: وَهَذا مِنكَ هُوَ حُسْن الصَّنِيعِ .

حَتَّى يسْمَعَ كَلاَمَ اللَّه : أىّ بأنْ تَدْعُوهُ إِلَى دِينِ اللَّه وَ إِلَى سَبِيلِ رَبّكَ ﴿ بِالْحِكْمَةِ

---

(١) المعجم الوجيز : ص٥٠١ .

(٢) مفاتيح الغيب جـ١٥ ص٥٠٢ .

والمَوْعظَة الحَسَنَةِ ﴾ لأنَهُ أَقْرَبُ إِلَى الإِصغَاءِ إِلَيْكَ وَهُو أَسِيرُ مَعْرُوفِك ،وَحُسنِ صَنِيعَكَ.

﴿ ثُمَّ أَبْلغْهُ مَأْمَنْه ﴾: وَهُوَ رَأسُ القِسْطِ الَّذِى يَعْتَلِى الإحسانَ والأَمْنَ والسَّلامَةَ.

مِن هُنَا جَاءَ التَّكْلِيفُ بِبِرِّ تلكَ الفِئَة [أَن تَبروُّهُم] وَعَطَفَ عَلَى المَبَرَّةَ الأَعَمّ مِنْهَا والأَشْمَلَ مِنَ الأَمْنِ والأَنفَعَ منَ السَّلاَمة ، وَهُو الدَّعْوَةُ إلى اللَّه وَهُوَ القسْطُ **﴿وتُقْسطوا إِلَيهِم﴾ ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً ممَّن دَعَا إِلَى اللَّه وَعَمَل صالِحًا ﴾** وذَلِكَ قَوْلُهُ: **﴿ أَن تَبَرُّوهُم وتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ المُقْسطِين ﴾** .

ثالثًا : الإحسان

أَوْرَدَ الرَّازِىُّ فى كِتَابِهِ (مَفَاتِيحُ الغَيْب) عَلَى الصَّفْحَةِ التسْعِينَ ضِمْنَ الجُزْءِ التَّاسِعِ فى المَسَائِلِ التَّي تَنَاوَلَتْ قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ النّحل ـ الآيَةُ التسْعِينَ : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ** ﴾ [النحل : ٩٠] .

المسْأَلَةُ الأُولَى : رُوِىَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ : أَنَّ عُثْمَانَ بنَ مَظْعُونِ الجُمَحِى قَالَ : مَا أَسْلَمتُ أَوْلاً إِلاَّ حَيَاءً من مُحَمدٍ عَلَيهِ الصَّلاَةُ والسَّلامُ ، ولَمْ يَتَقَرَّرِ الإِسْلاَمُ فِي قَلْبِى، فَحَضَرْتُهُ ذَاتَ يَوْمٍ ، فَبَيْنَمَا هُوَ يحَدِّثُنِى إِذْ رَأَيْتُ بَصَرَهُ شَخَصَ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ خَفَضَه عَن يَمِينِه ثُمَّ عَادَ لمِثْلِ ذَلِك فَسَأَلْتُهُ فَقَالَ : (بَيْنَمَا أَنَا أَحَدثُكَ إِذَا جِبْرِيلُ نَزَلَ عَنِ يَمِينِى فَقَالَ يَا مُحَمدُ : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالعَدْلِ وَالإِحْسَانِ** ﴾ .

﴿ **الْعَدْلِ** ﴾ : شَهَادَةُ أن لاَ إِلَه إِلاَّ اللَّهَ .

﴿ **وَالإِحْسَانِ** ﴾ : القِيَامُ بالفَرَائِضِ .

﴿ **وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى** ﴾ : أَىْ صِلَةُ ذِى القُرْبَى .

﴿ **وَيَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ** ﴾ : الزِنَا .

﴿ **وَالْمُنْكَرِ** ﴾ : مَالاَ يُعْرف فِي شَرِيعَةٍ وَلاَ سُنَّةٍ .

﴿ **وَالبَغْيُ** ﴾ : الاستِطَالَةُ .

قَالَ عُثْمَان : فَوَقَعَ الإِيمَانُ فِى قَلْبِى ، فَأَتَيْتُ أَبَا طَالِب فَأَخْبَرْتُهُ فَقَالَ : يَامَعْشَرَ قُرَيْشٍ اتبعُوا ابنَ أخِى . تَرْشُدُوا وَلَئِنْ كَانَ صَادِقًا أَوْ كَاذِبًا فَإِنَّهُ مَا يَأْمُرُكُمْ إلا بِمكَارِمِ الأَخْلاَق .

فَلَمَّا رَأَى الرَّسُولَ ﷺ مِنْ عَمه اللِّينَ قَالَ : يَا عَمَّاهُ أَتَأْمُر النَّاسَ أَنْ يَتَّبِعُونِى وَتَدَعْ نَفْسَكَ وَجَهَدَ عَلَيْهِ فَأَبَى أَنْ يُسْلِمَ فَنَزَلَ قَوْل اللَّهِ تَعَالَى : ﴿ **إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْت** ﴾ [القصص: ٥٦] .

وعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِىَ اللَّهُ عَنْهُ : أَنَّ أَجْمَعَ آيَةٍ فِى القرآنِ لِخيرٍ وَرُشْدٍ هَذِهِ الآيَةُ.

وعَن قَتَادَةَ : لَيْسَ مِنْ خُلُقٍ حَسَنٍ كَانَ فِي الجَاهِلِيَّةِ يُعْمَل ويُسْتَحبُّ إِلاَّ أَمْرَ اللَّهَ تَعَالَى بِهِ فِي هَذِهِ الآية وَلَيْسَ مِنْ خُلُقٍ سَيءٍ إِلاَّ نَهَى اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ فِي هَذه الآيَةِ ـ

انتهى .

وَقَالَ ابنُ عَبَّاسٍ فى بَعْضِ الروَايَاتِ : والعَدْل شَهَادَةُ أن لاَّ إلَهَ إلاَّ اللَّه ، وَالإحْسَانُ أدَاءُ الفَرائض .

وَعَنْهُ فِي أُخرى : اَلعَدلُ : خَلْعُ الأنْدَاد ، وَالإِحْسَان أنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ وأن تُحبَّ للنَّاسِ مَا تُحبهُ لنَفْسكَ ، فَإن كَانَ مُؤمنًا أَحْبَبْتَ أن يَزْدَادَ إيمَانًا ، وَإن كَانَ كَافِرًا أَحْبَبْتَ أنْ يَصيرَ أخَاكَ فِى الإِسْلاَمِ .

وفِى ثَالثة : العَدْلُ : هُوَ التَّوْحِيدُ ، والإحْسَانُ الإخْلاصُ فيه وقَال آخَرُونَ : يَعْنى : بِالعَدْلِ فِى الأفْعَالِ ، والإحْسَانِ فِي الأقْوال ، فَلاَ تَفْعَل إلاَّ مَا هُو عَدْلٌ وَلاَ تَقُل إلاَّ مَا هُو إحْسَانٌ .

فَالْمُبَالَغَةُ فِي الطَّاعَة هِيَ رَأسُ إحْسانِ المَرئ إلَى نَفْسه عَنْ طَرِيقِ تَحْصِيلِ الخَيْرات والأفْعَال الحَسَنَة ـ لِينَالَ مِنَ اللَّه الخَيْرَ كُلَّه كَمَا قَالَ تَعَالَى **﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلا ذِلَّةٌ أُوْلَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُون ﴾** [يونس:٢٦] .

ولأنَّ الإخْلاَصَ رأسُ الإحْسَانِ صَارَ بِذَلكَ طَرِيقًا إلَى الجَنَّة ، فَالإحْسَانُ مَرْدُوفٌ عَلَى الإخْلاصِ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَه ، وَالإخْلاَصُ هُو فِى الانْتهَاءِ عَن كُلِ شِرْكَ وَلَوْ كَانَ خَفِيًا .

والمُبالَغَةُ فِي الإخْلاَصِ مَعَ بِرِ الوَالدينِ يُعْرَفُ بالإحْسَانِ إلَيْهمَا كَمَا قَالَ تعَالى : **﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾** [النساء : ٣٦] وَقَوْلُهُ : **﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾** [الأنعام : ١٥١] وقوله : **﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾** [الإسراء ٢٣] .

فالإحْسَانُ : أمْرٌ عَامٌ ومُطْلَقٌ . يَتَجَاوَزَ مُجَرَّدَ الإعَانَة بالْمَال إلى حُسْنِ اللّقاء وَعِز الْجَاه ، وَنَصْرة الأخ ظَالمًا أوْ مَظْلُومًا وَذَلكَ من صُوَرِ الإحْسَانِ بالفِعل ،ومن صُور الإحْسَان بِالقَول مَا قَال فِيه سُبْحَانَهُ وتَعَالَى : **﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾** [البقرة : ٨٣] ، وَقَوْلُهُ : **﴿ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا ﴾** [النساء : ٨٦] .

* * * * *

قوله تعالى : **﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴾** [السجدة : ٧] .

اعْلَمْ أنَّ أجْمَل وأرْوَع وأبْهَى صُوَرِ الإحْسَانِ مَا تَرَاهُ فِي سَيَلاَنِ الْمَاءِ وصَلاَبَةِ الأرْضِ وَسَلاَسَةِ الْهَوَاءِ وخَلْقِ الإبلِ ورَفْعِ السَّمَاءِ وتَنْصِيبِ الجبَالِ وتَسْطِيحِ الأرْضِ - فَانظُرْ إِلَى كُلِّ ذَلِكَ وانْظُرْ إِلَى القَمَرِ كَيْفَ قَدَّرَهُ اللهَ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالعُرْجُونِ القَدِيمِ وانْظُرْ إِلَى القَانُونِ القَائِلِ بأن : ﴿ لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [يس : ٤٠] ، ثُمَّ انظُرْ إِلَى صُورَتِكَ الَّتِى أَنْتَ عَلَيْهَا ثُمَّ انْظُرْ كَيْفَ أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْك فِى خَلقك وخُلقك وهَيْئَتِكَ ثُمَّ انْظُرْ أيُّهَا الطِّين كَيْفَ نَسِيتَ أنَّكَ مِن طِين؟ إنَّ الَّذِى أَحْسَنَ إِلَيْكَ فِى مَا تَعْلَمُ وَمَالا تَعْلَمُ امَرَكَ بالإحْسَانِ إِلَى كُلِ خَلْقِه . حَتَّىَ البِيئَةَ الَّتِى تَعِيشُ فِيهَا ان لاَ تُلَوِّثَهَا أو أنْ تُسِيءَ إِلَيْهَا . وَكَذَلِكَ أنْتَ مَأمُورٌ بالإحسَانِ عِنْدَ اصْعَبِ المَوَاقِفِ وَأَشَدِّهَا بَغْضًا حَيْثُ قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ ﴾ [البقرة: ٢٢٩] ، وَقَوْلُهُ : ﴿ وَأَحْسِنُوا ﴾ [البقرة : ١٩٥] ، ﴿ وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ ﴾ [القصص: ٧٧] ، ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف : ٩٠] ، ﴿ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف : ٥٦] .

رابعًا : الإنفاق

قَالَ تَعَالَى : ﴿ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلا أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقره : ٢٦٢] .

فِيهِ الإِنْفَاقُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْرٌ عَظِيمٌ وفِعْلٌ حَمِيدٌ يَسْتَوْجِبُ الأَجْرَ العَظِيمَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى إِذَا مَا تَرَكَ المَنَّ والأَذَى .

والمَنُّ فى اللُّغَةِ (١) :مَنَّ عَلَيهِ مَنًّا أَنْعَمَ عَلَيْهِ نِعْمَةً طَيِّبَةً : يُقَالُ : مَنَّ اللَّهُ عَلَى عِبادِهِ فَهُو المَنَّان ـ و ـ : فَخَرَ بِنِعْمَتِه حَتَّى كَدَّرَهَا ـ (امْتَنّ) عَلَى فُلاَن : ذكَره بِنِعْمَته عَلَيْهِ . والمِنَّةُ : [الإِحسانُ ، والإِنعَامُ] جَمْعُ مِنَن والأَذَى (٢) : الضَّرَرَ غَيْر الجَسِيم وَفي القُرآنِ الكَرِيمِ [لَن يَضرّوُكُم أَذَىً] الأَذِيَّةُ : الأَذَى : أَذَى فُلانًا يُؤْذِيه إِيذَاءً : أَصَابَهُ بِأَذىً .

ولَقَد نَبَّه العَلِيُّ القَدِيرُ عَلَى عَدَمِ الوقُوعِ فِي اتِّبَاعِ الإِنْفَاقِ فِى سَبِيله المَنَّ والأَذَى، وَذَلكَ لأَنَّ الغَيْرَ الذى تُعْطِيه الصَّدَقَةَ لأَجْلِ حَاجَتِهِ فَإِنَّهُ مُنْكَسِرُ القَلْب مَخزِيُّ العَيْنِ مِنْ صَاحِبِ اليَدِ العُلْيَا الَّتى تُعْطِيه وَهُوَ رَافِضٌ لَهَا فَإِذَا امتَنَّ المُتَصَّدِقُ عَلَى آخذ الصَّدَقَةَ زَادَ فِي انْكِسَارِ قَلْبِه وَوَقَّعَ عَلَيْه ضَرَرٌ نَفْسِيُ أَوَ مَعْنَوِيٌ بَعْدَ المَنْفَعَةِ الَّتى حَصُلَتَ لَهُ . وَصَارَ بَذَلكَ المُتصَدقُ مُسِيئًا والمُتَصَدقُ عَلَيْه كَمَن وَقَعَتْ عَلَيْه الإِسَاءَةُ ، وَفى ذَلكَ تَنْبِيهٌ عَلَى التَخَلِّى عَنْ هَذَا السُلُوك الذَّمِيم ـ لأَنَّ المَالَ مالُ اللَّه يُؤْتِيه مَن يَّشَاءُ واللَّهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيمِ نظير قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾ [الحديد : ٧] وقوله : ﴿وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُم﴾ [النور : ٣٣] .

وَلْيَقَرأ غَيَرُ العَامِلينَ به إن شَاءُوا قَوْلَ اللَّه تَعَالَى : ﴿ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾ [البقرة : ٢٦٣] .

* * * * * *

وقال تعالى : ﴿ وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ

---

(١) المعجم الوجيز : ص٥٩٢ . (٢) المصدر ذاته : ص١١ .

يُحبُّ الْمُحْسنين﴾ [البقره : ١٩٥] .

الإنْفَاقُ هُنَا مُرْتَبِطٌ بالجِهَاد (والقتَالْ) فَى سبيلِ اللَّه .

فالقتَالُ لاَ يكُون إلاَّ بتوافُرِ عدَّة وعتَاد وآلاَت وأدَوَات ، وَقَدْ يكُونُ الغنَى المُوسرُ عَاجزًا عَنِ القتَال لعُذْرٍ شرْعى ، وَيكُونُ القَادرَ الشُّجَاعُ الجَسُورُ فَقيرًا لاَ يَمْلكُ منْ هُنَا يكُونُ الإنْفَاقُ فى سَبيلِ اللَّه وَفى سَبيل مَرْضَاته تَعَالَى بالإحْسَنِ لمَا قَالَ تَعَالَى [وأَحْسنُوا] أىْ في الإنْفَاق دُونَ قَتَرٍ أوْ إسْراف ﴿ إنَّ اللَّهَ يُحبُّ الْمُحْسنينَ ﴾ .

ويَعْلَمْ أنَّ أطَيْبَ صُوَرِ الإنفَاق وَ أعْظَمُهَا هُوَ مَا تُنفقهُ عَلَى الوَالدَيْنِ والأقْرَبينَ . لأنَّهَمُ الأوْلَى . حَيْثُ لَوْ تَكَفَّل كُلُّ غَني بوَالدَيْه وأقَاربَهُ لَكنَا وَجَدْنَا مُسَولاً يَتَسَوَّلُ فى الطُرُقَات ـ لأنَّ هَذَا السُلُوكَ فيِ بَاطنِ الأمْرِ يُعْلن للجميع أنَّ أحْكَامَ اللَّه تَعَالَى مُعَطَّلَةٌ غَيرُ مَعْمُول بهَا .

فَالإنْفَاقُ عَلَى الوَلدَيْنِ والأقْرَبينَ وَرعَايَتهمْ وَاجبٌ شَرْعىٌّ لمَا قَالَ تَعَالَى ﴿يَسْألُونَكَ مَاذَا يُنفقُونَ قُلْ مَا أنفَقْتُم مّنْ خَيْرٍ فَللْوَالدَيْنِ وَالأَقْرَبين ﴾ [البقرة : ٢١٥] .

وقال تعالى : ﴿ وإيتَاء ذِي القُرْبَى ﴾ عَطْفًا عَلَى أوَامِرِ تَسْبقُ الإيتَاءَ وَهى العَدْلُ والإحْسانُ [النحل : ٩٠] . وفيه وجُوبُ صلَة الأرْحَامِ بالمَال فَإذَا تَعَذَّرَ فَبالْقَوْلِ الطيِّب والدُّعَاء .

رَوَى أبُو مُسْلم عَنْ أبيه أنَّ رَسُولَ اللَّه ﷺ قَالَ : « إنَّ أعْجَلَ الطَّاعَة ثَوَابًا صلَةُ الرَّحمِ ، إنَّ أهْلَ البَيْتِ ليَكُونُون فُجَارًا فَتَنْمَّى أمَوالُهُم وَيكْثُرُ عَدَدُهُمْ إذَا وَصَلُوا أرْحَامَهُم » (١) .

وعنه ﷺ أنه قَالَ : مَنْ أحَبَّ البَسْطَ في الرزْق فَلْيَصلْ رَحمَه (٢) .

هَذَا وَقَدَ نَهَى اللَّه تَعَالَى وَهُوَ العَاطى الوَهَّابُ عَنِ إيتَاء الأمْوال للسُّفَهَاء الَّذينَ يُسيئُون التَصَرُّفَ فى أمْوالهم ـ وَهُوَ مَا وَرَدَ في قَوله تَعَالَى : ﴿ وَلا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَّعْرُوفًا ﴾ [النساء : ٥] .

والإنْفَاقُ شيَمُ الصَّابرينَ ، المُؤْمنينَ لمَا قَالَ تَعَالَى :

﴿ قُل لِّعبَاديَ الَّذينَ آمَنُوا يُقيمُوا الصَّلاةَ ويُنفقُوا ممَّا رَزَقْنَاهُمْ سرًّا وَعَلانيَةً مّن قَبْلِ أن

---

(١) مفاتيح الغيب جـ٩ ص٦١٦ .

(٢) ورد فى أكثر من مصدر وعن غير واحد من الرواة .

يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خِلالٌ﴾ [إبراهيم : ٣١] .

وقوله : ﴿ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ [الرعد : ٢٢ : ٢٤] .

وإقرأ للاستزادة إن شئت من قول الله تعالى :

[الحديد : ١٨] ، [الفرقان : ٦٣ ، ٦٧] ، [الإسراء : ٢٩] ، [المنافقون: ١٠] ، [البقرة : ٢٦١] ، [البقرة : ٢٧٤] ، [الشورى : ٣٨] ، [الطلاق: ٧] ، [الليل : ٥ ، ٧] ، [التغابن : ١٦] ، [التوبه : ٦٠] .

وفِيهِ الحَدِيثُ عَنِ المُنْفِقِينَ وكَيْفِيَّةِ الإنْفَاقِ وتَصِفُ المُنْفِقِينَ وتُبَشِّرَهُم بِمَا أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مِن جَزَاءٍ كَرِيمٍ وأَجْرٍ عَظِيمٍ أَعَدَّهُ لَهُمْ الحَلِيمُ الكَرِيمُ .

الباب السادس
المنافع العامة
أولا : التجارة

قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ⑩ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ⑪ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ⑫ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصف : ١٠ ، ١٣] .

وفيه جَاءَ الاسْتِفْهَامُ لِلْعَرْضِ والحَثّ عَلَى الدُّخُولِ فِي الإِغْرَاءِ والعَرْضِ المُغْرِى كَأَنَّهُ الأَمْرُ .

إِذْ إِنَّ التجَارة عِبَارَة عَنْ مُبَادَلة (مُعَاوضَة) الشَّىْءُ بِالشَّىْءِ وَهِىَ تَحتمل الرِبْح والخُسَارَة .

فمن آمن وعمل صالحا فله الأجر الوفير ﴿ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾ [الزمر : ٧٤] .

ومن أعرض عن العمل الصالح واقترف السوء : ﴿ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴾ [الزمر: ١٥] .

فَمَن ذَا الذَّى يُقْبِلُ عَلَى التجَارَة مِنْ أَهْلِ الإِيمَانِ مَعَ حَضْرة اللَّه تَعَالَى وَدَلَّ عَلَيْهَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّه . وَهوَ [البَيْعُ] ، ﴿ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ : وهو [الشِّرَاءُ] فَهِىَ تِجَارةٌ [بِأسْلُوب التنكير] تُنجِى مِنَ عَذَابٍ أَليم . لِيُفِيدَ التَّعظِيمِ والتَّرْهِيبِ والتَّهْوِيل والتَّرْغيب .

رَأْسُ مَال هَذه التجَارَة.

الإِيمانُ بِاللَّه وَرَسُوله : سَبَقَ القَوْلُ فيه

الجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّه : بالأَمْوال والأَنْفُسِ : سَبَقَ القَوْل فيه .

وَكأَنَّهمْ قَالُوا : كَيْفَ نَعْمَل بالتِّجارَة هَذه للنَّجَاة مِنَ العَذَابِ الأليم؟ فَجَاءَ الجَوَابُ ﴿تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ ﴿ فإِنْ آمَنْتُم يَغفِرْ لَكَمْ ﴾ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيل اللَّه .ومنْهُ :جِهادُ النَّفْسِ بِقَهْرِهَا وكَبْحُ جمَاح

غُرورِهَا وقَتْلِ شَهْوَاتِهَا ومَلذَّاتِهَا .

وَجِهادُ الخَلْق : بالشَّفَقَةِ عَلَيْهِم ورَحْمَتِهِمْ وتَرْكِ الطَّمَعِ فِيمَا بَيْنَ أَيْدِيهِم وجِهَادُ الدُّنْيَا : باعْتِبَارِهَا مَمَرًا للآخرةِ وزَادًا لَهَا .

وفى ذَلِكَ كُلُّ الخَيْرِ لَكُم مَادَاوَمْتُمْ عَلَى الإِيمَانِ بِاللَّهِ تَعَالَى وَعَلَى الجِهَادِ فى سبيلِ اللَّهِ وَمَا انتَهَيْتُمْ عَنْ أَنْ تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَكُم . إن كنتم تنتفعون بما علمتم وبه عملتم . فذلكم خير لكم عند بارئكم .

* * * * *

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [التوبة : ١١١] .

وَفيه إِظْهارٌ وتَوضِيحٌ لفَضِيلَةِ الجِهَادِ وَحَقِيقَتِه .

قَالَ الحَسَن : واسمَعُوا واللَّه بَيْعةَ رابِحة وكَفَّةً رَابحَةً بَايَع اللَّهُ بهَا كُلَّ مُؤْمِن ، واللَّه مَا عَلى الأَرْضِ مُؤْمِنٌ إلاَّ وَقَدْ دَخلَ هَذه البَيْعَةَ ، وقَال ﷺ : لَيسَ لأَبْدانكُمْ ثَمَنٌ إلاَّ الجَنَّةَ فَلاَ يَتبعُوهَا إلاَّ بهَا (١) .

وَفي الآيَةِ الكَرِيمَةِ عَهْدٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى مُؤَكَّدٌ بِالدَّلائِلِ القَاهِرَةِ عَلَى أَنَّهُ تَعَالَى فِي الحَقِيقة : لاَ يَشْتَرِى شَيْئًا - لأَنَّ الَّذى يَشْتَرِى إنّما يَشْترى ما لَهُ فيه نَفْعٌ وَفَائدَةٌ وَهُوَ لاَ يَمْلكُهُ - إلاَّ أَنَّ فى ذَلكَ تَلَطُّفٌ فى الدَّعْوة إلى الطَّاعَة .

وإِذَا كَانَتْ التِّجَارَةُ مَعَ الصَّدُوقِ مِنَ التجَّارِ تَعُودُ بالنَّفْعِ والرِّبْحِ . فَكَيْفَ تَكُونُ إذًا مَعَ اللَّطِيفِ الخَبِيرِ .

وقَدْ عَهِدَ اللَّهُ تَعَالَى إلَى المُؤْمِنِينَ بالصَّفْقَةِ الرَّابحَةِ والتجَارَةِ النَّافعَةِ فى مُعَاوَضَةِ الشَىءِ بالشَّىء .

وكَمَا تَقَدَّمَ فَإِن البَائع يَحصلُ لَهُ النَّفْعُ المُبَاشرُ ، وفيه تَرْغيبٌ للمُؤْمنينَ وإِغْراءٌ بأَنَّ اللَّهَ تَعَالى قَدْ اشتَرى منهُم أَنْفُسَهُم . والمُرادُ : القِتَالُ في سَبِيل اللَّه قَتَلَ أو قُتِل .

وكَذَلكَ فإِنَّ اللَّهَ تَعَالى قَدْ اشتَرى أَمْوَالَهُم : أَىْ التى يُنْفقُونَهَا فى سَبيلِ اللَّه مِنْ زكَاةٍ وَصَدقَاتٍ وكِفَايَةٍ للنَّفسِ والأَهْلِ والإِنْفَاقِ عَلَى تَجْهيزات الحُرُوب، وأعمَالِ القِتَال.

---

(١) مفاتيح الغيب :جـ٨ ص١٨٢ .

فَمَن عَقَد الصَّفْقَة مَعَ اللَّه تَعَالَى بِأَنْ بَاعَ لِحضْرَتِه جَلَّ وَعَلاَ : [النفْسَ والمال] وَأَوْفَى بِعَهْده مِنَ اللَّه أُولَئكَ لَهُم البُشْرى كَمَا قَالَ تعَالَى :

﴿ فاستَبْشِروا بِبَيْعِكُم الذّى بَايَعْتُمْ بِه وَذَلكَ هُوَ الفوزُ العَظِيمُ ﴾ .

ولكن : أنى التجارة مع البشر

قال ﷺ : « رَحِمَ اللَّهُ رَجُلاً سَمْحًا إِذَا بَاعَ وَإِذَا اشْتَرَى وَإِذَا اقْتَضَى» .

وَقَدْ نَهَى ﷺ عن الغشِّ كَعَرضٍ عَامٍ لاَ الغشُّ التِّجَارى فَحَسْبُ إِذ قَرأتُ أَنَّ النَبىَّ ﷺ قَالَ : مَن غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا - وَإِن ثُبتَ صِحتَّه كَحَديث نَبوىٍّ . فَإِنَّمَا هُوَ عِنْدى مِنَ الأَوْلَى « مَنْ غَشَّ فَلَيْسَ مِنَّا » عَمَلاً بِأَنْ الرَسُوْلَ ﷺ نَهَى عَنِ غِشِ المُسْلِم وَغَيْر المُسْلِمِ .

وَفى اللُّغَة : (غش) صَاحِبَهُ غِشًا : زَيَّنَ لَهُ غَيْرَ المَصْلَحَة ، وأَظْهَرَ لَهُ غَيْرَ مَا يُضْمِرُ ، فَهُو غاشٌ ، وغَشَاشٌ ، المُغْشُوش : غَيْرُ الخَالِص (١) .

وَهذَا أَلْيَق بِمكَارِمِ أَخلاَقِ الرَّسُولِ ﷺ الذى قَالَ : « إِنَّمَا بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مكَارِمَ الأَخلاَق » .

وَيُؤَكدُ عَلَى ذَلك قَوْلَ اللَّه تَعَالى : ﴿ لا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِم ﴾ [الممتحنة :٨] .

قال تعالى :﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً ﴾ [النساء : ٢٩] .

اعلَم أَنَّ كُلَّ مَا نَهَى الشَّرْعُ عَنْ إِتيَانِه فَهُو حَرَامٌ وأَنَّ كُلَّ مَالاَ يُبَاحُ أَوْ يَحلُّ فى التَّشْرِيع كالزِّنَى - والسَّرقة - والغش وَقَوْل الزُّور - وَأَخْذ المال باليَمِين الكَاذِب والإِكْرَاه والغَصْب والخِيانَة كُلُّ ذَلكَ هُو البَاطلُ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : إِلاَّ أَنَّهُ استثْنَاءٌ مُنْقَطِعٌ ، لأَنَّ التجَارَة عَن تَرَاضٍ لَيس مِنَ جِنْسِ أَكْل المَال بِالباطل فَكان هَهُنا إِلاَّ بِمعْنَى [بَلْ] والمَعْنَى : وَلَكِن يَحلُّ أَكْلُهُ بِالتِّجَارَة عَنْ تَرَاضٍ .

وفى هَذَا السِّيَاقُ قَالَ رسَوَلُ اللَّه ﷺ : « لاَ يحلُّ مَالُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ إِلاَّ بِطيبَة مِن نَفْسِه » .

---

(١) المعجم الوجيز : ص٤٥٠ .

فَمَعَ طيب النَّفْسِ يَحْصُلُ الحلُّ وَفيه نَهْىٌ بالجُمْلَة عَنِ أَكْلِ الرِّبَا ـ كَمَا قَال تَعَالَى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٧٨) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لا تَظْلِمُونَ وَلا تُظْلَمُونَ (٢٧٩) وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٨٠) وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢٧٨ : ٢٨١] .

وفيهَا نَجد : أَنَّ مَنِ انْتهى عَنِ الرِّبَا فَلَهُ مَا سَلَفَ وَلاَ عَلَيْه حَرَجَ إِذَا مَا انْتَهَى وتَركَ مَا عَلَيْهم وَلَمْ يَقْبِضْ . فَالزِّيَادَةُ الحَاصلةُ فَوْقَ رَأْسِ المَالِ [مُحَرَّم] عَفَى اللَّهُ عَمَّا قَبَضتَم شَيْئًا مِّنْهُ بَيْنَما يَقع العقَابُ عَلَى مَا يَكُوْنُ مِنَ المُحَرَّمِ قَبْضهُ عَاجِلاً وَآجلا، مِمَّا بَقَى عَلَى المَدين ـ كُلُّهُ أَوْ بَعْضهُ .

وفيهَا كَذَلكَ : الإِمْهَالُ إِلَى المَيْسَرَةِ حَتَّى تَزُول العُسْرة . والعُسْرَ اسْمٌ من الإِعْسَار . وَهُو تَعَذُّر وُجُود المَال وَنَدْرته.

مِنْهُ يُسْتَفَادُ التَّقْرِيرُ عَلَى جَوَازِ التَّصَدُّقِ عَلَى المُعْسِرِ بإِسْقَاطِ مَا عَلَيْهِ مِنْ دَيْنٍ لأَنَّه دُونَ غَيْرِه أَوْلَى .

وَقَدْ أَشَار الرَّسُولُ ﷺ إِلَى مَنْ لَمْ يُبَال من حَيْثُ كَسَب المَالَ . فيمَا رُوى عَنْ أَبى هُرَيْرةَ رضي الله عنه [1] عَنِ النَّبى ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « يَأْتِى عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لاَ يُبَالى المَرْءُ مَا أَخذ مِنْهُ أَمِنَ الحَلاَل أَمْ مِنَ الحَرَامِ » .

كما رُوى عَنِ النسائى [2] مِنْ وَجْه آخَر ان رسول الله ﷺ قَالَ : « يَأْتى عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ مَا يُبالى الرَّجُل مِنْ أَيْن أَصَابَ المَالَ مِنْ حلٍ أَوْ حَرَامٍ » .

وقَدْ تُذَمُّ التجارَةُ إِذَا مَا صَارَتْ تُلهى عَنْ ذكْرِ اللَّه وَعَن الصَّلَواة لقَوْله تَعَالى : ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا﴾ [الجمعه : ١١] ، أَمَّا خَيْرُ التِّجارَة . الَّتى فِيها الخَيْرُ ، وقَعَ الخَيْرُ لمَن تَاجَرَ بهَا ، أُولئكَ هُم المُسْتَحقُّونَ بمديح اللَّه سُبْحَانَهُ وَتَعالَى وَثَنَائه وبُشراهُ عندَ قَوْله تَعَالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ (٢٩) لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر: ٢٩ ، ٣٠]

(١) فتح البارى : جـ٦ ص٥٤٨ . (٢) المصدر ذاته : ص ٥٤٩ .

ثانيا : الكيل والوزن

قال تعالى : ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ (١) الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ [المطففين : ١ : ٣] .

التَطفيف : هُوَ البُخْسُ فى المكْيَال وَالميزَان بالشَّى القَليلُ عَلَى سَبيل الخفْية .

الوَيْلَ : قَالواْ فيه : أَنَّهُ وَاد فِي جَهَنَّم . وَقَال آخرُون : كَلمَةُ تَذكَرُ عندَ وقُوعِ البَلاء كَأَنْ يُقال : وَيْلٌ لَكَ وإنْ احْتَملَ الوَيْلِ أَحَدَ القَوْلين . فَإِنّ اللطيف الخبيرَ قد نبَّهنا إلى حتمية ترك التطفيف والإعْراضِ عَنْهُ حَيثُ قَال تعالَى : ﴿ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴾ [الإسراء :٣٥] .والمُرادُ : إتْمَامَ الكَيْل مِنْ دون بَخسٍ وَالْوفَاءَ بالميزَان إعْمَالاً لقوْله تَعَالَى . ﴿ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴾ [الشعراء : ١٨١] . ﴿ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ [الشُّعَرَاءُ : ١٨٢] .

وقَالَ تَعَالى : ﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴾ [الرحمن : ٧] .

أَوْرَدَ العَليمُ الحكيمُ الميزانَ إرْدَافًا عَلَى العلم كَأَنَّهُ يُريدُ أَنْ يَقُول : فَلْيَعمَلِ الناسُ بالقُرآن ، ويُقيمُوا الميزَان كَمَا يَأمُرُهُمُ القرآن نَظيرُ قَوْله تَعَالَى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾ الحديد: من : ٢٥] .

والمرادُ هُنَا منْ الميزَان ـ العَدْلُ : عَلَى مَعْنَى أنَّ اللَّهَ شَرَعَ العَدْل لئَلاَّ تَطْغَوْا فى الميزان وَمُرَادفُهُ ﴿ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ ﴾ وَفيه النَّهْىَ عَن الخُروجِ عَن إِقَامَته بِالعَدْل ـ وَلاتُخسرُوا الميزان ـ أى الموزونُ .

وَقدْ زَجَرَ اللَّهُ تَعَالَى عَنِ التَّطفيف وَتَوَاعَدَ المُطففينَ بالْوَيْلِ . وأَمَر سُبْحَانَهُ بإقَامَة الوَزْن بالقسْط وبعَدَم الخُرُوجِ عَنِ الوَزن بالقسط لما فى ذَلكَ منْ أَهَمية وضَرُورة تَعُودُ إلَى أن إقَامَةَ الميزَان ، وَوَفَاءَ الكَيْلِ من دُون بخْسٍ فى الخُفْيَة عَنَ أَعْيُن النَّاس فيه إشَارَةٌ إلى يَوْم لاَ تَمْلكُ فيه نَفْسٌ لنَفْسٍ شَيْئًا وَالأَمْرُ يَوْمَئذ للَّه.

﴿ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ المطففين : ٦] .

يَومَ تُوضَعُ فيه أَعْمَال البَشَر عَلَى الميزَان : ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ [الأنبياء: ٤٧] فى يَوْم الوَزْن من دُون ضَيْر أَوْ ضَيَاعٍ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ ﴾ [الأعراف : ٨] .

﴿ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ . وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ. تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾[المؤمنون:١٠٢:١٠٤]

ثالثا : الأدب

قال تعالى : ﴿ لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ﴾ [النور:٦٣].

وَفِيهِ النَّهْيُ عَن جَوَازِ دُعَاءِ الرَّسُول ﷺ كَدَعْوة النَّاسِ بَعْضُهم بَعْضًا ـ فيما هو مَحْمُولٌ على التَّدَاوُل بَيْنَ العُمُومِ .

حَيْثُ دَأَبَ الصَّحَابَةُ رِضْوَانَ اللَّه عَلَيْهِمُ عَلَى نِدَاءِ الرَّسُولِ ﷺ كَدَعْوة بَعْضِهِم لِبَعْضٍ فَكَانُوا يَقُولون : يا أبَا القَاسِمِ يَا أبَا إبَراهيمَ فَنَزَلَتَ الآيَةَ

وَمن يَتَدَبَّر القُرْآنَ يَجِدُ خِطَابَ اللَّه تَعَالَى لأنبِيَائِهِ الكِرامِ عَلَى مَا جَاءَ ذِكْرُهُ في القُرْآنِ الكَرِيمِ حَيْثُ قَالَ تَعَالَى :

﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُن ﴾ [البقرة : ٣٥] .

﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ﴾ [آل عمران : ٥٥ ، المائدة : ١١٠] .

﴿ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِك ﴾ [هود : ٤٦] .

﴿ يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ ﴾ [هود : ٧٦] .

﴿ يُوسُفُ أَعْرِض ﴾ [يوسف : ٢٩] .

﴿ يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ ﴾ [مريم : ١٢] .

﴿ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ ﴾ [طه : ٣٦] .

﴿ يَا مُوسَىٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّه ﴾ [النمل : ٩]

﴿ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ ﴾ [ص : ٢٦] .

﴿ قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِط ﴾ [هود : ٤٨] .

﴿ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيم ﴾ [الصافات : ١٠٤] .

أمَا حَالُ الحَدِيثُ عَن حَضْرةِ المُصْطَفى ﷺ ونداءُ اللَّه تَعَالَى لَهُ . فَإِنَّه قَالَ :

﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّك ﴾ [المائدة : ٦٧] .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَال ﴾ [الأنفال : ٦٥] .

★ ★ ★ ★ ★

قَال تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ﴾ [النساء : ٨٦] .

اعلَم أنَّ أشهَرَ حقُوقَ المُسلم علَى المُسلم خمْسةٌ : **أولُها** : إذَا لاَقَاكَ فَسلِّمْ علَيهِ وَمِن طَريق آخرَ قَالَ ﷺ : « أفشُوا السَّلاَمَ » .

واعلَمَ أنَّ مُنتَهَى الأمْرُ في الأمْنِ أنْ تَقرَأ كَمَا أمَرَ السَّلاَمُ وكَمَا حيًّا بهَا الرَّسُولَ ﷺ بمَا نَقرأهَا نَحنُ في التَّشهُّد وَقْتَ الصَّلاَةِ حَيْثُ كانَتْ التَحيةُ السَّلامُ عَلَيْكَ أيُّهَا النَّبى ورَحْمَةُ اللّه وبَركَاته

وَفى ذَلكَ أمرٌ بإلزَامِ المُؤمنينَ وإعلاَمهم بالتَّحيَّة الخَاصَّة بهْم الواجبَةُ لَهُمَ وَفيها كذَلك النهىُ عَنِ مُدَاوَمَةِ التَّحيّة التى استعلَمَهَا العَرَبَ في الجَاهليَّة عند قَولهمُ : عمتَ صَبَاحاً ، وعِمتَ مَساءً ، وَحيَّاكَ اللّهُ ، وَمنهُ كَراهيةُ لمَا انتَشرَ مُؤخَّراً مّنَ المُصطَلَحَات التّى وَفَدَتْ مَعَ الاستِعْمارِ الحَديث ومنْهَا صبَاحُ الخَيْرِ ، مَسَاءُ اليَاسمين ، صبَاحُ الجَمَالِ . . . إلَى غَيرْ ذَلَك ممَّا يُشيْر إلَى أمْنِ ، أوْ يَردُهُ بنَفع ، وهُوَ مَا لَمَ يُقرّهُ شَرْعٌ

فَإنْ شئتَ قُلَ سَلاَمُ عَلَيْكُمْ كَمَا قَالَتْ المَلاَئكَةُ لأهْلِ الجَنَة

أَوْ السَّلاَمُ عَلَيكُمْ كَمَا قَالَ اللّهُ تَعَالى لرسوله الكريم

وَالسَّلاَمُ واجِبُ الإعْمَال به لَفظاً ومَعْنى لِقولِه ﷺ : « المُسْلمُ مَنْ سَلمَ النَّاسُ - أوْ قَالَ : [المُسْلمُونَ] مِنْ لسَانه ويَده » .

والسَّلاَمُ إسْمٌ مِنَ أسْمَاء اللّه تَعَالَى والابْتدَاءَ به أوْلى وَهُو تَحيّةُ الأرْوَاح الطَاهرَةِ ﴿ **فَسلامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ اليَمِين** ﴾ [الواقعة : ٩١] . والمَلاَئكَةُ تُسَلّمُ عَلَى أهْلِ الجَنَّة ﴿ **سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالدين** ﴾ [الزمر : ٧٣] .

وَالسَّلاَمُ تَحيَّةُ الله للمؤمنينَ ﴿ **تَحيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلامٌ** ﴾ [الأحزاب : ٤٤] .

والأصل الواجب اتباعهُ أنْ يُسَلمَ الرَاكبُ عَلَى المَاشي ورَاكبَ الفرَسِ عَلَى رَاكبُ الحمَّارِ والصَغيرُ عَلَى الكبير والأقلُّ عَلَى الأكثرِ وَالقَائمُ عَلَى القَاعد ومَنَ السّنة أنْ يكُونَ البَادئُ بالسَّلام عَلَى طَهَارَة ، وكَذَا المُجيبُ .

رُوىَ أن وَاحداً سَلّمَ عَلَى الرَّسُولِ ﷺ وَهُوَ كَانَ فى قَضَاء الحَاجَة . فَقَامَ فَتَيَمَّمَ ثُمَّ رَدَّ السَلاَمَ (١)

والسَّلاَمُ يُوجبُ المُصَافَحَةَ بَيْنَ رِجَال المُسْلمينَ لمَا فيه منْ خَيْرِ وبَرَكَة ونَفْعِ وفَائدة لِقَوْله ﷺ : إذَا تَصَافَحَ المُسْلمَان تَحَاتَتْ ذُنُوبُهُمَا كَمَا يَتحاتُ ورَقُ الشَجَرُ .

(١) مفاتيح الغيب ج ٥ صـ ٣٥٩ .

كَمَا يجبُ ردهُ السَّلاَمِ بِأحْسنِ ممَّا قيلَ : فإنْ قَالَ السَّلاَمُ عَيْكُمْ . زيدَ فَقيلَ ، وَعلَيْكُمْ السَلاَمُ ورَحْمَةُ اللَّه ، وَإنْ قَالَ السَّلامُ عَلَيْكُمْ وَرحْمَةُ اللَّه زيدَ فَقيلَ وعَلَيكُم السَّلاَمُ ورَحمةُ اللَّه وبَركَاتهُ وإنْ قَالَ : السَّلامُ عَليكُمْ ورَحْمةُ اللَّه وبَركَاتُهُ . نَقُول كَمَا كَانَ عنْدَمَا جاءَ رَجُلٌ إلى الرَّسُول ﷺ . فقَالَ : السَّلامُ عليكمُ ورَحْمةُ اللَّه وبَركَاتُهُ . فَردَّ الرَّسُولُ ﷺ : وَعَليْكُمْ السَّلامُ ورَحْمَةُ اللَّه وبَركَاتهُ . فقال الرَّجُلُ : فَأيْنَ قَوْلُ اللَّه تَعَالَى ﴿ فَحَيوا بِأحْسَنَ منْهَا ﴾ فَقَالَ ﷺ : إنَّكَ مَا تَركْتَ لِي فَضْلاً فَرَدَدتُ عَلَيْكَ مَا ذَكَرْتَ (١) .

وَمنِ الأدَب كَذَلكَ أن لاتَدْخُل البُيوتَ منْ غَيرِ بَيْتكَ بغَيْرِ السَّلاَمِ عَلَى أهلهَا ﴿حَتَّىٰ تَسْتَأْنسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ﴾ [النور : ٢٧] .

وإذا لَمْ يُؤذنَ لكُم بالدُّخُولِ وَقيلَ لكُمْ بالرجُوعِ . فَلْيَكُن الرجُوع أوْلَى من دُونِ غَضب فَإنْ اغْضَبكَ هَذا فإنَّهُ مؤشرٌ عَلَى سُوء فَهْمك لأمُور دينكَ لقَوْله تَعَالَى :

﴿ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُم ﴾ [النور : ٢٨] .

وعنْدَ دُخُولِ بيوتكم ﴿ فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ ﴾ [النور : ٦١] .

وَمن مَسَالك الأدَب أن لاتَسُبَّ مُسلماً لمَا قَالَ ﷺ : « سبابُ المُسلم فُسوقٌ وقتاله كفر » كما يَجبُ عَدَمُ المَيْلِ عَنِ المَنهج الأخلاَقي المحدَّد في قول الله تَعالَى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [الحجرات : ١١] .

ولَقدْ ذَهَبَ القُرآنُ الكَريمُ بنَا إلَى أبعد منْ ذَلكَ في سَبيلِ الأدَب والتَربية الأخلاقية القويمة عندما نَهى عَن سَب الذين يَدعون من دُون اللَّه وَسَب آلهتهم المزعُومَة حَيْثَ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [الأنعام : ١٠٨] .

يَقول أهل الكتَاب منَ اليَهُود وَالنَّصرَى والمُنْكرينَ لدين اللَّه . المَارقينَ عَلَى شَرْعه أعْداءُ الإسْلاَمِ منِ كُل حَدَب وَصوب يَقُولونُ إنَّ القُرآن مَاهو إلا تَرتيبٌ مُلفَقٌ منَ التَّوْرَاة والإنجيل والحِكْمَة اليُونَانية والوَثنيَة العرَبية . وَعَليهْ فَلَيْسَ للرَّسُول ﷺ أنْ

---

(١) مفاتيح الغيب ج ٥ صـ٣٥٦ .

يَهْجُو أَوْ يَتَهَكَّمَ بِحَسَبِ زَعْمِهِمْ أَو أَن يَسْخَرَ مِنْ هَؤُلاَءِ أَوْ مِمَّا يَعْبُدونَهُ مِنْ أَوثَانٍ وَنُجومٍ وَصَلِيبٍ وَظَواهِرَ طَبِيعيَّةٍ وأَرْواحَ الأَجْدَادِ .

ولأَنَّهُمْ قَالوا بِأَن النَّبِيُّ ﷺ جَمَعَ القُرْآنَ مِن مَدَارِسِ النَّاسِ ومُذكَرَاتهِمْ فإِنَّ سَمَاعَ المُسْلمينَ لِذَلِكَ يُؤْذِيهِم ويُغْضِبهُمْ فَيَسُبُّونَ (يَشْتُمُونَ) هؤلاءِ وآلِهَتَهُمْ عَلَى سبيلِ المُعَارَضَةِ .

فكَانَ أَمْرُ اللَّه تَعَالَى بِالْتزَامِ الأَدَبِ بالانْتِهَاءِ عَنْ ذَلِكَ العَمَلِ لأن سُبَابَ آلِهَتَهُم يُغْضِبهُمْ وَيَقَعُ مِنهُم عندئذ ذِكْرُ اللَّه تَعَالَى بِمَا لاَ يَجِبُ وَلاَ يَنْبَغِى مِنَ القَوْلِ فَصَارَ القَوْلُ بالنَّهْى عَن السب لأَجْلِ الاحْترازِ فَإِنَّكَ إِنْ سَبَبْتَ مَثَلاً قِطْعَةَ الخَشَبِ الَّتى يُقَدِّسُونَهَا . وَقَعَ مِنهُمْ مَا لاَ يَنْبَغِى فِي حَقِ اللَّه تَعَالَى .

وَلاَ يَلِيقُ بِعَاقِلٍ أَنْ يَفْتَحَ بَابَ المُشَافَهَةِ بِالسَّفَاهَةِ والمُشَاتَمَةِ لأَنَّ ذَلِكَ لاَ يَلِيقُ بالعُقَلاَءِ .

وَلَمَّا كَانَ هَذَا هُو سُلُوكُ السُّفَهَاءِ الَّذينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ تَعَالَى بِمَا لاَ يَنْبَغِى مِنَ القَولِ. تَوَعَّدَهُمْ القُرْآنُ الْكَرِيمْ بِالمآلِ الذّى يَستَحِقُونَهُ هُمْ وَمَا يَعْبدَونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَمَا قَالَ تعالى :

﴿ **إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ من دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ** ﴾ [الأنبياء : ٩٨] .

الحَطَبْ : هَو الّذى يُوقَدُ فَيَتَخَلَّفُ عَنْهُ رَمَادْ .

أَمَّا الحَصَبُ : فَإِنَّهُ وَقُودُ جَهَنَّمْ الَّذى يَظَلُّ مُتَأجِجًا وَلاَ يَنْطَفِئُ أَبَدًا .

* * * * *

وَمَن الأَدَبِ الاستِئْذَانُ عِنْدَ دُخُولِ البُيُوت ، والغَايَةِ مِنْ ذَلِكَ هِى الاستِئْنَاسُ لأَنَّهُ لاَ يَحْصُلُ إلاَّ بَعْدَ الاستِئْذَانِ . فَقَدْ قَالَ ﷺ : « إِذَا دُعِىَ أَحدُكُمْ فَجَاءَ مَعَ الرَّسُولَ فَإِنَّ ذَلَكَ لَهُ إِذْنُ - لأَنَّ المَدْعُو إِنَّمَا يَدْخُلُ بغَيْرِ إِذْنٍ لِسَابِقِ عِلْمِ الدَّاعِى بِحضُورِ المدْعُو مَعَ مَنْ أَرْسَلَ لِدَعْوَتِه .

قَالَ يَعْطى : أَنَّ مَنْ جَرَتْ العَادَةُ لَهُ بالدُّخُول فَهُو غَيْرُ مُحْتَاجٍ إِلَى الاستِئْذَانِ وَهُو عندى غَيْرُ مَقْبُولٍ : وَإِنْ كَانَ إِهْمَالُ الاستِئْذَانِ للْعَبْد أَوْ للْخَادِمِ - مُرَاعَاةً لِحُرْمَةِ المَحَارِمِ - فِيمَا رُوِىَ عَنَ عَطَاءُ بن يَسَارٍ : أَنَّ رَجُلاً سَأَلَ النَّبِىُّ ﷺ فَقَالَ : أَستَأذِنُ عَلَى أُختِى ؟ فَقَال النَّبِىُّ ﷺ : نَعَمْ أَتُحِبُّ أَنْ تَرَاهَا عُرْيَانَة) ؟! وذَلِكَ لأنْ مَنْ دَخَلَ عَلَى

أختِه أوْ أمِّه من دُون إذنٍ ربَّما وَجَد مَا يَسُوؤُهُ .

وقَال عَطاء (١) : سَألْتُ ابنَ عبَّاسٍ ﷺ أستَأذن عَلَى أختي وَمَن أنفقُ عَلَيْهَا ؟ قَالَ: نَعَمْ إنَّ اللَّه تَعَالَى يَقُولُ : ﴿ وَإِذَا بَلَغَ الأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ [النور : ٥٩] .

ولَمْ يُفَرِّقْ بَيْنَ مَنْ كَانَ أجْنَبِيًّا أوْ ذَا رَحِمٍ .

وفِى جُمْلَةِ ذَلكَ نِهَايَة عَن النَّظَرِ للاطلاَعِ عَلَى دَارِ غَيْرِه بِغَيْرِ إذْنه قَالَ الشَّافعى ـ رَحِمَهُ اللَّهُ : فِي النَّاظرِ إلَى دَارِ غَيْرِه [لَوفُقِئَتْ عَيْنُهُ هَدَر] أىْ لاَ دِيَّةَ أوْ عِوَضٍ لَهُ فَإِنَّمَا ذَهَبَتْ هكَذَا عِقَابًا لَهُ عَلَى مَا أحْدَثَ في دِينِ اللَّه .

وَرَوى أبُو هُرَيْرَةَ ﷺ أنَّهُ ﷺ قَالَ مَنَ اطَّلَعَ في دَارِ قَوْم بِغَيْرِ إذْنِهِمْ فَفَقَأوا عَيْنَهُ فَقَدَ هُدرَتْ عَيْنُه لأنَّ فَقْأهَا مُسْتَحَقٌّ لَمْ يَلْزَمْ القِصَاصُ .

والأدَبُ كَذَلكَ يَقْتَضِى عَدَمَ الاغْتِرَارِ بالنَّفْسِ وَالدُّنْيَا وعَدَمِ التَّطَاوَلِ عَلَى خَلْقِ اللَّه كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا ﴾ [الفرقان : ٦٣] .

وَهُوَ مَا يُبَيِّنُهُ القُرْآنُ الكَرِيمُ في جُمْلَةِ مَا وَصَّى به لُقْمَانُ ابْنَهُ وحَكَاهُ اللَّهُ تَعَالَى في قَوْله : ﴿ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ (١٧) وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (١٨) وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾ [لقمان : ١٧ : ١٩] .

قَالُوا معُ العَملى يكَادُ يَنطقُ بأنَّ مَنْ صَغَّر خَدَّهُ للنَّاسِ [صُفعَ عَلَى خَدِّه] ومَنَ مَشَى فِي الأرْضِ مَرَحًا [انكَبَّ عَلَيْهَا] وبَاءَ بغَضَبِ اللَّه لَهُ لأنَّهُ تَعَالَى لاَ يُحبُّ المُغْتَرينَ [المُخْتَالينَ] الَّذينَ أعْجَبَتْهُم أنْفُسَهُمْ وأجسَامُهُم ويُظْهِرُونَ للنَّاسِ عَظَمَةَ أنْفُسَهُم وَهِيَ [التَّكَبُّر] .

الفَخُورُ : المُفْتَخرُ بنَفْسِهِ الَّذى يَرَى فى عَيْنَيْه أنَّ لَهُ عَظَمَة لنَفْسِه دُونَ غَيْرِه منَ الخَلْقِ.

---

(١) مفاتيح الغَيب جـ١١ ص ٥٢٩ .

وَفى الآيَةِ الْكَرِيمَةِ تَنْبِيهٌ إِلَى مَا يَكُونُ مِن ازْدرَاءِ النَّاسِ وَمِنْ بُغْضِ اللَّه . وَفى الْجُمْلَةِ يَكُونُ الْمُرَادُ . الحَثُّ عَلَى الْكَرَامَةِ واحْتِرَامِ النَّاسِ مِنْ خِلاَلِ طَاعَةِ اللَّه - والعِبْرةِ في الآيَاتِ الْكَرِيمَةِ بِعُمُومِ اللَّفْظِ لاَ بِخُصُوصِ السَّبَبِ .

حَيْثُ التَذْكِيرِ لِبَنِي الْبَشَرِ بِأَنَّهُم عَاجِزُونَ أَمَامَ قُدْرَةِ الْخَالِقِ الْعَظِيم . فَإِنَّ الْعَظَمَةَ لِلَّه وَحْدَهُ .

وَرَدَ عَنْ أَبِى سَعِيد الْخُدْرِى وَأَبِى هُرَيْرَةَ قَالاَ : قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ : « العِزُّ إِزَارُهُ وَالكِبْرِيَاءُ رِدَاءُهُ فَمَنْ يُنَازِعنى فيهِ عَذَّبْتُهُ » [1] .

وَمِنْ طَرِيق هَنَّاد عَنِ الأَغَرِ أَبِى مُسْلِم عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ أَنَّهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ : قَالَ اللَّهُ عَزَّ : « وَجَلَّ الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِى والعَظَمَةُ إِزَارِى فَمن نَازَعَنِى وَاحِدٌ مِنْهُمَا قَذَفْتُهُ فِى النَّار [2] » .

وَزَادَ بَعْضُ فَقَالُوا : « قَذَفْتُهُ فِى النَّار وَلاَ أُبَالِى » .

لِذَلِكَ قَالَ تَعَالَى : ﴿وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولا﴾ [الإسراء : ٣٧] .

(١) الأحاديث القدسية وشروحها ص٣٧٤ .

(٢) المصدر ذاته .

رابعا : الطعام

قال تعالى : ﴿ فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالاً طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [النحل : ١١٤] .

والحَلاَلُ ضِدُّهُ الحَرَامَ ، والطَّيِّبُ يُقَابِلُهُ الخَبِيثُ .

لِذَلِكَ بَيَّنَ اللَّهُ تَعَالَى المُحَرَّمَاتِ من الطَّعَامِ حَصْرًا ـ لإِيجَاب أَوْ إِيجَازٍ مَا عَدَا مَا وَرَدَ فِيهِ تَحْرِيمٌ وَهُوَ مَا ذُكِرَ في قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى .

﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ [النحل : ١١٥] .

ثُمَّ بَيَّنَ تَعَالَى كَيْفَ يَكُونُ الأَكْلُ ، وَذَكَرَ عُمُومًا وُجُوبَ الأَكْلِ مِنَ الطَّيِّبِ مِنَ دُون غَيْرِه سَوَاءٌ دلَّ الطَّيِّبُ عَلَى طِيبِ المَصْدَرِ أَوْ طَيبِ المأكولِ ثُم أَتْبَعَ ذَلِكَ بِوُجُوبِ الشُّكْرِ للَّه .

﴿كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة : ١٧٢] .

فِى الآيَةِ الأُولَى جَاءَ أَمْرُ اللَّه تَعَالَى بِتَحَرى الحَلاَل فِي المأْكلِ من رزْق اللَّه . أىْ كُلُوا مِن رزْقِ اللَّه الَّذى آتَاكُم حَلاَلاً طَيِّبًا عَلَى صُورَته وَمَادَّته التِّي جَاءَ بِهَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من دُون أَنْ تَمْتَّد إِلَيْه يَدُ التَّغْيير الَّذى يُحَوِّلُ الحلاَلَ إِلى حَرام أَوْ يُحوِّل الطَّيِّبَ إِلَى الخَبِيث . فَمَثلاً شَجَرَةُ الْبَلَح تُنْتِج ثِمَارَ [التَّمْر] وَهُو الْبَلَحُ وَلَنَا فِى قَصَصِ القُرآن الْكَرِيم عظَةٌ وَعبْرةٌ لبَيَان عظمِ الفَائدَة وَالنَّفْع الْكَبِير فَتلْك هِيَ مَرْيَمُ العَذْرَاءُ لَمَّا نَادَاهَا ﴿مِن تَحْتِهَا﴾] أَو قُرِئَتْ ﴿ مَنْ تَحْتَهَا ﴾ جَاءَهَا النِّدَاءَ من قِبَلِ السَّمَاء : ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا (٢٥) فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا ﴾ [مريم : ٢٥ ، ٢٦] .

وَفيه التَّدْليلُ عَلَى مَا فِى البَلَحِ من كُلِ العَنَاصرِ الغذَائيَّة والفيتَامينَات والأَمْلاَح المَعْدَنِية والحَديد وكَبْريتات الحديدُوز . وكُلَ مَا يَلْزَمُ من خُلاصَة الأَغْذيَة المُرَكَّزة الَّتى تَحْتَاجُ إِلَيْها [الواضعَةُ] الوَالدةُ . ليُعَوِضُهَا عَمَّا فَقَدتْ منْ دَم وَغذَاء وَمَاء .

تلْكَ هِى ثَمرة الْبَلح . فَإذَا مَا كَانَ ذَلكَ صَارَ الْحَلاَلُ حَرَامًا ، والطَيْبُ خَبيثًا وتُحَولُ مِن النَفعِ إِلَى الضَّرَرِ الَّذى يَأسرُ العُقُولَ بِحدُوث السكْرِ . ونَظيرُ ذَلكَ مَعَ العنَب ـ وَعَصيرِ الْعنَب السمَّى بِالنَّبِيذ .

فَالْواجِبُ الأَكْلُ مِنَ الطَّيبات من رزْق اللَّه منْ دُون إِصَابَتِهَا بِالصَّيْرُورَة والتَّحَوّل .

* وفى الآيَةِ الثَّانيَةِ : جَاءَ التَّحْرِيم صَرِيحًا لِمَا لاَ يَجبْ الأكْلُ مِنْهُ فِي غَيْرِ اضْطِرارٍ يَحْفَظْ لِلْمَرئِ حَيَاتَه إِذَا مَا هَدَّدَ وُجُودَه الجُوعُ .

* وفِي الثَّالثَة : قَالَ تَعَالَى ﴿ كُلُوا ﴾ صِيغَةُ الأمْرِ ظَاهِرهُ الوُجُوبِ وَبَاطِنُهُ فِيهِ الإِبَاحَة .﴿ مِن طيِّبَات مَا رزَقْنَكُم ﴾ .

فَالطَّيبُ مِنَ قَوْلِ أَحْسَنُه وَهُوَ مَا يُرِيحُ العَقْلَ وَيُطَمْئِنُهُ النَّفْس وَالطَّيبِ مِن الأفْعَال: هُوَ مَا يَهْواهُ القَلْبُ وتَشْتَهِيه النَّفْسُ مِنَ اللذَّات والمَلَذَّات والأمْرُ عَامٌ لِتَحْصِيلِ الطَّيِّبَات مِنْ مَلْبَس ، وَمَأْكَلٍ ، وَنِكَاحٍ ، وَرُقَاد بِحَيْثُ لاَ يَقْبَلُ عَلَى الآخِرَة فَحَسب بَلْ لاَ يَنْسَى نَصِيبَهُ مِنَ الدُّنْيا كَذَلِكَ .

ثُمَّ أَوْجَبَ الشُّكْرَ لِذَاتِهِ فَإِن الشَّىءَ بِالشَّىءِ يُذْكَرُ ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [إبراهيم: ٧] .

وَلاَ يَجِبْ أَن يَقَع تَطرُفٌ بِالتَّجَاوُزِ أَوْ بِالتَّحْرِيمِ لِمَا أَحَلَّ اللَّهُ مِنَ الطَّيِّبَات قَالَ تَعَالَى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا﴾ [المائدة : ٨٧] .

فَمَاذَا يكُونَ لَوْ كَانَ الاعْتِدَاءَ [التَّجَاوُز] عَن حُدُود مَا أَحَلَّ اللَّهُ بالانْتِقَاصِ أَوْ بِالزِّيَادَة حَالَ الاضطرارِ الَّذِى يُهَدِّدُهُ بالهَلاَك أَوْ بِالْمَوْتِ البَطِيء إِذَا مَا رَفَضَ الأكْلُ مِنَ لَحْمِ الخِنْزِيرِ مَثَلاً مَعَ نَدْرَةِ الغذَاءِ مِنَ مَصْدَرٍ آخَر ؟ .

لِذَلِكَ قَالَ تَعَالَى : ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل:١١٥] ، ﴿ وَلاَ تَعْتَدُوا ﴾ : أَىْ لا تَتَجاوَزُوا حُدودَ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُم بالإِسْراف ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا﴾ [الأعراف : ٣١] وَلاَ يُحرِّمُ بَعْضكُم مَا أَحَلَّ اللَّهُ لأَنَّ فِى ذَلِك اعتِدَاءَ خَالِصًا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ.

وَمِنَ صُوَرِ الحَلاَل كَذَلِكَ فِى مَصادَرِ الأكْلِ مَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِيه: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ﴾ [١] [المائدة : ٥] ومِنْهُ كَذَلِكَ لُحُومُ الإِبِلِ [البُدْن] التى تُقَدَّمُ كَمَا قَالَ تَعَالَى :﴿ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ ﴾ [المائدة:٩٥] .

وَمِنَ الْوَاجِبِ إِطْعَامُ القَانِعِ : وَهُوَ السَّائِلُ ، والمُعْتَرُّ : وَهُو الْمُعْتَرِض بِغَيْرِ

---

(١) اختلف الأئمة والفقهاء على جواز الأكل من طعام أهل الكتاب - راجع كتب التفسير للاستزادة .

سؤال .

قَالَ أَبُو عُبَيْدةُ : والأقربْ أنّ القَانعَ هُوَ الرَّاضِي بِمَا يُدْفَعُ إِلَيْهِ مِنْ غَيْرِ سُؤَالٍ والْحَاحٍ .

والْمُعْتَر : هُو الَّذى يَعْتَرِضُ وَيَطْلُب وَيَعْتَرُّ بِهِمُ حَالاً بَعْدَ حَالٍ فَيفْعَلَ مَا يَدُلُّ عَلَى أنَهُ لاَ يَقْنَعُ بِمَا يُدْفَعُ إِلَيْه أبداً (١) .

قال تعالى : **﴿فَكُلُوا منْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِير﴾** [الحج : ٢٨] .

قَالَ العُلَمَاءُ : مَنْ أهْدَى أوْ أضْحَى فَحَسُنَ أنْ يَأْكُلَ النصْفُ ، ويَتَصَدَّق بالنصف لقوله تعالى : **﴿ فَكُلُوا منْهَا وأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِير ﴾** [الحج : ٢٨].

ومنهم من قال : يأكل الثلثَ ، ويَدَّخِرُ الثلُثَ وَيَتَصَدَّقُ بالثُلُث والبُؤْسَ : شدَةَ الفَقْرِ والفَقِيرِ الَّذى أضْعَفَهُ الإعسَارُ قَالَ إبنُ عَبَّاسٍ (٢) : البائسُ الَّذى ظَهَرَ بُؤْسَهُ فِي ثِيَابِهِ وَفِي وَجْهِهِ . والفقِيرُ : الَّذى لاَ يكُون كَذَلكَ فَتكُونُ ثِيابُهُ نَقيَّةً وَوَجْهُهُ وَجهَ غنَى .

وعَدَّد القُرآنُ الْكَرِيمُ مَا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمنينَ منَ الأكْلِ منْهُ قَالَ تَعَالَى : **﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخنزِير وَمَا أُهِلَّ لغَيْرِ اللَّه بِه وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُب وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بالأَزْلام ذَلِكُمْ فِسْقٌ ﴾** [المائدة : ٣] راجع كُتُب التَفْسِير المُتَعَدِّدَة .

ـ وَجَاءَ نَهى تَامٌّ وَاجِبٌ النَفَاذ يَقْضِى بِعَدَمِ الأكْل ممَا لَمْ يُذْكَر اسْمُ اللَّه عَلَيْه فِى قَوله تَعَالَى : **﴿ وَلا تَأْكُلُوا ممَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّه عَلَيْه وَإِنَّهُ لَفِسْق﴾** [الأنعام : ١٢١] .

وفيه نَقْل عَن عَطَاء : أَنَّهُ قَالَ : كُلُّ مَا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّه عَلَيْه مِنَ طَعَامٍ أوْ شَرَابٍ فَهُو حَرَامٌ تَمَسُّكًا بِعُمُومِ الآيَة .

أمَّا سَائِر الفُقَهَاء : فَإنَّهُم أجْمَعُوا عَلَى تَخصِيصِ هَذَا العُمُومِ بالذَّبح ثُمَّ اختَلَفُوا : فَقَالَ مَالكُ : كُل ذَبْحٍ لَمَ يُذْكَر اسْمُ اللَّه عَلَيْهِ فَهُو حَرَامٌ سَوَاءٌ تَرِكَ الذكْرَ عمْدًا أوْنسيَانًا .

وَقَالَ أبو حَنِيفَةَ : إنْ تُرِكَ عَمْدًا حُرِم ، وإن تُرِكَ نسْيانًا حل .

---

(١) مفاتيح الغيب : جـ ١١ ص٢٧٩ . (٢) المصدر ذاته : ص٢٦٨ .

وقال الشافعى : يحلّ متروكُ التَّسْمِيَةِ سَوَاءَ تَرَكَ عَمْدًا أوخطأ إذَا كَانَ الذَّابِحُ أهلاً للذّبْح .

وأجْمَعَ المُسْلمُون عَلَى أنَّهُ لاَ يَفْسقُ أكْلَ ذَبيحَةَ المُسْلم الّذى تَرَكَ التَسْمِيَة .

أمَّا عِنْدى : فَأقُولُ بِمَا قَالَ به مَالك : بَعْدَ اسْتبْعاد مَا حَرَمَ اللَّهُ من ﴿ أن يكُونَ ميْتَةً أوْ دمًا مَّسْفُوحًا أوْ لَحْمَ خنزير فإنَّهُ رجْسٌ أوْ فسْقًا أُهلَّ لغيْر اللّه به﴾ [الأنعام: ١٤٥].

ولاَ حَرَجَ فِي أنْ تَأكُلُواْ ممَّا ذُكرَ اسْمُ اللَّه عَلَيْه فِى حُدود مَا قَرَّرَ اللَّهُ تَعَالَى من دُون اعْتدَاءً بَعْدَ ذَلكَ ولاَ جُنَاحَ عَلَيْكُم فِيمَا الْتَزَمْتُم مِن الإِطْعَامِ أوْ الطَعَامِ فِي حُدُود مَا أنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِي قوله :

﴿لَيْسَ عَلَى الأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ صدق الله العظيم [النور : ٦١] .

خامسًا : الولاية

اعْلَمْ أن لَّيسَ لِلمؤمن أن يَتَّخِذَ بِطانَةً مِنْ دُونِ المؤمنينَ ولاَ أن يَتَّخِذَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ .

قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ (١١٨) هَا أَنتُمْ أُولاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [آل عمران : ١١٨ : ١١٩].

فَعَهْدُ هَؤلاَءِ مَعَ الْمُؤمنِينَ صَوَّرَهُ اللَّهُ فِى أَحْسَنِ صُورَةٍ بِقَوْلِهِ الْكَرِيمِ . ﴿ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [آل عمران : ١٢٠] .

وقال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ ﴾ [الممتحنة : ١] وَالعِلَّةُ مِنَ الانْتِهاءِ عَن ذَلِكَ بَيَّنَها اللَّهُ تَعَالَى عِنْد قَوْلِهِ :﴿ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ [الممتحنة : ٢] .

فَلاَ تَصِحُّ وَلاَيَةٌ أَو صَدَاقَةٌ مَعَ هَؤلاَءِ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فِي خَاصِيَّتِهِ مِنْ خَلْقِهِ ـ لأَنَّ الصَّدَاقَةَ مُشْتَقةٌ مِنَ الصِدْق فَلَوْ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ صِدْقٌ لَمَا كَانَتْ الصَّدَاقَةُ.

فَكَيْفَ يَصْدُقُ هَؤلاءِ الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ بِمَا كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ؟ فَلَوْ كَانَ الصِّدْقُ مِنْهُم يَنْفَعُ لَكَانَ الأَوْلَى صِدقُهُمْ مَعَ اللَّهِ خَوْفًا مِنْهُ وطَمعًا فِي رَحْمَتِهِ .

إِنَّهُمْ أَعْداءُ اللَّهِ وَمِيكَالَ وَجِبْرِيلَ جُلُّ اهْتِمَامَاتِهِمْ وَعَظَمُ أَمانِيهِمْ وَوُدُّهِم يَرْمِى إِلَى الْكُفْرِ وَتَشْهَدُ بِذَالِكَ مُؤَامَرَاتُهُمْ الْكَائِنَةُ عَلَى رُءُوسِ الأَشْهَادِ حَيْثُ قَالَ تَعَالَى :

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة : ١٠٨] .

فَمَبْلَغُ غَايَتِهِم كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلا

تتّخذوا منهُمْ أوْلِيَاءَ ﴾ [النساء : ٨٩] .

واعْلَمْ بأنَّ سُلُوكَ أهْلِ الكتَاب مُنْذُ صدْرِ الإسْلاَمِ عَلَى نَمَط واحد لَمْ يَتَغَيَّر وإن تَطَوَّرَ ﴿ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [آل عمران : ٧٢] .

وَقَدْ نَهَى اللَّهُ عَنْ اتخاذِ اليَهُودَ والنَّصارَى أولياءَ ﴿ وَلا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا﴾ [النساء : ٨٩] .

وَقَدْ قَضَى رَبُّ العبَادِ أنّ مَنْ يَتّخذهُمْ أوْلِيَاءَ فَقَدْ صَارَ مِنْهُمْ وَظَلَمَ نَفْسَهُ وَقَد حكَمَ اللَّه بأنَّ مَنِ اتَّخَذَهُم أوْلِيَاءَ بأنَّ في قَلْبِهِ مَرَضٌ لأنَّهُ يَخْشَى أنْ تَدُورَ عَلَيْهِ دائِرَةُ مُؤَامَرَاتِهِمْ الغَادرَة . فَسَابقْ وَسَارعْ لنَيْلِ شَرَف ولاَيَتِهِم وَصَدقَاتِهِمْ وَرُبَّمَا العَمَلُ فى . خدْمَتِهِم . عَلَى أمَلِ النَّجَاة مِنْ مُؤَامَرَاتِهِمْ .

وَلَسَوفَ يَنْدَمُ هَؤُلاَء عَلَى فعْلَتِهِمْ فَقَالَ تَعَالَى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥١) فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾ [المائدة : ٥١ ، ٥٢] .

ولاَ يَصحُّ أنَ يَبْتَغِى الْمُؤْمنونَ العزَّةَ لَدَى الكافرينَ وَلاَ لَدَى الَّذينَ يَتَّخذونَ الكَافِرينَ أوْلياءَ من دُونِ المؤمنينَ - لأنهم أهْلُ نفَاق وكُفْر - فراراً مِنْ سُوءِ مآلهِمْ ﴿ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء : ١٤٠] .

وقَالَ تَعَالَى : ﴿ لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلاَّ أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾ [آل عمران : ٢٨] .

وَفيهِ أنَّ الرضَا بِالكُفْرِ كُفْرٌ وَمُوالات الكَافِرِين كُفْرٌ - لذَلكَ يَنْبغى أنْ تكُونَ الوَلاَيَةُ مُنْصرِفَةً عَن هَؤُلاَءِ إلَى إخْوَة الدين .

وفيهِ النَّهيِ عَنِ مُوالاَتِهِمْ وَلَوْ بِسَبَبِ القَرَابَة - أوْ الرضَا عن السلُوك لخَشْيَة وُقُوعِ الضَّرَرِ البَالِغِ مِنْ اطِّلاعِ الكُفَّارِ عَلَى عَوْرَاتِ المُسْلمينَ وكَذلكَ للحيْلُولَة دُونَ الاختِلاَط

مَعَ شاهدى الزُور ـ قَاذفى المُحْصينَات شَاربى المُسْكِرات . الزنَّاةُ . المُغْتصبُونَ للأمْوَال والمرُابُونَ ـ فَلا يَحْصُلْ مِنْ وَلاَيَتِهم إلا الضَّررِ والخَرَابِ ـ ولَيْسَ أدَلُّ عَلَى ذَلكَ إلاَّ التَّشْبيه البَليغ الَّذى ذَكَرَهُ اللَّهُ تعَالَى فى قَوْله الكريم :

﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت : ٤١] .

الولاية الحق

قال تعالى : ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة : ٧١] .

وفى اللُّغَة : أَوْلَى فُلاَنًا الأَمْرَ . جَعَلَهُ وَالِيًا عَلَيْهِ ، وأَوْلَى فُلاَنًا مَعْرُوفًا : صَنَعَهُ إِلَيْهِ ، وَالَى بَيْنَ الأَمْرَيْنِ مُوالاةً وَوَلاَءً : تَابَعَ .

وَوَالَى الشَّيءَ : تَابَعَه ـ وَوَالَى فُلانًا أَحَبَّهُ ونَصَرَهُ (١) .

الوَلاَيَةُ ضِدّ العَدَاوَةِ وَمَعْنَاهَا : القُرْبُ

وَصَفَ اللَّهُ تَعَالَى المُؤْمنينَ او بَيَّنَ مَا يَجِبُ أَنْ يكُونُوا عَلَيْهِ بِكَوْنِ بَعْضُهُم أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ بالاسْتعلاَءِ فَوْقَ الْهَوَى و الْمَيْلِ والنَّفْسِ ممَّا تَمِيلُ الفطْرةُ إِلَى حُصُولِه وبِسَبَب الْمُشَارَكَة فِى التَّوفِيقِ والهدَاية فِى الأَفْعَال الخَمْسَة الَّتِى قَالَ تَعَالَى عنها : ﴿يأمُرُونَ بالمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ ﴾ أُولئكَ لَهُم البُشْرَى بثَوابِ الآخرَةِ. ﴿سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[التوبة : ٧١].

وقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَأُوْلُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ ﴾ [الأنفال : ٧٥].

وعِنْدَمَا يُصْبِحُ أُولُو الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ، والمؤْمِنُونَ والمؤمنَت بَعْضُهم أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ . يَصِيرُ الأَمْرُ إِلَى الأَسْمَى شَرَفًا والأنبل غَايةً فِى أَمْرِ الوَلاَيَة فَيَكُونَ الْجميعُ أَوْلياءَ اللَّه الَّذِى آمَنَهُم مِنَ الخَوْفِ وسَلَّمَهُم مِنَ الحُزْنِ ، وصَارَتْ لَهُم البُشْرَى فِى الأُولَى وَفِي الآخرَةِ نَظِير قَوْلِه تعالَى :

﴿ أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣) لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [يونس : ٦٢ : ٦٤] .

---

(١) المعجم الوجيز : ص٦٨٢ .

وكَمَا تَقَدم فَإنَّ وَلاَيةَ الكُفَّارِ كُفرٌ .

« وَوَلاَيَةُ اليَهُودِ والنَّصرَىَ تُؤَدِى إِلَى التَّهْوِيدِ أَوْ التَّنْصِيرِ » .

﴿ وقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نصَارَىٰ تَهْتَدُوا﴾ [البقرة : ١٣٥]

أىْ قَالَت اليَهُودُ : كَونُوا يَهُودًا ، وقَالتِ النَّصَارَىَ : كُونُوا نَصَارَى

﴿هُنَالِكَ الْوَلايَةُ للَّه الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ [الكهف : ٤٤] .

كما قال تعالى :

﴿ بَلِ اللَّهُ مَوْلاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِين ﴾ [آل عمران : ١٥٠] .

الباب السابع
الفضل الكبير
أولا : الإرث العظيم

قَالَ تَعَالَى : ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ [فاطر : ٣٢] .

اتفق أَكْثَرُ الْمُفَسرينَ عَلَى أَنَ الْمُرَادَ مِنْ الكِتَبِ [القُرْآنُ] .

وعلَيْهِ فَإِنَّ الْمُصْطَفِينَ مِنَ الْعِبَادِ هُمَ الذِّينَ اسْتَحقُّوا الْكِتَابَ بالإِرْثِ .

والإِيرَاث : الإِعْطَاءُ بَعْدَ ذَهَابِ مَنْ كَانَ بِيَدِ الْمُعْطِى . وَالوَارِثِينَ لِلْكِتَابِ هُمْ أَشْرافُ الأمَّةِ لقَوْلِه ﷺ : « أَشْرَافُ أُمَتِي حَمَلَةُ القُرْآنِ وَأَصْحَابُ اللَّيْلِ » .

والظَّاهِرُ فِي الْمَعْنَى : آتَيْنَا القُرْآنَ لِمَنْ آمَنَ بِمُحَمَّدٍ وَأَخَذُوهُ مِنْهُ وصَارَوُا إِلَى ثَلاثَة .

فَكَانَ مِنْهُمْ الظَّالِمُ: وَهُوَ [المُسِيءُ] الَّذِى يَضَعَ نَفْسَهُ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهَا [عِنْدَ الْمَعَصِيَةِ] كَقَوْلِهِ ﷺ: « لاَ يَسْرِق السَّارِقُ حِينَ يَسْرِقْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ .. الحديث» وَمَا رُوِىَ عَن عُمَرَ ﷺ (ظَالِمُنَا مَغْفُورٌ لَّهُ) وَهُوَ مَا قَضى بِالفَصْلِ فيه القُرْآنُ الْكَرِيمُ لِحَسْمِ الْمُشْكلَة ـ فِي حِكَايَةِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلاَمْ لَمَّا دَعَا رَبَّهُ ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا﴾ [الأعراف: ٢٣] ، وفيه بَاءَ آدَمُ بالذَّنْبِ وَدَعَا رَبَّهُ بِطَلَبِ الْمَغْفِرَةِ ﴿ فَاغْفِر لَنَا ﴾ [الأعراف : ١٥٥] ، ﴿ فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة : ٣٧] .

وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ : وَهُمُ الَذِينَ قَالَ اللَّهُ عَنْهُم: ﴿ وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة : ١٠٢] .

وَمِنْهُم سَابِقٌ بِالْخَيراتِ :الَّذى جَرَّدَ أَعْمَالَهُ عَنِ السَّيِّئاتِ وَنَزَّهَهَا وَجَمَّلَهَا خَالِصَةً لِلَّه ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِم﴾ [التوبة :١٠٢] .

ـ بِإِذْنِ اللَّه ذَلِكَ هوُ الفَضْلُ الكَبِير : الفَضْلُ الْكَبِيرُ عَلَى الْمشهُورِ فِي التَّفَاسِيرِ هُوَ عُمُوم الإِيرَاث مَعَ خُصُوصِ المورِّث . فهو القرآن الكريم .

وَيذْكر الدَّارِ تَعْلِم المدْخَلَ الَّذى تَدْخُلُه وَقَدْ أَدَّى إِلَيْهِ الْعِلْمُ السَّابِق . نَظير قَوْلُهُ

تَعَالَى : ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ ﴾ يَدْخُلُونَهَا وَفيه تَقَدَّمَ الدَّارُ عَلَى الْمَدْخَلِ وَهُوَ مَا يُحَقِّقُ أَمَلَ النَّفْسِ وَبَهْجَتَهَا وَيُطَمْئِنُ الْقَلْبَ وَيُرْزَقُ السَّلاَمَةَ وَالنَّجَاةَ لِمَا عَلِمَ بِمَقَرِّ دَارِهِ قَبْلَ دُخُولِ بَابِهِ وَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى :

﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ [فاطر : ٣٣] .

﴿ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ (٣٤) الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ [فاطر : ٣٤ ، ٣٥] .

قال تعالى : **﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾** [الأنبياء : ١٠٥] .

أولاً : قوله تعالى : **﴿ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾** فيه وُجُوهٌ .

أَحَدَهَا : الأَرْضُ أَرْضُ الجَنَّةِ وَالعِبَادُ الصَّالِحُونَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ العَامِلُونَ بِطَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى ـ فَالْمَعْنَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى كَتَبَ فِي كُتُبِ الأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلاَمُ وَفِي اللَّوْحِ المَحْفُوظِ أَنَّهُ سَيُورِثُ الجَنَّةَ مَنْ كَانَ صَالِحًا مِنَ عِبَادِهِ وَهُوَ قَوْلُ ابنُ عَبَّاسٍ ﷺ وَمُجَاهِد وَسَعِيد ابنْ جَبِيرٍ وعِكْرِمَةَ والسّدي وَأَبِي العَالِيَة وَهَؤُلاَءِ أَكَّدُوا هَذَا القَوْلَ بِأُمُورٍ :

أَمَّا أَوَّلاً : فَقَوْلُهُ تَعَالَى : **﴿ وَأَوْرَثَنَا الأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾** [الزمر: ٧٤].

وَأَمَّا ثَانِيًا : فَلأَنَّهَا الأَرْضُ التَّى يَخْتَصُّ بِهَا الصَّالِحُونَ لأَنَّهَا لَهُمْ خُلِقَتْ ، وَغَيْرُهُم إِذَا حَصَلَ مَعَهُمْ فِي الَجنَّة فَعَلَى وَجْهِ التَّبَعِ فَأَمَّا أَرْضُ الدُّنْيَا فَلأَنَّهَا لِلصَّالِحِ وَغَيْرِ الصَّالِحِ .

وأما ثَالثًا : فَلأَنَّ هَذه الأَرْضُ مَذْكُورَةٌ عَقِبَ الإِعَادَةِ ، وَبَعْدَ إِعَادَةِ الأَرْضِ التَّي هَذَا وَصْفُهَا لاَ تَكُونُ إِلاَّ الجَنَّةَ .

وأَمَّا رَابِعُهَا : فَقَدْ رُوِىَ فِي الْخَبَرِ أَنَّهَا أَرْضُ الَجنَّة فَإِنَّهَا بَيْضَاءَ نَقِيَّةٌ .

ثانيـا :

أَنَّ الْمرَادَ مِنَ الأَرْضِ أَرْضُ الدُّنْيَا فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالى سَيُورِثُهَا الْمؤْمِنِينَ فِي الدُّنْيَا وَهُوَ قَوْلُ الْكَلْبِي وَابْنُ عَبَاسٍ فِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ ، وَدَلِيلُ هَذَا القَوْلُ : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ

الَّذينَ آمَنُوا منكُمْ وَعَملُوا الصَّالحَات لَيَسْتَخْلفَنَّهُمْ في الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذينَ من قَبْلهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دينَهُمُ الَّذي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْد خَوْفهِمْ أَمْنًا﴾ [النور:٥٥] ، وقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ قَالَ مُوسَىٰ لقَوْمه اسْتَعينُوا باللَّه وَاصْبرُوا إنَّ الأَرْضَ للَّه يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ منْ عبَاده وَالْعَاقبَةُ للْمُتَّقينَ﴾ [الأعراف : ١٢٨] .

ثالثا : هى الأرض المقدسة يرثها الصالحون . ودليله قوله تعالى : ﴿ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتي بَارَكْنَا فيهَا﴾ [الأعراف:١٣٧] .

ثُمَ بِالآخرَة يُورِثُهَا أُمَّةَ مُحمَّد ﷺ عِنْدَ نُزُول عِيسَى عَلَيْه السَّلاَمُ (١) . .

وَعنْدى :

أَميلُ إلَى القَوْل الأَوَّل في أَحْدهَا وَهُو مَا قَالَ بِهِ ابنُ عَبَّاس ﷺ وَمُجَاهد، وَسَعيد ابنُ جُبَير، وَعكْرمَة والسدى، وَأَبى العَالية .

لأَنَ الإِيرَاثَ هَهُنَا كَائنٌ بَعْدَ الإِعادَة إذْ إنَّ الأَرْضَ الَّتى كَانَتْ للصَّالحينَ وَغَيرُ الصَّالحينَ ـ مُدَّتْ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا الأَرْضُ مُدَّتْ ③ وَأَلْقَتْ مَا فيهَا وَتَخَلَّتْ﴾ [الانشقاق : ٣ ، ٤] فَأَجْزَاءُ الأَرْضِ تَبْقَى ولَكنَّها تَتَبَدَّلُ بَالْكُلِّية كَمَا قَالَ تَعَالَى :﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ﴾ [إبراهيم : ٤٨] .

وَهُو مَا يَرْقى به إلَى اليَقِين مَا قَالَ تَعَالَى فيه : ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ للَّه الَّذي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الأَرْضَ نَتَبَوَّأُ منَ الْجَنَّة حَيْثُ نَشَاءُ فَنعْمَ أَجْرُ الْعَاملينَ﴾ [الزمر : ٧٤] .

(١) من: أولا حتى ثالثا : نقلا عن كتاب مفاتيح الغيب ص٢١٤/ ٢١٥ جـ١١ .

ثانيا : مشروعية التوسل

شَرَعَ اللَّهُ الدُعَاءَ وَالتضرُّعَ إِلَى ذَاته الْمُقَدَّسَة منْ دُون وَسَاطة أَوْ إشْرَاك .

وَهُوَ مَا يُبيِّنُه القُرآنُ الْكَرِيمُ حَالَ خطَاب اللَّه تَعَالَى لِرَسُوله الْكَرِيم في غَيْر مَوْضع عَمَّا قَدْ يَكُونَ منْ الأَسْئلَة الَّتى بِأَجْوبَتها تَحْصُلَ السَّلاَمَة وتَتَحقّقُ النَّجَاةُ فى حياتهم الدُّنْيَوِيَّة أو الآخرَة .

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَة ﴾ [النازعات : ٤٢] .

﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُم ﴾ [النساء : ١٤٦] .

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾ [الإسراء : ٨٥] .

يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفقُونَ قُلِ مَا تُنْفقُونَ من خَيْرٍ فَلِلْوِلدَين .

وكُلُّهَا أَسْئلَةٌ تُعَبرُ عَنْ مَدَى اهْتِمامهِمْ بالدُّنْيَا واشْتِغَالِهمْ بِهَا وَهُو حَالُ العَامَّة من النَّاسِ .

فَإِذَا وَقَعَ السُّؤَالُ منَ الْخُصُوصِ الَّذينَ نَسَبَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى لِذَاته الْكَرِيمَة تَشْرِفًا لَهُمْ وتَكْرِيمًا ﴿ عِبَادِي ﴾ فى قَوْله تَعَالَى ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي ﴾ [البقرة : ١٨٦] .

فالعبادُ هُمْ عبَادُ اللَّه وَعَبيدُهُ وَالياءُ يَاءُ النَّسَب .

فَإِذَا سَأَلَ السَّائلُ عَن طَرِيق اللَّه أَوْ سَأَلَ اللَّهَ مَسْأَلَةً لَوَجَدَ اللَّهَ قَرِيبًا يُجِيب دَعْوَةَ الداعى إِذَا دَعَاهُ ـ وَفيه إِشَارَة إلى تَعْظِيم حَال الدُّعَاء وشَأنه وتُبشر الآيَةُ الْكَرِيمَةُ إِلَى دَلاَلَة هَامَّة مُؤدَّاهَا أَنَّ سُؤَالاً وَقَعَ عَنْ ذَات اللَّه تَعَالَى أَوْ صفَاته أَوْ أفْعَاله .

والسؤال عَنِ الفعْلِ كَائِنٌ : عَلَى مَعْنَى هَلْ يَتَحَقَّق قَصْدُهُم وَيُسْتَجَابُ لدُعَائهمْ؟ ودَالَّةُ ذَلكَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ : ﴿ فَإِنِّي قَرِيبٌ ﴾ وَلَيْسَ المُرَادُ بالقُرْب هُنَا قُرْبَ الْمَكَان والجِهَة إِنَّمَا هُو قُرْبُ الإِحَاطَة وَالعلْم وَالْحفْظ لقَوْلهِ تَعَالَى ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾ [الحديد : ٤] ، ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْه مِنْ حَبْلِ الْوَرِيد ﴾ [ق:١٦] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُور﴾ [غافر : ١٩] وَقَدْ قَالَ تَعَالَى : ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُم ﴾ [غافر : ٦٠] .

قَالَ ﷺ :« الدُّعَاءُ مُخُّ العِبَادَة ».

وعَنِ النُّعمَانِ بن بشير أَنَّهُ ﷺ قَالَ : « الدُّعَاء هُو العبَادَةُ » .

رُوِى عَنْ أَبِى سَعِيد الخُدْرِى قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ: « دَعْوَةُ الْمُسْلِمِ لاَ تُرَدُّ إلاَّ لاِحْدَى ثلاث مَالَمْ يَدْعُ بإثْمٍ أَوْ قَطيعَة رَحم ، إمَّا أَنْ يُعَجل لَهُ فِى الدُّنْيَا ، وإمَّا أَنْ يَدخرَ لَهُ فِى الآخرَة ، وإمَّا أَنْ يُصْرَفَ عَنْهُ مِنَ السُّوء بقَدْرِ مَا دَعَا » .

ونَحْنُ مَأمُورُونَ بالدُّعَاءِ لِقَوْلِه تَعَالَى : **﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَة ﴾** [الأعراف: ٥٥].

وَفيه : الدُّعَاءُ : رَأْسُ العبَادَاتِ لقَوْله تَعَالَى **﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِين ﴾** [غافر : ٦٠] .

والثَّابتُ عندى أَنَّ الدُّعَاءَ هُنَا العبَادَةُ .

واعلَمَ: أَنَ قَبُولَ الدُّعَاء مُرْتَهِنٌ بِطِيبِ الْمَطْعَمِ لِقَوْلِه ﷺ . « يا سَعْد : أَطبْ مَطْعَمَكَ تكُنْ مُستَجَابَ الدَّعْوة » .

قَالَ تَعَالَى :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِه لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [المائدة : ٣٥] .

فِيه بَيَانٌ بمَجْمُوعِ التكَالِيفِ الشرْعيَّة التَّى تَحَدَّدَتْ فى تَرْكِ الْمنهيَّاتِ وإتْيانِ الطَّاعَات.

الأَوَّل : إتيَانُ الطَّاعَاتِ نَظيرُ قَوْلُه **﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِى الْقُرْبَى ﴾** .

الثَّانى : تَرْكِ الْمَنْهيَّات نَظيرَ قَوْلَه تَعَالَى **﴿ وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْىِ ﴾**.

وقَدْ تَقَدَّمَ فِى الآيَة [المائدة : ٣٥] التَّرْكَ عَلَى الفعْلِ لأنَ التَّرْكَ إهْمَالُ الشَّىء وبَقَاؤُهُ عَلَى حَالَة العَدَمِ الأصْليَّة لأنَّ الْعَدَم سَابقٌ عَلَى الوُجُود ، والْفعْلُ هُوَ وُقُوعُ الشَّىء وتُحْصيله .

بذَلكَ يكُونُ عَيْنُ الْوَاجب تَرْكُهُ : هو الْمُحَرَّمَات .

والَّذى يَجبُ فعْلُه: الوَاجبَات .

بهَذَا تكُونُ الْوَسيلَةُ إلَى اللَّه سَبيلٌ لِتَحْصِيلِ مَرْضَاته عَنّ طَرِيقِ الاشْتغَالِ بِالعِبَادَاتِ

وَالطَّاعَات وَالانْتِهاء عَنِ المُحَرَّمَات وَالْمَنْهِيَّات .

ـ ﴿ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ .

الجِهَادُ : تَقَدَّمَ القَوْلُ فيه عِنْدَ أَكْثَر مِنْ مَقَام .

تُفْلِحُون : الفَلاحُ اسْمُ جِنْسٍ جَامعٍ مانعٍ لِلنَّجَاة مِنْ الشُرُور والخَلاَصِ مِنَ المكْرُوه فِي سَبِيلِ الفَوزِ بالمُراد والمرغُوبِ من السَّعَادَات وَالخَيرات .

* * * * *

وَلاَ يجبُ أن يَقَعْ الْمُؤْمِنُ فِى الشّرْك حَال دُعَائه كَأنْ يَقُول: [اللَّهُمَّ بِحَق فُلاَن أَوْبحَقْ سَيّدنَا . . . اللَّهُم بحَق اللَّيْلِ أَوْ الشَّمْسِ أَوْ القَمَر .

إنَّمَا يَكُونُ الدُّعَاءُ خَالصًا لوَجْهِه الْكَرِيم . مِن دُون شِرْكٍ أوْ إشْرَاكٍ وَلَقدْ تَوَقَّفْتُ عِنْد كَلمَات القُرآن كَلمَةً كَلمةً لأسْتَخْلصَ مِنْهَا ولأتَعَلَّمَ كَيْفِيَةَ الدُعَاء الصَّحِيحِ السَّلِيمِ كَمَا قَالَ بِه أَنْبِيَاءُ اللَّه وَرُسُلِه الكِرَامُ ـ وَكَمَا أَوْرَدَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي القُرْآنِ الكَرِيمِ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ (عَلَيْهِم السَّلاَمُ) .

فَلَمْ أَجِدْ حَرْفًا مِن حُرُوف النّدَاء التّي تَعَلَّمْتُهَا (يَا ـ أَيَا ـ هَيَا ـ الهَمْزَةُ ـ أَيُ) وَقَدْ جَاءَ فِي مُقَدمَة دُعَاء مَّا أَو وُضِعَ عَلَى رَأْسه : مِثْل (يَارَبَّ) أَوْ (يَارَبَّنَا) فَنَظرًا لتَنَاهِي قُرْب اللَّه تَعَالَى من عبَاده وَجَبَ حَذْفُ أَدَوات النَّدَاء كُلّها وَصَدَقَ اللَّهُ العَظِيمُ القَائلُ : ﴿ فَإِنّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ لأنَّهُ كَمَا قَالَ تَعَالَى .

﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق : ١٦] .

﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُم﴾ [المجادلة : ٧] .

أ ـ الدُّعَاءُ منَ السُّنَّةِ النَّبويَّةِ المُطَهَّرَة

المُلاحَظ أنَّ رَسُول الله ﷺ كَانَ يستأنف أدْعِيَتَهُ بحمْد اللَّه وَتَكْبِيره وإجْلاَله وتَسْبِيحه . والثَّناء عَلَيْه بِمَا هُو أهْلٌ لَهُ . ثُمَّ يَنْخرطُ في دُعَائه المُرَادُ من ربِّ العَباد فَيسأل اللَّهَ منْ فَضْله مَا شَاء أنْ يَسْأَلَ وَيَطلب ما أرَادَ أن يَطْلبَ :

وَرَسُولُ ﷺ كَانَ يَتَعبَّدُ بِالدُّعَاءِ لِقَوْلِه ﷺ : « الدُّعَاءُ مُخُّ العِبَادَةِ » وَفي رِوَايَة [هُوُ العِبَادَة] .

وأرى بأنّ الدُّعَاءَ عَامٌّ : جَامعٌ لِمَا شئْتَ أنْ تَدْعُو اللَّه بِهِ وَهُوَ مَشْمُولٌ بالإجَابَة عَلَى النَّحْوِ الَّذِى تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ **ادْعُونى اسْتَجِبْ لَكُمْ** ﴾ .

أمَّا السُّؤَالُ فَإنَّهُ خَاصٌّ لِمَا شئْتَ أنْ تَدْعُو اللَّه بِهِ . وَهُوَ مُرْتَهِنٌ بالاضْطِرَارِ وَالإكْرَاه كَقَوْلِه تَعَالَى: ﴿ **أمَّن يُجيبُ الْمُضْطَرَّ إذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوء**﴾ [النمل : ٦٢]، وَهُوَ مُلاَقٍ لِقَوْلِه تَعَالَى: ﴿**وَاسْأَلُوا اللَّهَ من فَضْلِه** ﴾ [النساء : ٣٢] .

مِن أدْعيته ﷺ :

* « أمْسَيْنَا وَأمْسَى المُلْكُ للّه . وَالْحمدُ للَّه ـ لاَ إلَه إلاَّ اللَّه وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ لَهُ الْمَلكُ وَلَهُ الْحَمدُ وَهُو عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِير ، رَبِّ أسْألُكَ خَيْرَ مَا في هَذه اللَّيْلَةَ وَخَيْرَ مَا بَعْدَهَا وأعُوذُ بِكَ مِن شَرِّ هَذهِ اللَّيْلَة وَشرِّ مَا بَعْدَهَا رَبِّ أعُوذُ بِكَ مِنَ الْكَسَلِ وَسُوء الْكبرِ رَبِّ أعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابٍ فِى النهَارِ وَعذَابٍ فِى الْقَبْرِ ». رَوَاهُ مُسْلم ـ وَإذَا أصْبَحَ قَالَ ذَلكَ أيْضًا ـ أصْبَحْنَا وَأصْبَحَ الْمَلكُ للَّه .

* « اللهُمَّ بِكَ أصْبَحْنَا وَبِكَ أمْسَيْنَا وَبِكَ نَحْيَا وَبِكَ نَمُوتُ وَإليكَ النُّشُورُ وَإذَا أمْسى فَلْيَقُلْ ـ: اللَّهُمَّ بِكَ أمْسَيْنَا وَبِكَ أصْبَحْنَا وَبِكَ نَحْيَا وَبِكَ نَمُوتُ وَإلَيْكَ الْمَصيرُ». صحيح الترمذى .

سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ عَدَدَ خَلْقِهِ وَرِضَا نَفْسِهِ وَزِنَةَ عَرْشِهِ وَمِدَادَ كَلِمَاتِهِ «صحيح مسلم .

* « يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ أَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ وَلاَ تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ وَلاَ إِلَى أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ » (الحاكم) .

* « اللهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لاَ إِلَهَ إِلاَ أَنْتَ خَلَقْتَنِي وأَنَا عَبْدُكَ ، وأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ أَعُوذُ بِكَ مِن شَرِّ مَا صَنَعْتُ ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ وأَبُوءُ بِذَنْبِي فَاغفِرلِي فَإِنَّهُ لاَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَ أَنْتَ » البخارى .

ب ـ الدعاء فى القرآن الكريم

اشْتَمَلَ القُرْآنُ الكَرِيمُ واحتَوَى عَلَى أَعْظَمِ وأَكْمَلِ الأَدْعِيَةِ وأَسْمَاهَا قِيمةً وأَرْفَعَهَا مَعْنَىَ . بِمَا يُحَقِّقُ للمُؤْمنِينَ النَّجَاةَ ويَكْتُبَ لَهُمُ السَّلاَمَةَ مِنْ كَذِبِ الدُّنْيَا وافتِرَاءَاتِهَا وأَخْطَائِهَا وسَهْوِها ـ بمَغْفِرةِ مَا وَقَعَ مِنَ الذُّنُوبِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمَعَاصِ ومِنْ ثَمَّ يكُونُ التَّوسُّلُ بِسؤَالِ اللهِ مِنْ فَضْلِه لِلفَوْزِ بِنَعِيمِ الجِنَانِ الَّتِى وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ .

وَنُورِدُ بَعْضًا مِمَّا يَجِبُ أَن نَتَعَلَّمَ وَأَنْ نَحْفَظَ مِنَ الأَدْعِيَةِ الشَّرِيفَةِ مِمَّا وَرَدَتْ فِى القُرآنِ الْكَرِيمِ وَمَا وَرَدَ فِى شَأْنِ إِجَابَتِهَا .

قَالَ تَعَالَى :

* ﴿ رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة : ٢٨٦] .

* ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ ﴾ [الأحقاف : ١٥] .

* ﴿ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ (٩٧) وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴾ [المؤمنون : ٩٧ : ٩٨] .

* ﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (١٤٦) وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (١٤٧) فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [آلَ عِمْرانَ : ١٤٦ ، ١٤٨] .

* ﴿ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (١٠٩) ﴾ [المؤمنون : ١٠٩] .

ولأُولِى الأَلْبَابِ دُعَاءٌ :

﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٩١) رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ (١٩٢) رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا

فاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ (١٩٣) رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ [آل عمران : ١٩١ : ١٩٤] .

وكَانَ جَوَابُ اللَّهِ لَهُمْ ﴿ لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴾ [آل عمران : ١٩٥] .

*** دُعَاءُ عِبادُ الرَّحْمَنِ :**

﴿ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ [الفرقان : ٦٥] .

هَؤلاء الذين ﴿ يَبِيتُون لربهِمْ سُجدًا وقيامًا ﴾ [الفرقان: ٦٤] .

قَدْ عَلِمُوا بِمَا قَالَ ﷺ: « أقْرَبُ مَا يكُونُ العَبْدُ من رَبِّه وَهُو سَاجِدٌ لهَذا فَقَدْ أَخْلَصُوا العِبَادَةَ للَّه ولِسانُ حَالِهِم يَنْطِقُ بأَنَّ مَا حَمَلَهُمْ عَلَى ذَلِكَ إلاَّ رَجَاءُهُمْ في اللَّهِ تَعَالَى أن يَصْرِفَ عَنْهُم عَذَابَ جَهَنَّمَ لأنَّها سَاءَتْ مُسْتَقرًا وَمُقَامًا .

*** دُعَاءُ الأَشُدِّ (١) :**

﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأحقاف : ١٥] .

واسْتَحَقُّوا وَعْدَ اللَّه بِقَوْلِه تَعَالَى : ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ [الأحقاف: ١٦] .

*** دعاء الكُرَمَاء :**

﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحشر : ١٠] .

*** دُعَاءُ التَّوَّابِينَ :**

وَهُمْ مَنْ سَلَكُوا طَرِيقَ النَّجَاة بِالتَّوبَة والإيمَان والعَمَلِ الصَّالِحِ ولَمْ يَشْهَدُوا زُورًا ولَمْ يَقُولُوا بِلغْوٍ ولَمْ يُعْرِضُوا عَنْ آيَاتِ اللَّه . أُولَئِكَ الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى حِكَايَةً

(١) الاكتمال : يقال: بلغ أشده : اكتمل وبلغ قُوَّته وتقال : لمن بلغ الاربعين .

عَنْهُم : ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ [الفرقان : ٧٤] .

فَقَضَى اللَّهُ فِيهِمَ : ﴿أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلامًا (٧٥) خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان : ٧٥ ، ٧٦] .

﴿رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴾ [آل عمران : ٨] .

دُعَاءُ الحُنَفَاء :

الَّذِينَ أَسْلَمُوا وُجُوهَهُم لله والْتَزَمُوا بالدينِ الخَالِص . وأَخْلَصُوا فى أَدْعِيَتِهِم لله تَعَالَى ، واتَّصَفَتْ أَدْعِيتُهُمْ بالشُّمُول فَتَنَاوَلَتْ الْبُلْدَانَ والوِلْدانَ والعَقِيدَةَ والوِجْدانَ وتَابِعِى الأَدْيَانَ ، وَحَفَلَتْ بالثَّنَاء عَلَى اللَّه تَعَالَى بِعِلْمه الوَفِير وحِلْمِه الكَبِير ثُمَّ سَأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِه أَنَ يرزُقَهُم صَلاَحَ البَال وَالحَال وأنَ يَرْزَقَهُم المَغْفِرَةَ والعَفْوَ وَمِنَّ ذُرِيَّتِهِم واخْتَتَمُوا بِطَلَب الْمَغْفِرة يَوْمَ يَقُومُ الحِسَاب .

وَيُعْتَبَر نَبِىُّ اللَّه إِبْراهِيمَ عَلَيْه السَّلاَمُ أَوَّلَ الحُنَفَاء المُسْلِمِينَ ـ القَانِتِينَ وَهَذَا دُعَاءُهُ .

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ (٣٥) رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣٦) رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (٣٧) رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ (٣٨) الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٩) رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ (٤٠) رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴾ [إبراهيم: ٣٥: ٤١] .

﴿ وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴾ [المؤمنون : ١١٨] .

ثالثًا : هموم الملائكة

اعْلَم أنّ لِلْمَلاَئكَةِ هُمُومَهُمْ واهتِمَامَاتهِم وانْشِغَالاتِهِمْ في حُدُودِ مَا خُلقوا لأجْلِه.

إذْ تَتَبَايَنُ هَذِه الاهْتِمَامَاتُ وتَتَنَّوعُ تِلْكَ الانْشِغَالاَتُ بَيْنَ العِبَادَةِ والتَّسْبِيحِ والصَّلاةِ والاسْتِغْفَارِ والدُّعَاءِ والتَّبْشِيرِ والسَّلاَمِ ، وضَرْبَ مَوْتَى الظَّالمينَ إلى غَيْرِ ذَلكَ مِنَ مَجْمُوعِ التَّكَاليفِ الَّتِى لاَ يَعْلَمُ كُنْهَهَا وَلاَ مُرادَهَا إلا الَّذِى يَعْلَمُ مَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُو السَّمِيعُ الْعَلِيمُ .

ولَمَّا بَالَغَ الكُفَّارُ فى أَذَى الْمُؤْمِنينَ وَإِظْهَارِ العَدَاوةِ وَالبَغْضَاءِ لَهُمْ . أيَّدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنيينَ بِجُنْدٍ مِنَ عِنْدِهِ يُوالُونَ حُبَّهُم لِلمُؤْمِنِينَ وَيَنْصُرُونَهُمْ عِنْدَ القِتَالِ وَفِي وَقْتِ السَّلاَمِ - بِهَذَا ازْدَادَتْ الْمَلاَئكَةُ هَمّاً عَلَى هُمُومِهَا الَّتِى لاَ تَنْقَطِعْ أَوْ تَتَوَقَّفْ أَوْ تخفف لِمَا سَيَأْتِى بَيَانَهُ .

١- تسبيحهم

قَالَ تَعَالَى : ﴿ **تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ وَالْمَلائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الأَرْضِ أَلا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ** ﴾ [الشورى : ٥] .

قَوْلُهُ : ﴿ **تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ** ﴾ . قَالُوا: تَنْشَقُّ وتَنْفَطِرُ مِنْ هَيْبَةِ مَنْ هُو فَوْقَهَا - فَوْقِيَّةٌ بِالإِلَهِيَّةِ والقَهْرِ والْمُقْدَرَة .

وَقَالَ آخرون : أَىْ مِنْ هَيْبَتِهِ وَجَلالِه.

وَوَقَع فى ذَلكَ كَلامٌ كَثِيرٌ (١) .

وَعِنْدِى : أَنَّ مَنْ عَلَى الأَرْضِ مِن ذُرِيَّةِ آدَمَ الْمَادِيِّينَ هُمْ عَلَى الضد تَمَامًا مِمَّن هُمْ فى السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَمَنْ عِنْد رَبِّكَ مِنْ خَلْقِهِ النُّورَانِيين قَالَ عَنْهُم سُبْحَانَهَ وَتَعَالَى :

(١) انظر ص٦٦٢ : ٦٦٤ جـ١٣ مفاتيح الغيب وتفسير القرطبى وابن كثير .

﴿ إنَّ الَّذينَ عِندَ رَبِّكَ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴾ [الأعراف:٢٠٦].

وفيه أنَّ الْملائكة الْكِرَامُ لاَ يَسْتكبرُون عَنّ عِبادَة اللَّه تَعَالى وَيُسَبِّحُونَهُ أى [يُنزهُونَهُ] عَمَّا لاَ يَنْبَغِى لِجَلاَلِه ، وَيَسجدُونَ لَهُ اعترافًا بربُوبِيَّتِه وَإقرَارًا بسيَادَتِه وتَعْظِيمًا لألُوهِيَّتِه . لأنَّهُمْ عَلِمُوا أنَّهُم للَّه وَإلَى اللَّه مآلُهُمْ وأنَهُمَ خَلْقٌ مِن خَلْقِه تَعَالَى لاَ يَفتَرُونَ عَنْ تَسْبِيحه طِيلَةَ اللّيْلِ والنَّهَارِ . قَالَ تَعَالَى :

﴿وَلَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلا يَسْتَحْسِرُونَ ⑲ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء : ١٩ : ٢٠] .

مَنْ : مَوْصُولَةٌ بِمَعْنَى الذِينَ هُمْ فِي السَّمَوَاتِ الملائكَةُ .

والذين هُمْ فى الأرْضِ النَّاسُ .

وَهُم بَعْضٌ مِن كُلٍ يَنْتَسِبُونَ إِلَى كُلِّ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَالأرْضِ كَمَا فِى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾ [الروم ٢٦] .

الْمُرادُ بِمَا فِى قَوْلِه ﴿ مَا فِى ﴾ هُوَ كُلّ مَا فِى السَّمَوات مِنَ الْعَرْشِ والملائكَة - والسَّموتِ والنُجُوم والْكَوَاكِبِ وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاء وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا .

وَقَوْلُهُ ﴿ مَا فِى الأَرْضِ مِنّ إِنْسٍ وَجَانٍ﴾ وَمَاءٍ وَهَوَاءٍ وجِبَالٍ وَأَنْعَامٍ وَمَا يَلِجُ فِى الأرْضِ وَمَا يَخرُج مِنْهَا .

بِجميعُ مَا فِى السَّمَوَاتِ والأرْضِ الكل مَسْحُوبِينَ عَلَى التَّسْبِيحِ والقُنُوت مَقْهُورِينَ عَلَى السجود للَّه لانعدَامِ إرَادَتِهِم مَعَ كَيْنُونَة مَشِيئَتِه التَّى خَلَقَتْ مِنَ العَدَمِ الوُجُودَ قَالَ تَعَالَى : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت : ١١] .

مِمَّا تَقَدَّمَ نَجِدُ أنَّ مَنْ فِي الأرْضِ عَلَى الضدِ مِمَّنْ هُمْ فِي السَّمَوات لأنَّهُم

يَفْعَلُونَ السُوءَ - ولاَ يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ . ويَأمُرونَ بالفَحْشَاءِ - ويُبارِزُون اللَّهَ بالْمَعَاصِى : ﴿إلاَّ الَّذينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالحَات وَقَليلٌ مَّا هُم﴾ [ص : ٢٤] .

فَمَنْ فِى السَّمَوات وَالأَرْضِ كُلَّهُمْ لِلَّه أى خَلْقٌ مِنْ خَلْقِه ولَكِنْ : الْتَزَمَ أَهْلُ السَّمَوات بِمَا أَمَرَ اللَّهُ ﴿وتَرَى الْمَلائكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بحَمْدِ رَبِّهِم﴾ [الزمر : ٧٥] .

وأَعْرَضَ الكَثيرُونَ مِنْ أَهْلِ الأَرْضِ عَن تَقْوَى اللَّه مَعَ كَثْرَةِ نِعَمِ اللَّه عَلَيهِمْ : ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِه وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾ [فصلت: ٥١] .

٢ ـ صلاتهم

﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ [الروم : ٤١] .

فَلَمَّا كَثُرَ بِالأَرْضِ الْفَسَادَ وَتَقَاتَل أَهْلُ الأَرْضِ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوت نَاصَرَ اللَّهُ شَرِيطَتَهُ (١) مِنْ أَهْلِ الأَرْضِ . وَمَكَّنَ لَهُم فِيهَا فَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وآتَوْ الزَّكَاةَ وأَطَاعُوا اللَّه وَرَسُولَهُ بِجملَةِ الطَّاعَاتِ كَمَا تَقَدَّمَ ، بَاتَ هَؤلاَءِ مُؤْمِنِينَ حَقًا ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال : ٤] .

ولَمَا وُصِفَ المؤْمنُونَ بِقِلَّةِ الْعَدَدِ قِيَاسًا عَلَى الْكَافِرِينَ وَعَبَدَةُ الطَّاغُوت ـ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى [أَحَبَّهُمُ وَأَحَبُّوهُ] وَهَذَا الحُبُّ أَضحَى مَصْدَر أَمْرِ اللَّه تَعَالَى لَهُم بِذكْرِه كَثِيرًا والاشْتِغَالِ بِتَنْزِيهِهِ بُكْرَةً وأَصِيلاً . وَهُوَ حُبٌّ مُتَبَادَلٌ فَهَؤلاَءِ الْمؤْمنونَ سَبَقَتْ لَهُمُ الحُسْنَى مُقَدَّمًا وَلاَ زَالَتْ مُسْتَمِرَّةً بِاستمرارِ مُزَاوَلَةِ الإحسَانِ إِلَيْهِمْ والصَّلاَةُ عَلَيهُم [هُوَ الَّذِي يُصَلِي عَلَيْكُمْ] أي يَهْدِيكُمْ بِرَحْمَتِهِ وكَذَا مَلاَئِكَتَهُ المكرَمُونَ يُصَلُّون عَلَيْهِم وَصَلاَتُهُم اسْتِغْفَارٌ للمُؤْمِنِينَ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الأَرْضِ ﴾ .

والْمَعْنَى مِنَ ذَلِكَ تَحْرِيض المؤْمنين عَلَى مُدَاوَمَةِ الذِّكْرِ والتَّسْبِيحِ والاشْتِغَال بِهِمَا وَذَلِكَ عَلَى غَيْرِ اخْتِصَاصٍ بِالسَّامعِينَ وَقْتَ الْوَحْيِ ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾ [التكوير : ٢٧ ، ٢٨] .

لِيُخْرِجَكُم مِنَ الظُّلُمَتِ إِلَى النُّورِ : عَلَى سَبِيلِ الاحْتِرَازِ مِنَ الارْتِدَادِ إِلَى الضَّلاَلِ والكُفْرِ وَالفُسوقِ ـ وَفِيهِ دَوَامُ التَّثَبتِ عَلَى طَرِيقِ النُّورِ والهِدَايَةِ والْفَلاَحِ والنَّجَاحِ لأَنَّهُ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ أيْ : فِي القَضَاءِ وَعِنْدَ اللقَاءِ .

---

(١) خاصته .

٣ ـ ثناؤهم ودعاؤهم

قال تعالى : ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (٧) رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٨) وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [غافر : ٧ : ٩] .

قُلْنَا : إنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَيَّدَ الْمُؤْمِنِينَ بِجُنْدٍ مِنْ عِنْدِهِ يُحِبُّونَهُمْ وَيُظَاهِرُونَهُمْ عِنْدَ القِتَالِ وَعِندَ السَّلاَمِ .

فَفِي غَزْوَةَ بَدْرٍ كَانَ الْمُشْرِكُونَ أَكْثَر عَدداً وأشَدُّ بَأسًا وَهُمْ ألفٌ وَزِيَادَةٌ وجَيْش الْمُسْلمينَ مِنْ صَحَابَةِ رَسُولِ اللَّه ﷺ مِنْ ثَلاثمَائة وَنيف ـ فَلَمَّا نَظَر الرَّسُولُ ﷺ إِلَى الفَرِيقَيْنِ قَال: « اللَّهُمَّ أَنجزْ مَا وَعَدَتْنِى ، اللَّهُمَّ إنْ تَهْلَكْ هَذه العصَابَةُ [1] مِنْ أَهْلِ الإسْلاَمِ فَلاَ تُعْبَدُ بَعْد فِى الأَرْض أَبَدًا » [2] قَالَ ابن إسْحَاق : وَرَسُول اللَّه ﷺ فِى العَرِيشِ مَعَهُ أَبُو بَكْرٍ ؓ يَعْنِى وَهُوَ ـ يَسْتَغيثُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلهَ ـ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ (٩) وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الإنفال:٩ , ١٠] ، وفى أخرى : ﴿وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [التوبة: ٤٠] .

وَقَدَ رَوىَ عَلِيٌّ عَنْ أَبِى طَلْحَةَ الوالبى عَن ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : وَأَمدَّ اللَّهُ نبيه والمُؤْمِنِينَ بِألْفٍ مِنَ الْملاَئِكَةِ ، وكَانَ جِبْرِيلُ فى خَمْسمَائَةِ مُجَنَّبة وميكَائيل فى خمسمائة مُجنَّبَّة [3] .

---

(١) الجماعه . (٢) البداية والنهاية ص٣٢٠ جـ٢ .

(٣) المصدر ذاته ص٣٢١ .

فَكَانَ كَمَا قَال تَعَالَى : ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ [آل عمران :١٢٣] .

وكَذلكَ فِى أَوقَاتِ السَّلاَمِ لاَ تَـكُف الْملائكَةُ الْكِرَامُ عَنِ مُنَاصَرَةِ الْمؤْمِنِين وَطَلَب مَغْفِرَةِ اللَّهِ لَهُم لِمَا كَان مِنهُم أَوْلِمَا سَيَقَعُ عَنْهُم كَمَا يَدْعُونَ لَهُمْ بِأَشْرَفَ الأَدْعِيَةِ وأَطْيَبِها.

إنَّ الَّذِينَ يَسْتَغْفِرُونَ للَّذِينَ آمَنُوا هُمْ أَشْرَفْ طَبَقَاتْ الْمَلاَئكَةِ إِنَّهم حَمَلَةُ الْعَرْشِ وَالحَافُّونَ [مِنْ حَوْلِهِ] .

رَوَى صَاحِبُ الْكَشَّاف أَنَّ حَمَلَةَ الْعَرشِ ارجُلُهم فى الأرْضِ السُّفْلَى ورؤوسُهُمْ قَد خَرَقَتْ العَرْشِ وَهُمْ خُشُوعٌ لاَ يَرْفَعُونَ طَرْفَهُمْ .

وعَن النَّبِى ﷺ « لاَ تَتَفَكَّروا فِى عِظَمِ رَبِكُمْ وَلَكِنْ تفكَّرُوا فِيمَا خَلَقَ اللَّهُ تَعَالَى مِنَ الملائكة فَإِنَّ خَلْقًا مِن الْمَلاَئكَة يُقَال لَهُ إِسْرَافِيل زَاوِيةٌ مِنْ زَوَايَا الْعَرشِ عَلَى كَاهله وَقَدَمَاهُ فِى الأَرْضِ السُّفْلَى ، وَقَدْ مَرَقَ رَأْسَهُ مِنْ سَبْعِ سَمَاوَاتٍ وَإِنَّهُ لَيَتضَاءَلُ مِنْ عَظَمَةِ اللَّهِ يَصِيرُ كَأَنَّهُ الْوَصْعُ » الوصْعُ : قِيلَ : طَائرٌ صَغِيرٌ وَرُوِى: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَمَرَ جَمِيعَ الْمَلاَئِكَةِ ان يَغْدُوا وَيَرُوحُوا بالسَّلاَمِ عَلَى حَمَلَةِ الْعَرْشِ تَفْضِيلاً لَهُمْ عَلَى سَائِرِ الخَلاَئق(١) .

إِنَّهَمْ حَمَلَةُ الْعَرْشِ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبحونَ بحَمدْ رَبِهمْ وَيؤْمِنُونَ بِهِ لأَنَّهمْ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى ، وقد سَرَّهُمْ مَا رَأوْا مِنَ الْمؤمنينَ عَلَى الأرْضِ فَأَحَبُّوهُمْ وَرضَوْا بِمَا كَانَ مِنْهُم ، فَأَخذُوا يَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامنُوا ـ حبًّا فِيهِمْ وَرِضاءَ عَنْهُمْ وَشَفَقَةً عَلَيْهِمْ . وَهُمْ فِى سَبِيلِ ذَلكَ يَسْلُكُونَ مَسلكَ الثَّنَاء عَلَى اللَّهِ تَعَالَى: ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا ﴾ .

وَلَقَدْ بَحثْتُ فِي آيَاتِ القُرآنِ الْكَرِيمِ عَنْ غَيْرِ اسْتِعْجَالٍ وَاجْتَهَدْتُ بَحثًا فِي مَعَانِيهَا فَلَمْ أَجِدْ أَبْلَغَ مِـنْ هَـــذَا الثَّنَاءِ الْجَمِيلِ الْجَامِـعِ الْمَانِعِ لِكُلّ مَـقَاصِد الثَّنَاءِ وَالْمَدْحِ

(١) مفاتيح الغيب ص٤٩٩ ، جـ١٣ .

و الإطْراء.

لأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى : ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [البقرة : ٢٥٥] .

وَقَالَ تَعَالَى :﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الإعراف : ١٥٦] .

﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ [الأعراف : ٨٩] .

﴿ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ ﴾ [النجم : ٣٢ .

﴿ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة : ٢٤٧ ، ٢٦١ ، ٢٦٨] .

﴿ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقره : ١١٥] .

فَمَاذَا يكُوُن مِنْ ثَنَاءِ آخرَ عَلَى مَنْ [وَسِعَ كُرْسِيُّهُ] السَّمَواتِ والأَرْضَ ؟، فَمَا بَالُكَ مِنَ الإِلَه العَظِيم وَقَدْ وَسِعَ كُلَّ شَيءٍ رَحْمَةً وَمَغْفِرَةً وَعِلْمًا: أَىْ أَنَّ الْكُلَّ مُنْطوٍ دَارِجٍ تَحْتَ كُرْسِى الْعَرْشِ بِعلْمِ اللَّه وَرَحْمَتِه وَمَغْفِرَته . فَهَلْ يُرَدُّ دُعَاءٌ مقدمُ عليه هَذَا الثَّناءَ العظيم مِنَ المَلاَئكَة الْمُقَرَّبِينَ الذِّينَ جَعَلَهُم اللَّهُ لِتَأْيِيد الْمؤْمنِينَ وَنَصرِتهمْ والدُعَاد لَهُمْ ؟. ﴿ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾ [الحَج : ٧٨] .

هَؤلآء الْجُنُودُ مِنَ الْملاَئكَة يَسْأَلُونَ اللَّهَ مِنْ فَضْله أَنْ يَغْفِرَ لِلْمُؤْمنِينَ ولِمَنْ جَاءَ إِلَيْهِم تَائبًا مُنِيبًا مُرْتَداً عَنِ الكُفْرِ وَالَّطاغُوُت مُتَّبعًا سَبِيلَ اللَّه ثُمَّ سَأَلَوُا اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَقى هَؤَلاء عَذَابَ الْجَحِيم وَيُدْخِلَهُمْ الَجنَّةَ .

وَدُخُولِ الَجنَّة لاَ يَلِيقُ إِلاَّ لأَهْلِ الطَّاعَة وَالعبَادَات .

﴿ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُم جَنَّتِ عَدْنٍ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ ءَابَادِهِم وَأَزْوَاجِهِم وَذُرِّيَتِهِم ﴾ وَالْمُرادُ : إَهْل الإِيمان وَالصَّلاَح (قَصْرًا) .

وَفِى الَحديث : أَنَّ أَهْلَ الإِيمَانِ والصَّلاَحِ هُمُ الَّذينَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ مَعَ الصَّالِحين مِنْ أَهلِيهم مِنْ [ءَابَاءِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وذُرِّيَتهم] لأَنَّ بِها بِاجْتمَاعِ هَؤُلاَءِ يَحْصُلُ كَمَالُ

الابْتِهَاجِ وَالسَّعَادَةِ .

والثَّابِتُ أنَّ الْمَلائِكةَ الكِرَامُ طَلَبُوا إزَالَةَ الْعَذَابِ بِقَوْلِهِم **﴿وقهمْ عذابَ الجَحيم﴾** - كَمَا طَلَبُوا إيصَالَ ثَوَابِ الجَنَّةِ إلَيْهِم بِقَوْلِهِمْ : **﴿ وأدْخلْهُم جنْت عدْنٍ ﴾** وقهُم السَّيِّئَاتِ: الْمُرَادَ : عَذَابَ السَّيِّئَاتِ كَعَذَابِ الْقَبْرِ وَعَذَابَ السُّؤَالِ والْحِسَابِ .

﴿ ومَن تَقِ السَّيِّئات يوْمَئذ فقَدْ رحمْتَه﴾: عَلَى تَقْدِيرِ وِقَايَتِهِمْ مِنَ السَّيِّئَاتِ الَّتِى يُمْكِنُ أن يحدثُوهَا فِي الدُّنْيَا حَتَّى يَرْحَمَهُمُ اللَّهُ يَوْمَ القِيَامَةِ وَذَلِكَ هُوَ الفَوْزُ العَظِيمُ : وَهُوَ النَّعِيمُ غَيْرُ المُنْقَطِعِ لِقَاءَ الْعَمَلِ الْقَلِيلِ وَالجزَاءِ الوفيرِ لِقَاءَ الْجُهْدِ الْقَصِيرِ .

وَهُوَ النَّعِيمُ الَّذَى قَالَ تَعَالَى فِيهِ :

﴿ وإذا رأيْتَ ثَمَّ رأيْت نعيماً ومُلْكاً كبير﴾ [الإنسان : ٢٠] .

٤ ـ البشرى والسلام

قال تعالى : ﴿وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء:١٠٣].

قَالَ الضَّحَّاكُ (١) :

هُمْ الْحفَظَةُ الَّذِينَ كَتَبُوا أَعْمَالَهُم وَأَقْوالَهُمْ ، ويَقُولُون مُبَشْرِينَ لَهُمْ ﴿ هَذَا يَوْمُكُم الَّذِي كُنْتُم تُوعَدُون ﴾

إِنَّهُم مَلاَئِكَةُ اللَّه الْمُقْرِبينَ وَقدْ سَرَّهُم حَالُ الْمُتَّقِينَ الْمُؤْمنينَ فِي الدُّنْيَا ـ فعِنْد تَلَقِيهْم يَوْمَ الفَزَعِ الأَعْظَم يُقَابلُونَهُم بِالبُشْرَى والسَّلَام ويُبَشِّرُونَهُم بِأَنَ هَذَا اليَوْمُ هُوَ يَوْمُ الكَرَامَةِ وَالعطَاءِ وحَسُنُ اللقاء ﴿ هَذَا يَوْمُكُمْ الذَّى كُنْتُمْ تُوعدونَ ﴾ .

إِنَّهُم كَذَلكَ مُشْتَغلُونَ بِحَالِ الْمؤْمنينَ حَتَّى أَنْ يَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِسَلاَمٍ فِي الْمَوَاكِبِ التَّى أُعِدَّتْ لَهُم ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ [الزمر : ٧٣] والْمَلاَئكَةُ يَحفُّونَهُم فِي حَفَاوَةٍ بَالِغَةٍ ويُحيُّونَهُم بِالسَّلاَمِ ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلامٍ آمنين﴾[الحجر:٤٦]﴿ حَتَّى إِذَا جَاؤُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلامٌ عَلَيْكُم طِبْتُم فَادْخُلُوهَا خلدين ﴾ .

وَبَعْدَ دُخُولِهِمُ الْجَنَّةَ يَشْتَغِلِ الْمَلاَئِكَةُ بِالسَّلاَمِ عَلَيْهِم فِى كُلِ حِينٍ مِنَ الأَبْوابِ دَاخِلينَ فَرِحِينَ بِهِمْ مُهَنِّئِينَ لَهُمْ وَبِالسَّلاَمِ قَائلين : كَمَا قَال تَعَالَى :

﴿وَالْمَلاَئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلاَمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد : ٢٤] .

(١) مفاتيح الغيب جـ١١ ص٢١٥ .

صـــــورة

مِنْ صُوَرِ نَعِيمِ أَهْلِ الْجَنَّةِ مَا رَوَى الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمُ عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ ﷺ عن النَّبى ﷺ قال :

« إنَّ أَوَّل زُمْرةٍ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلة البَدْرِ والَّتِي تَلِيهَا عَلَى أَضْوَءِ كَوْكَبٍ دُرِّي فِى السَّمَاء ، وَلِكُلِ امْرِئٍ مِنهُمْ زَوْجَتَانِ اثْنَتَان يُرَى مَعَ سُوقِهِمَا مِنْ وَرَاءِ اللَّحْمِ وَمَا فِى الجَنَّة أَعْزَبُ (١) .

ـ وَرُوِى عَنْ أَنَس بن مَالك ﷺ قَالَ : حَدَّثَنِى رَسُولُ اللَّه ﷺ قَالَ : حَدَّثَنِى جِبْرِيلُ عَلَيْه السَّلاَمُ قَالَ : يَدْخُلُ الرَّجُلُ عَلَى الحَوْرَاء فَتَسْتَقْبِلُهُ بِالمعَانَقَة وَالْمُصَافَحَة . قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ: فَبِأَى بَنَانٍ تَعَاطِيه . لَوْ أَنَّ بَعْضَ بَنَانِهَا بَدَا لغَلَبَ ضَوؤُهُ ضَوْءَ الشَّمْسِ والقَمَرِ ، وَلَوْ أَنَّ طَاقَةً مِنْ شَعْرِهَا بَدَتْ لَمَلأَتْ الْمَشْرِقَ وَالْمغرِبَ مِنْ طِيبِ رِيحِهَا .

فَبَيْنَا هُو مُتَّكِئٌ مَعَهَا عَلَى أَرِيكته إذْ أَشْرَفَ عَلَيْه نُورٌ مِنْ فَوقِه فَيَظُنُّ أنهَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ أَشْرَفَ عَلَى خَلْقه ، فَإِذَا حَوَرَاءٌ تُنَادِيه يَا وَلِىَّ اللَّه أَمَا لَنَا فِيكَ دَوْلة (نَصيبٌ) فَيقُولُ مَنْ أَنْتَ يا هَذه ؟ فَتَقُولُ أَنَا مِنَ اللَّواتى قَالَ اللَّه تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ **وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ**﴾ فَيَتَحَوَلُ عِنْدَهَا فَإذا عِنْدَها مِنَ الْجَمَالِ والكَمَالِ مَالَيْسَ مَعَ الأَوْلَى ، فَبَيْنَا هُوَ مُتكِىءٌ مَعَهَا عَلَى أَرِيكَته ، وإذا حوراء أخرى تناديه يا ولىَّ الله أمَا لَنَا فِيكَ من دَوْلَة؟ فَيَقُولُ مَنْ أَنْت يَاهَذِه ؟ فَتَقُولُ : أَنَا مِنَ اللَّوَاتى قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجلَّ ﴿ **فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِىَ لَهُمْ مِنَّ قُرَّةِ أَعْيُنٍ (٢) جَزَاءَ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُون** ﴾ رَوَاهُ الطَّبَرَانى فَى الأَوْسَط .

---

(١) ص٣٤٣ الترغيب والترهيب الجزء الرابع ، وزارة الأوقاف المصرية .

(٢) السرور والرضا .

خاتمـــة

﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [آل عمران : ١٦٤] .

فَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوانَ اللَّهِ وسَلَكَ مَسَالِكَ السَّلاَمِ . أُولَئِكَ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَهُمْ يَحْزَنُون .

وإن تَبَايَنَتْ أَعْمَالُهُم اخْتَلَفَتْ لَهَا دَرَجاتُهُم عِنْد الله لِكَوْنِهِمْ هُمْ دَرَجَاتٌ فِى منازِلِهِم عِنْدَ اللَّه كَذَلِكَ . فَكَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ اللَّهِ﴾ [آل عمران : ١٦٣] .

أى: درجات فى الأعمال والطاعات .

قال أيضًا : ﴿ لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِم﴾ [الأنفال : ٤] .

أَىْ: لَهُمْ دَرَجتٌ فِي الَجنَّاتِ والنُّزُلِ والمقَامِ مَشمُولٌ بِالْمغَفِرةِ وَالرِزْقُ الْكَرِيمِ أُولَئِكَ هُمْ الْمؤْمِنُونَ حَقًّا وَقَد فَازُوا بِالفَضْلِ الْكَبِيرِ فِى الدُّنْيَا كَمَا وَعَدَهُم بِالْمَغَفِرةِ الوَاسِعَةِ وَالفَضْلِ الْكَبِيرِ بَعْدَ أَنّ أَيَّدَهُمْ بِنَصْرِهِ فِي الدُّنْيَا وَوَعَدَهُمْ بِرَحْمَتِهِ فِى الآخِرَةِ .

فَقَوْلُهُ تَعَالَى لَهُمْ : ﴿ فِى الْحَيَوة ﴾ :

﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالقَوْلِ الثَّابِتِ فِى الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَفِى الآخِرَةِ ﴾ [إبراهيم: ٢٧] .

وقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الحج : ٣٨] .

وَمِنْهُ يَتَّضِحُ أَنَّ اللَّه تَعَالَى قَدْ أَيَّدَ عِبَادَهُ الْمؤمِنِينَ بِنَصْرٍ مِنْ عِنْدِهِ وأَكْرَمَهُم فِى الحيَاةِ الدُّنْيَا بالدِفَاعِ عَنْهُم وتثبيتهم ، وَفِى الآخِرَةِ لَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى .

إنْجَازٌ لوَعْدِ اللَّهِ تَعَالَى لَهُم ﴿وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ [الأحقاف: ١٦] .

إنَّهُم عِبَادُ اللَّهِ الْمؤمنينَ الرَّاضينَ بِقَضَاءِ اللَّهِ تَعَالَى القَانعينَ بحكْمه وَقَدْ أَفْلَحوُا وَفَازُوا كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝٥١ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [النور : ٥١ ، ٥٢] .

وَمَنْ عَمِلَ بِمَا تَقَدَّمَ إِنَّمَا يكُونُ قَدْ استَقَامَ ، والاستِقَامَةُ تَرْزُقُ الأَمْنَ والفَرَحَ والسُّرُور وَتُؤكِّدُ عَلَى وِلاَيَةِ اللَّهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى :

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝٣٠ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ۝٣١ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٠ , ٣٢].

﴿فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة : ١٩] .

ووعد الآخرة مقيد على شرطية سَلِسَةٍ قَالَ تَعَالَى فيهَا : ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص :٨٣].

والسَبِيلُ إِلَى تلْكَ الدَّارِ فى الطَّاعة لقوله تعالى : ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ۝٦٩ ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا﴾ [النساء : ٦٩ : ٧٠] .

هَؤُلاَءِ الْمُطِيعُونَ للَّه وَرَسوله قَدْ آمَنُوا بِاللَّه وَكُتُبِه وَرُسُلِه وأَسْلَمُوا وُجُوهَهُم للَّه ، جَعَلَ اللَّهُ لَهُمْ [الحُبْرةَ] جَزَاءً عَلَى أَعْمَالِهم كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ۝٦٩ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ ۝٧٠ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الزخرف: ٧١].

الحُبْرَةُ : الْمُبَالَغَةُ في الإِكْرَامِ فِيمَا وُصِفَ بالجَمِيلِ : يَعْنِى يُكْرَمُون إِكْرامًا عَلَى سَبِيل الْمُبَالَغَة .

رَوَى مُسْلِم فِي صَحِيحه عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ ﷺ عَنِ النَّبِي ﷺ قَالَ :« مَنْ يَدْخلِ الجنة بنعم ولا ييأس لاَ تَبْلَى ثِيَابُه ولاَ يَفْنى شَبَابُه ، فِى الْجَنَّة مَالاَ عَيْنٌ رَأَتْ ولاَ أُذُنٌ سَمِعَتْ ولاَ خطَر عَلَى قَلْبِ بَشَر » .

ـ رَوَىَ الطَّبَرَانِىُّ : عَنِ عَبدُ الرَّحْمنِ بنْ سَاعِدَةَ رَضِىَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : كُنتُ أُحِبَّ الْخَيْلَ فَقُلتُ : يَا رَسُولَ اللَّه هَلْ فِى الجَنَّة خَيْلٌ ؟ فَقَالَ :« إنْ أَدْخَلَكَ اللَّهُ الْجَنَةَ يَاعَبَد الرَّحمنِ كَانَ لَكَ فِيهَا فَرَسٌ مِنْ يَاقُوتٍ لَهُ جَنَاحَانِ تَطِيرُ بِكَ حَيْثُ شِئْتَ » .

ـ وعَنَ صُهْيب ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُول اللَّه ﷺ:« إذَا دَخلَ أَهْلُ الَجنَّة الجَنَّةَ يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجلَّ : تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدكُمْ مِنْهُ ؟ فَيقُولُونَ: أَلَمْ تبيّضْ وَجُوهَنَا ؟، أَلَمْ تُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ ونَجيْتَنَا مِنَ النَّارِ؟ قَالَ : فَيَكْشِفُ الحِجَابَ فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبُّ إِلَيْهِم مِنَ النَّظرِ إِلَى رِبّهِمْ ثُم تَلاَ هَذِه الآيةِ ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنَوا الحُسْنَى وَزِيادَةٌ ﴾ رَوَاهُ التِرْمذِىُّ وَمُسْلِمُ والنسَائِى[1] .

﴿ وَقَالُوا الحَمدُ للَّه الَّذى صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الأَرْضَى نَتَبَوأُ مِنَ الَجنَّه حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعمَ أَجَرُ العَامِلينَ ﴾ .

وَعْدَ الصِّدقْ الَّذى كَانُوا يُوعَدُونَ

وَذِلكَ هُوَ الْفَوْزُ العَظِيمَ

(١) الترغيب والترهيب جـ٤ ص٣٥٩ .

دعـــاء الختام

الحَمْدُ للَّهِ الَّذِى هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلاَ أن هَدَانَا اللَّهُ ، الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى رَزَقَنِى الصَّبْرَ وأَلْهَمنِى التَّوْفِيقَ وأَعَانَنِى عَلَى مَا قَصَدْتُ وَمَا أَنْجَزْتُ .

اللهم : أَنْتَ رَبِّى لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ الحَنَّانُ المَنَّانُ بَدِيعُ السَّمَوات والأَرْضِ ذُو الجَلاَلِ وَالإِكْرَامِ رَافِعُ السَّمَوَاتِ بِلاَ عَمَدَ أَسْأَلُكَ رَبّ الْعَونَ والمَدَد .

اللهم : انْفعنَا مَا عَلَّمْتَنَا وَعلمنَا مَا يَنْفَعنَا وَزِدنَا عِلْمًا .

اللهم : إِنِّى أَعُوذُ بِكَ مِنّ شَرِ نَفْسِى وَمِنْ شَرِ كُلِ دَابَّةٍ أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِى عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ .

اللهم : إِنِّى أَعُوذُ بِكَ مِنّ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِ أَنْ يَحضُرُونَ .

اللهم : إِنِّى أَعَوذُ بِكَ رَبِّ مِنَ الْمَرَضِ والفَقْرِ والجُوعِ ومِنَ عذَابِ الدُّنيا وعَذابِ الْقبرِ وَمِن عَذَابِ النَّارِ .

اللهم : إِنِّى أَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْمَحيَا والْمماتِ وَمِن فِتْنَةِ الْمسِيحِ الدَجَّالِ وأَعَوذُ بِكَ مِن سَخَطِكَ والنَّارِ .

اللهم : إِنِى أَسْأَلُكَ حُبُّكَ وَحُبَ مَنْ أَحَبَّكَ وأَسْأَلُكَ العَفَافَ والغِنَى وَالهُدَى والتُّقَى .

اللهم : إِنِّى أَسْأَلُكَ الْكِفَايَةَ بِحَلاَلِكَ عَنْ حَرَامِكَ وَالغِنَى بِفَضْلِكَ عَمَّن سِوَاكَ .

اللهم : إِنِّى أَسْأَلُكَ رِضَاكَ وَالجَنَّةَ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ سَخَطِك وَالنَّارِ .

اللهم : اشْفِنى واشْفِ وَالدَىَ ومَرَضَانَا وَمَرْضَى الْمُسْلمينَ .

اللهم : ارْحَمْنِى وَارْحَمْ وَالِدَىَّ وارحَمْ اللَّهُمَّ أَحْيَاءَ ومَوْتَى المؤمنِينَ .

اللهم : تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّك أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ وَتُبْ عَلَيْنا يا مَوْلاَنَا إِنَّكَ أَنْتَ التوَّابُ الرَّحِيمُ آمين

اللهم : اهْدنى وَاهْدِى زَوْجِى وَأَوْلادِى لِمَا فيهِ الْخَيْرَ فى أُمُورِ الدُّنْيَا وَالدِّينِ وارزُقْهمُ الفَلاَحَ وَالنَّجَاحَ إِنَّكَ رَبٌّ عَلَى مَا تَشَاءُ قَدِيرٌ .

اللهم : وَفقْنِى وَوَفقْ وَلاةَ الْمُسْلمينَ وَوَفقْ رَئيس جُمْهُورِيَتِنَا لِمَا فِيهِ خَيْرَ الْبِلاَدِ والعِبَادِ ـ آمين .

اللَّهُم صَلِّ وَسَلِمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِدنَا مُحَمَّد وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِين وَعَلَى التَّابِعِينَ وتَابِعِى التَّابِعينَ وتَابِعيهِمْ بِإحْسَانٍ فِي الْمَلأ الأَعْلَى إِلى يَوْمِ الدينِ .

آمين

وآخِرُ دَعْوانَا أَنِ الحَمدُ لِلَّه رَبِ العَالَمِين

الكاتب

المراجـــــع

١ـ القرآن الكريم .

٢ ـ التفسير الكبير (مفاتيح الغيب) ـ فخر الدين الرازى ط . دار الغد العربى.

٣ ـ فتح البارى بشرح صحيح البخارى ـ ابن حجر العسقلانى ـ ط ـ دار الغد العربى .

٤ ـ تفسير القرطبى : القرطبى ـ ط ـ دار الغد العربى .

٥ ـ تفسير من نسمات القرآن ـ كلمات وبيان ـ غسان حمدون/ دمشق ـ دار السلام للطباعة والتشر .

٦ ـ الترغيب والترهيب ـ الإمام الحافظ زكى الدين عبد العظيم ـ ط ـ الأهرام التجارية .

٧ ـ المعجم الوجيز ـ مجمع اللغة العربية ـ ط المطابع الأميرية .



الفهرس

الفهرس